كمال النجمي

يوميات
أرباب السيوف والأقلام

من الكتاب والقواد العظام في تاريخ العروبة والاسلام



سينا للنشر

مؤسسة الانتشار العربي

كمال النجمي

يوميات ارباب السيوف و الاقلام

من الكتاب والقواد العظام في تاريخ العروبة والاسلام

الانتشار العربي
Arab Diffusion Company (UK) Ltd

سينا للنشر

كمال النجمي

يوميات ارباب السيوف و الاقلام

من الكتاب والقواد العظام في تاريخ العروبة والاسلام

LEADER`S OF THE SWORD AND THE PEN
BY
KAMAL AL NAJMI

الانتشار العربي
Arab Diffusion Company (UK) Ltd

سينا للنشر

LONDON - BEIRUT - CAIRO
Email: healthyliving@t-net.com.lb
P.o.box:113/5752- Beirut

الطبعة الاولى ١٩٩٨

First Published in 1998

المحتويات

يوميات عبيد الله بن مرجانة

الجزء الثاني: الدولة المروانية

يوميات المختار بن عبيد الله

يوميات الأمير الجميل

مصعب ابن الزبير

يوميات معلم الصبيان

الحجاج الثقفي

الجزء الأول

الدولة السفيانية

يوميات مروان بن الحكم

١

أمين سر الخلافة

اليوم الأول:

أتأهب اليوم للسفر إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكي أتخذها دار إقامة واستقرار، مع أني لم أزرها من قبل إلا مرات قلائل كنت فيها على عجلة من أمري، فلا دار لي فيها ولا عمل، وإن فيها صفوة قومي القرشيين من المهاجرين الأولين. وقد ولدت في موطني «مكة» وعشت خمسة وعشرين عاماً لم أبرحها إلا إلى مدينة «الطائف» وأنا في الثامنة من عمري في صحبة أبي حين نفاه إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب فتح مكة، في السنة الثامنة للهجرة..

هذا هو ذا عثمان بن عفان ـ ابن عمي ـ قد تولى الخلافة في المدينة عاصمة الإسلام بعد وفاة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكان من أول ما فكر فيه استقدامي ونفراً من ذوي قرابته ـ بني أمية ـ لنشد أزره وقد أصبح أول خليفة أموي على رأس دولة الإسلام.

أفكر اليوم فيما عشت من عمري في مكة..

ولدت في السنة التي هاجر فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، وكان والدي الحكم بن أبي العاص بن أمية يومئذ مشركاً معادياً للإسلام، ولم يسلم إلا عندما أسلم ابن عمه أبو سفيان بن حرب بن أمية يوم فتح مكة.. وعفا النبي عن أبي سفيان وأكرمه ولكنه أخرج أبي من مكة منفياً إلى الطائف، ثم صفح عنه ورده إلى مكة ولم يأذن له في سكنى «المدينة» كما أذن لنفر من قريش، لم يدركوا الهجرة، فبقي ونحن معه في مكة طيلة عهد أبي بكر وعمر، حتى تولى الخلافة عثمان، وهو ابن عمي.. ووالده عفان بن أبي العاص ابن أمية أخ لوالدي الحكم بن أبي العاص.. فاستدعى عثمان أبي إلى المدينة، صلة لرحمه، وعطفاً على شيخوخته، واستدعاني وإخوتي معه.. وها نحن أولاء على الأهبة في الطريق إلى مدينة رسول الله، عاصمة الإسلام والمسلمين..

اليوم الثاني:

يقول لي بعض أهل المدينة: يا مروان بن الحكم.. والله إن أباك لرجل مسالم، وديع، حسن الإسلام!.. ولكن آخرين من أهل المدينة يتساءلون مستنكرين، كيف ساغ لعثمان أن يأتي بهذا الرجل - الحكم بن أبي العاص - إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نفاه رسول الله وأخرجه من مكة عقب الفتح؟!..

وكثر الكلام في هذا الشأن، فصعد عثمان إلى المنبر النبوي وقال: إن الحكم بن أبي العاص رجل مكي، سيره رسول الله من مكة إلى الطائف ثم رده رسول الله.. فرسول الله سيره ورسول الله رده.. أكذلك هو؟!.. قال الناس: اللهم نعم!..

وسكت عنهم الغضب والتساؤل بعد هذه الخطبة المنبرية

القصيرة، فتركوا أبي وشأنه، وطابت نفوسهم بما غمرهم به عثمان من أعطيات لم يشهدوا لها مثيلاً في عهد عمر بن الخطاب!..

كان كلام الناس في المدينة على أبي أول ما سمعته من إنكارهم علينا نحن بني أمية، رهط الخليفة.. ولعلهم قالوا: «إن عثمان بن عفان بن أبي العاص قد شمل بعطفه عمه الحكم بن أبي العاص وأعطاه من بيت مال المسلمين، فانتظروا ما يصنع غداً، لبني أمية وهم كثيرون!..

توفي أبي وعزاني الناس، وصلى عليه عثمان والمسلمون، وطوى الناس صفحته، ولكنهم فتحوا صفحة جديدة، هي صفحتي أنا..

اليوم الثالث:

لا أبالي كلام الناس عني، فأنا مشغول عنه بالتزود من العلم والفقه، وقد اجتمع في المدينة الصحابة والتابعون، وفيهم العلماء والقرّاء ممن لم أصحبهم من قبل ولا سمعت من علمهم وفقههم وقراءتهم شيئاً، إذ عشت في مكة بعيداً عنهم وها أنذا أحاول تحصيل ما فاتني من فوائدهم، فلا أكاد أفارق زيد بن ثابت الصحابي العالم القارىء الذي وكل إليه عثمان أمور ديوان الخلافة، فضمني وإياه عمل مشترك.. فأنا كاتب أمير المؤمنين وأمين سره، وابن عمه.. وعينه في ديوان الخلافة.

ويقال الآن: قد صار مروان بن الحكم من أقرأ الناس للقرآن بعد أن صحب زيد بن ثابت، ولعله يصبح غداً فقيه المدينة وقارئها!..

وإني والله لأرجو لنفسي هذه المنزلة، فإن لم أبلغها، فلعل ابني عبد الملك الذي ولد منذ شهور، يبلغ منها ما لم يتيسر لي، فيكون فقيه مدينة رسول الله!..

اليوم الرابع:

يزعم بعض الناس أن أمير المؤمنين فرضني في شؤون الدولة أتصرف فيها برأيي.. وأني وبني أمية قد اتخذنا بيت مال المسلمين طعمة لنا، فتمولنا وأترفنا وافتقر المسلمون، وضاقت أحوال الضعفاء من العرب والعجم.

ويقول الناس: لم يكن عمر بن الخطاب يعطي قومه بني عدي نقيراً ولا قطميراً من بيت المال، أما عثمان فيعطي قومه بني أمية القناطير، ولا يزيد في تبرير ذلك على قوله: إنما أصل رحمي!..

ليت شعري، ألا يرى الناس حقيقة ما يجري أمام عيونهم؟!.. فإن الثراء الواسع قد عم الآن مهاجرة قريش كما عم الأنصار وصفوة العرب، ولم تستأثر به أمية وحدها، وفي المهاجرين - من غير بني أمية - أثرياء كثيرون ولست وحدي العظيم الثراء بين رجال الخليفة، فإن رئيس ديوانه زيد بن ثابت هو الآن أعظم ثراءً مني، وقد زاد ثراؤه بعد أن جمع القرآن كله في مصحف واحد اكتفى به عثمان وأحرق ما كتبه الناس من المصاحف وأجزائها..

أما في الأمصار، فالناس في خير وعافية، والفيء مقسوم بينهم، والعطاء لا ينقطع، ولكن عهد عثمان بن عفان قد ثقل على الناس لأنه امتد أكثر مما كانوا يتوقعون، وإنهم ليقولون: قد جاوز عثمان سن الثمانين وما زال يستمسك بقميص الخلافة ولن يخلعه ما دام حياً.. وقد كثر الظلم والفساد وثقلت وطأة بني أمية علينا!.

كأنما يريدها الناس فتنة جائحة، أو ثورة على الخليفة اللين الهين ذي النورين الذي سمعته مراراً يقول: إنما ركبني الناس استخفوا بي لأني لنت لهم ورفعت عنهم صرامة عمر بن الخطاب!..

لقد اختلفت الأمور، ففي عهد عمر كانت العرب في أول الفتوح، لم تفارق بعد شظف العيش.. أما الآن ـ في عهد عثمان ـ فالفتوح الإسلامية تمد جناحيها شرقاً وغرباً، وقد كثرت الأموال والغنائم، وغصت المدينة ودمشق والبصرة والفسطاط بالسبي من الجواري والغلمان، فهل أخذ بنو أمية من ذلك كله إلا كما أخذ المهاجرون والأنصار والعرب الآخرون؟!

وهل ظهر الثراء الواسع في أمية وحدها أم في قريش كلها والأنصار والقبائل؟!..

ولقد توفى الصحابي عبد الرحمن بن عوف أخيراً، فاستخدم ورثته الفؤوس في كسر سبائك الذهب الضخمة التي وجدوها في تركته العظيمة، حتى قال عثمان: رحم الله ابن عوف.. كان والله كريماً كثير الصدقات، لا يكتنز المال، وقد ترك لورثته ما ترون!..

إن بني أمية لم يكتشفوا الذهب والفضة في الصحراء العربية، ولكن الفتوح التي يسرها الله للمسلمين قد أفاءت عليهم الذهب والفضة كالغيث يهطل من السماء.. وقد غضب من لم يصب من هذا الغيث الهاطل ما أصاب الآخرون وزعموا أننا استأثرنا بالأموال، واستكثرنا من الدواب والخدم والجواري، وأننا غيرنا وبدلنا وخرجنا عن كتاب الله وسنة رسوله، وشنوا علينا حرب الكلام، حتى اضطر أمير المؤمنين، أن يخرج عن لينه وحلمه ويعاقب بعض دعاة السخط، كأبي ذر الغفاري الذي يقود الحملة على بني أمية في الشام ـ مقر معاوية ـ وفي الحجاز ـ مقر أمير المؤمنين ـ وقد كان أبو ذر قبل نفيه إلى صحراء الربذة يهتف قائلاً::

«لم يكن شيء من هذا في أيام النبي وأيام أبي بكر وعمر»!.. وصدق أبو ذر، ولكن هل بلغت الفتوح في عهد النبي وخليفتيه إلى ما وراء برقة غرباً وإلى خراسان شرقاً؟!.. إن هذه الأرض الشاسعة تخرج الآن أثقالها من الخيرات وتصبها في خزائن المدينة.. فماذا يصنع الخليفة بهذا الفيض العميم من الخيرات؟!.. أيحتجبه عن قريش والأنصار والقبائل، أم يفرقه ويعطي ذوي رحمه من بني أمية وبني هاشم وسائر قريش؟!..

نحن في عام ٣٥ للهجرة.. اشتدت الثورة على ابن عمي وأستاذي عثمان بن عفان!.. الثائرون القادمون من مصر والأقاليم الأخرى يريدون خلعه من الخلافة، وهو يقول: «هذا قميص ألبسنيه الله تعالى فلا أخلعه».. والحق معه، فقد اختاره أهل الشورى فكيف يخلعه الغوغاء؟!..

طلب الثائرون عزل والي مصر فخلعه عثمان، وأن يسلمني إليهم ليقتلوني لأني في رأيهم رأس الفساد في الدولة، فأبى عثمان أن يسلمني، فحاصروه في داره، وأقبلت الفتنة تجرر أذيالها الملطخة بالدماء!..

خرجت شاهراً سيفي أدافع عن أمير المؤمنين فضربني أحد الغوغاء بالسيف ضربة أوقعتني بلا حراك، ولكني نجوت، وقتل الغوغاء أميرالمؤمنين!..

اليوم الخامس:

خرجت مع بني أمية من المدينة إلى مكة قبل أن يبايع أهل المدينة ومن معهم من أهل الأمصار علي بن أبي طالب بالخلافة.. إن الأمور في الدولة جد مضطربة، والناس مختلفون متناحرون، وقد خرج طلحة والزبير ومعهما عائشة أم المؤمنين والكثيرون

يطالبون بدم عثمان، وخرجت معهم إلى البصرة فشهدت موقعة الجمل وجرحت فيها، ودارت الدائرة علينا، فقلت في نفسي: إنني لمن أقرب الناس نسباً إلى علي بن أبي طالب، فأنا وهو نلتقي في جدنا «عبد مناف» سيد قريش، وإن علياً لأحب إلينا نحن بني أمية من طلحة والزبير اللذين وثبا يطلبان الخلافة بعد عثمان، وليسا من أبناء عبد مناف!..

قصدت علياً وبايعته بالخلافة فعفا عني وأعادني إلى «المدينة» معززاً مكرماً.. ولكن النزاع سرعان ما اشتجر بين علي ومعاوية والتحمت جيوشهما في معركة صفين الرهيبة التي أوشكت قبائل العرب أن تهلك فيها.

مكثت في المدينة محايداً أرقب النزاع بين علي ومعاوية.. وها هي ذي خمس سنوات تنقضي بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان، والأخبار الواردة من «الكوفة» تقول إن الخوارج قتلوا علياً!.. ما أشبه الليلة بالبارحة!..

سلم الحسن بن علي مقاليد الأمور إلى معاوية بن أبي سفيان فالحسن رجل مسالم وقد كره أن يخوض دماء المسلمين، وآثر أن يبايع معاوية بالخلافة، واجتمع المسملون في عامنا هذا ـ عام ٤١ للهجرة ـ لأول مرة منذ مقتل عثمان، وأدخلوا في الجماعة، وجلس على سرير الخلافة معاوية ثاني خليفة من بني أمية، وانتقلت عاصمة الخلافة الإسلامية نهائياً من المدينة إلى دمشق!..

اليوم السادس:

تلقيت من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان تقليداً بولايتي على المدينة والحجاز..

جاء عيد الأضحى، فخرجت مع الناس وفيهم الصحابة من المهاجرين والأنصار، فلما أتينا المسجد النبوي لصلاة العيد، أردت أن أرتقي المنبر لأخطب الناس قبل الصلاة، فجذب ثوبي أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله، يريد أن يمنعني من الخطبة قبل صلاة العيد، وقال لي:

ـ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج في العيد إلى المصلى، فأول شيء يبدأ به الصلاة، فإذا قضيت خطب في الناس ووعظهم..

ـ أراد أبو سعيد الخدري أن أصلي بالناس قبل أن أخطب فيهم، اتباعاً لما كان في عهد النبي وعهد أبي بكر وعمر وعثمان، ولكني قلت له:

ـ أبا سعيد، قد ذهبت تلك الأيام، لو صليت العيد ثم وقفت أخطب على المنبر لأنصرف الناس عني ولم يسمعوا كما كانوا يسمعون في تلك الأيام، فأنا أجعل الخطبة قبل الصلاة حتى يسمعني الناس!..

قال لي أبو سعيد محتداً محنقاً:

ـ قد والله غيرتم وبدلتم في سنة رسول الله!

لم أرد عليه، وقمت أخطب، فنحن لم نغير ولم نبدل، ولكن الزمان تغير، وتغير الناس، ولا نملك نحن حكامهم إلا أن نتغير، فليس يصلح الآن لنا ولهم ما كان يصلح للناس وحكامهم في عهد النبوة وعهد الخلفاء الراشدين!..

اليوم السابع:

بلغ ابني عبد الملك في هذا العام ـ ٤٥ للهجرة ـ الحادية

والعشرين من عمره، فكأنه قد بلغ الأربعين، عقلاً وعلماً وفقهاً وقراءة ودربة على شؤون الحكم والسياسة..

وقد خلا منصب رئيس المدينة إذ توفي الصحابي الفقيه القارىء زيد بن ثابت الذي شغل هذا المنصب منذ كان يسمى «ديوان الخلافة» في عهد عثمان حتى صار اسمه «ديوان المدينة» في عهد ولايتي عليها للخليفة الأموي الجديد معاوية، فكتبت إليه أن يعين ولدي عبد الملك في هذا المنصب، فوافق معاوية، أن يخلف ابني - على صغر سنه - شيخاً كبيراً من أئمة القراء والعلماء.. وملأني ذلك سروراً، وعددته من بشريات السعادة لابني هذا ولذريتي من بعدي إن شاء الله!..

٢

عزل الوالي وعودته

اليوم الأول:

لبثت والياً على المدينة النبوية حتى يومنا هذا سبع سنوات منذ ولاني أمير المؤمنين معاوية سنة ٤٢ للهجرة، وها هو ذا يعزلني عن الولاية ونحن في سنة ٤٩، ويعين مكاني سعيد بن العاص، أحد المقربين إليه من قومنا الأمويين..

ولن ينسى أهل المدينة سيرتي فيهم، فقد كنت والله عادلاً مصلحاً، مقيماً لشعائر الله.. ما أخللت بالقرآن قط، ولا قصرت في حق المهاجرين والأنصار ومشيخة الصحابة، وأمهات المؤمنين، والحسن والحسين وأخيهما محمد الملقب بابن الحنفية، وسائر بني هاشم..

وقد عاقبت من يغشون الدنانير والدراهم من الصناع الأعاجم وأراذل العبيد، فقطعت أيديهم وأرجلهم نكالاً لهم، وزجراً للمفسدين في الأرض.. ونظرت في المكاييل والموازين فضبطت أمرها وأحكمته، فانتظم البيع والشراء وعمرت الأسواق.. وحددت

مقدار ما يكال بالصاع من قمح أو شعير تحديداً صحيحاً فاختفت الصيعان الزائفة، وامتدح الناس صاعي، وضربوا به الأمثال، فقالو: الصحيح صاع مروان!.. وقال لي العرفاء من الصحابة إن صاعي هذا يساوي الصاع الذي كان يكال به في عهد النبي وصاحبيه أبي بكر وعمر.. ولم أغفل مشورة صحابة رسول الله قط، فلم يأتني من دمشق أمر من الخليفة معاوية إلا عرضته عليهم واستفتيتهم فيه.. وقد حمد أهل المدينة سيرة ولدي عبد الملك لصلاحه وتقواه وفقهه وجودة قراءته ولزومه المسجد، حتى قيل: عبدالملك حمامة المسجد!..

ولم يرفع أحد في المدينة ولا في الحجاز كله إصبعاً مخالفة لمعاوية، فقد كنت نائباً له، يراه الناس من خلالي فيحمدونه، مع أنه انتزع الملك بسيفه ولم يأخذه برضاهم ولا بثقتهم!..

اليوم الثاني:

مضى عام وأنا معزول عن ولاية المدينة، ولكنني مقيم في بيتي الذي شيدته فيها، ولن أبرحها إن شاء الله لأنها صارت مقري وبلدي منذ انتقلت إليها من مكة مع أبي وأسرتي في أول عهد أمير المؤمنين عثمان رحمه الله..

لن أعود إلى مكة وإن كانت في سويداء قلبي، ولن أقصد إلى دمشق لأقيم فيها كما فعل المترفون من قومنا الأمويين الذين أحاطوا بمعاوية وظفروا بعطائه الجزيل..

ويبدو أن معاوية وقد جلس على دست الخلافة عشر سنوات حتى يومنا هذا، لم يعد يزن الأمور وزناً صحيحاً، فقد أرسل بعض أعوانه إلى المدينة لينقلوا منبر مسجد الرسول إلى دمشق!..

وسئل رسل معاوية: لماذا يريد نقل منبر النبي من مسجده في المدينة، فأجابوا: إن معاوية يرى ألا يترك المنبر في المدينة وأهلها ضالعون في قتل عثمان!..

أدهشني منطق معاوية!..

فإن الذي قتل عثمان هم غوغاء الأمصار لا الأنصار من أهل المدينة، وإن كان أكثر أهلها لم يتحمسوا للدفاع عنه، ثم إن حادث عثمان قد مضى منذ بضعة عشر عاماً، ولم يتحرك معاوية للبحث عن قتلته ومعاقبتهم، فما الذي دعا إلى رفع قميص عثمان من جديد؟!.. لعل جلساءه الذين يسامرونه هم الذين زينوا له نقل منبر رسول الله، ولو استطاعوا لزينوا له نقل حيطان المسجد أيضاً!..

امتثل الوالي سعيد بن العاص لأمر معاوية وأمر بتحريك المنبر لنقله، فلما أخذوا في تحريكه هاج الناس، وقال الصحابة: لا يصلح أن يخرج منبر النبي من موضعه!..

وما هدأت العاصفة حول المنبر النبوي، حتى ضجت المدينة بنبأ وفاة الحسن بن علي ـ سبط رسول الله ـ وكان قد تنازل لمعاوية عن الخلافة منذ سنوات..

بكى الناس وهم يدفنون الحسن في البقيع، وتذكر بعضهم ما يشاع من أن معاوية كان يقول أحياناً: إن لله جنوداً من العسل!.. يعني العسل الذي يشاب بالسم لاغتيال الخصوم!..

استعذت بالله مما يقول الطاعنون على معاوية، فإن معاوية لا يصنع ذلك!.. وقد سأل الحسين أخاه الحسن وهو في مرضته.. هل سقاه أحد سماً، فلم يتهم الحسن ـ رحمه الله ـ أحداً.

في هذه السنة ـ ٥١ للهجرة ـ حج معاوية، فجاء بعد أداء مناسك الحج إلى المدينة، يدعو أبناء المهاجرين والأنصار إلى مبايعة

ابنه يزيد على الخلافة من بعده، وقد خلا له الجو بموت الحسن بن علي، وكان معاوية قد وعده بولاية عهد الخلافة منذ تصالحا في عام الجماعة..

إن محبة معاوية لابنه المدلل تكاد تعميه عن حقيقته.. فهل يجهل معاوية ـ على فطنته وحذاقته وكثرة من يأتيه بالأخبار ـ أن أهل المدينة يصفون ابنه هذا بأنه سكير خمير، يلبس الحرير، ويضرب بالطنابير؟!..

اليوم الثالث:

شقيقي عبد الرحمن بن الحكم شاعر، ليس في الفحول ولا المفلقين من الشعراء، ولكنه متوسط القول،ويجيد أحياناً فيظنه سامعه أشعر من امرىء القيس!..

قال لي عبد الرحمن:

ـ لو نشطت معي لزيارة أمير المؤمنين في دمشق، لأعادك إلى ولايتك، فقد طال العهد بسعيد بن العاص في دار الإمارة بالمدينة وأزف وقت رحيله!..

قلت لعبد الرحمن:

اشخص أنت قبلي وخاطبه في الأمر، ثم ألحق بك فتكون قد مهدت لي عنده وسهلت اللقاء بيننا.

سافرت إلى دمشق، ونزلت في دار لأخي هناك، فمضى إلى معاوية في قصره يعاتبه ويستصلحه.. فسأله معاوية:

ما صفة فرسك الذي جئت به إلينا؟!

قال عبد الرحمن:

«أجش هزيم!..

فغضب معاوية لأن في هذه الإجابة تعريضاً من معركة صفين حين ظن أنه مهزوم، فركب فرسه وأطلق له العنان ناجياً من أصحاب علي بن أبي طالب.. وفي ذلك قال الشاعر النجاشي يهجو معاوية ويصف هروبه:

ونجىَّ ابن حرب سابحٌ ذو علالة «أجش هزيم» والرماح داوني
إذا خلت أطراف الرماح تناله مرته به الساقان والقدمان

ورد معاوية على عبد الرحمن تعريضاً به:

- إنني لا أركب فرسي الأجش الهزيم إلى ريبة أو حرام كما يعفل من يتسور على جواري أخيه!..

وكان بعض الناس يتهمون عبد الرحمن بأنه يتسلق أسوار داري في المدينة للقاء بعض الجواري، وهي فرية شاعت حتى بلغت معاوية!..

خجل عبد الرحمن من تعريض معاوية به وقال يدير دفة الحديث:

- يا أمير المؤمنين.. ما حملك على عزل أخي مروان من ولاية المدينة؟.. ألجنايةٍ أوجبت سخطاً، أم لرأي رأيته، وتدبير استصلحته؟!.

قال معاوية:

- لتدبير استصلحته..

قال أخي:

- فلا بأس بذلك إذن!.

وخرج من عنده وجاءني يقص النبأ فاستشطت غضباً وقلت له:

- قبحك الله.. ما أضعفك!..

ثم لبست حلتي وركبت فرسي وتقلدت سيفي، ودخلت على معاوية، فقال لي حين رآني وتبين الغضب في وجهي:

ـ مرحباً بأبي عبد الملك.. لقد زرتنا عند اشتياق منا إليك!..

ـ تالله ما زرتك لذلك، ولا قدمت عليك فألفيتك إلا عاقاً قاطعاً للرحم والقرابة..

قال معاوية مهدئاً يخاطبني بكنيتين لي:

ـ مهلاً أبا عبد الملك.. على رسلك أبا القاسم..

ـ والله ما أنصفتنا ولا جزيتنا جزاءنا.. لقد كان الفضل من بني أمية لنا نحن بني أبي العاص بن أمية، لا لكم يا بني حرب بن أمية.. وكان الصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم لنا لا لكم.. والخلافة فينا لا فيكم، إذ تولاها عثمان حفيد أبي العاص.. فوصلناكم يا بني حرب، وشرفناكم ووليناكم فما عزلناكم.. حتى إذا وليتم وأفضى الأمر إليكم عزلتمونا!..

قال معاوية:

ـ عزلتك لأمور كثيرة، ولكني الآن أردك إلى عملك!..

فوثبت قائلاً:

ـ كلا والله.. لا رأيتني عائداً إليه أبداً..

فلم يزل معاوية يسترضيني حتى رضيت وقلت راجعاً إلى عملي بالمدينة، وقد سبقني إليها كتاب معاوية إلى سعيد بن العاص بعزله!..

اليوم الرابع:

عشت مع الناس بعيداً عن الحكم ودار الإمارة في مدينة

الرسول من سنة تسع وأربعين إلى سنة أربع وخمسين، فانقضت سنوات خمس عجاف تولاها سعيد بن العاص، لم ير منه أهل المدينة ما يرضيهم، ولا رأى منهم ما يرضيه..

كنت خلال تلك السنوات أرقب حزيناً ملتاعاً خلو المدينة شيئاً فشيئاً من أصحاب رسول الله، رجلاً بعد رجل.. فقد كان الموت يستأثر بهم واحداً بعد واحد كأنهم كانوا معه على ميعاد، أو كأنما كان بعضهم مع بعض على ذلك الميعاد!..

وكنت رأيت المدينة حين دخلتها لأقيم فيها مع أبي وأسرتي منذ ثلاثين عاماً، ممتلئة بأصحاب النبي من المهاجرين والأنصار.. ومنهم تعلمت الفقه والشريعة وحفظت القرآن وعرفت علومه، ودخلت في الطبقة الأولى من التابعين!..

أما الآن.. فما بقي إلا القليل من أولئك الناس الكرام.. شيعنا أمس منهم حسان بن ثابت شاعر رسول الله.. مات وله من العمر مائة وعشرون عاماً..

ولم نفرغ من حسان، حتى شيعنا عائشة بنت أبي بكر الصديق، زوجة رسول الله، أم المؤمنين، فقيهة هذه الأمة!..

دفناها ليلاً في البقيع، فلم نر ليلة أكثر ناساً من تلك الليلة!..

وأظنها ماتت وهي غاضبة على معاوية لقتله بعض أهل الكوفة بدعوى أنهم خلعوا بيعته!..

وأظن الآن ظناً يشبه اليقين أن معاوية لا يتردد في عزلي عن إمارة المدينة مرة أخرى، لأنه يرى أنني لم أمد إليه يداً حين كان يسعى للخلافة في نزاعه مع علي بن أبي طالب..

وإنه فيما يرى من ذلك لعلى حق، فقد خرجت مع طلحة بن

عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين، وقاتلت في معركة الجمل في البصرة، ثم أعطاني «علي» الأمان فبايعته وعدت إلى المدينة فعشت فيها مسالماً آمناً لا أشتغل بالنزاع الدائر حول من يكون الخليفة: علي أم معاوية؟!

وفي صفين ـ احتشد بنو أمية حول معاوية، ولكني ـ وأنا في الصميم من أمية ـ لم أكن معهم، ولم أفكر في الهروب إلى الشام والانضمام إلى معاوية كما فعل غيري!..

فلما تولى معاوية الخلافة، ولاني إمارة المدينة وأنا لم أفارقها قط إليه طوال صراعه في طلب الخلافة، ولا طلبت إليه أن يجعلني أميراً على المدينة.. فلولا مصلحته ما أبقاني!..

٣

البراءة من دم الحسين

اليوم الأول:

هذه السنة - ٤٥ للهجرة - أول سنة لي في ولايتي الثانية على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قررت أن أحج بأهل المدينة هذا العام.

فارقنا سعيد بن العاص الوالي المعزول قاصداً دمشق، ولعل في انتظاره هناك معركة حامية مع ابن عمه وعمنا أمير المؤمنين معاوية!..

شيعنا إلى مدافن البقيع صاحب رسول الله سعد بن أبي وقاص. كان يقال له: «فارس الإسلام» و«أول من رمى بسهم في سبيل الله».. وله في هذا شعر يرويه أهل المدينة:

ألا هل أتى رسول الله أني حميت صحابتي بصدور نبلي

فما يعتد رام في عدو بسهم يا رسول الله قبلي

لم نكد نشيع هذا الصحابي الكبير إلى مثواه حتى صاح الناعي

بصحابي كبير آخر هو الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي الذي كان رسول الله يستتر مع المسلمين الأوائل في داره بمكة اتقاء المشركين قبل الهجرة.. ويقول أهل المدينة إن الأرقم قد نيف على الثمانين، وكان ـ رحمه الله ـ مقرباً إلى النبي صلى الله عليه وسلم..

أنا وأهل المدينة لا نألو جهداً في تجهيز من يتوفى من أصحاب رسول الله وتشييعهم بالتجلة والتكرمة إلى مراقدهم.. وقد تفانوا واستأثرت بهم رحمة الله واحداً بعد واحد، حتى لتوشك الدنيا أن تخلو منهم، فيذهب عندئذ بهاؤها وبركتها!..

شيعنا إلى مدافن البقيع أم المؤمنين جويرية بنت الحارث، وأصلها من بني المصطلق، سبيت في غزوة بني المصطلق في السنة الخامسة للهجرة فتزوجها النبي وجعل صداقها عتق الجماعة من قومها، ثم قدم أبوها الحارث بن أبي ضرار إلى النبي صلى عليه وسلم فأكرمه وقد أسلم الحارث وحسن إسلامه، وسبق ابنته إلى رحمة الله.

اليوم الثاني:

فرغ أمير المؤمنين معاوية من تثبيت البيعة لابنه يزيد، ووطد له أركان الدولة، وهيأ له أسباب الخلافة.. وقد بلغ معاوية السابعة والسبعين من عمره فكأنه ورث طول العمر من والده أبي سفيان، ولكنه لم يرث منه الصحة وخفة الحركة، لأن أبا سفيان لم يكن يجلس على سرير الحكم بل كان دائم التقلب هنا وهناك، أما معاوية فإن الجلوس على السرير قد أثقله بالسمنة المفرطة فعاقته في شيخوخته عن الحركة، فلا يصافح الناس إلا جالساً معتذراً إليهم بما يرونه من بدانته وكبرته!..

ليس في قريش كلها الآن من يعارض معاوية، وعطاؤه أحب

إليهم من عطاء عمر وعثمان وعلي لأنه جزل مضاعف.. ولا ينكر بنو هاشم خلافة معاوية فقد أخذها منهم صلحاً ولم ينقض شيئاً من شروط الصلح، ولكني أشك في تسليم الهاشميين ببيعة يزيد إذا خلا مكان معاوية وتقدم يزيد ليجلس فيه!..

لقد حكم معاوية الشام عشرين عاماً، والياً لعمر وعثمان، ثم حكم الشام وسائر بلاد المسلمين عشرين عاماً أخرى، فلبث في الولاية وإمارة المؤمنين أربعين عاماً، وعاش يفخر بأنه كاتب النبي، وأنـه أخـو أم المؤمنيـن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة رسول الله..

ومعاوية لا يبخل بالمال على بني هاشم.. رأيته ورآه الناس يعطي عبد الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي ألف ألف درهم عطاء خالصاً له، لا يحصل على مثله أحد من بني أمية أنفسهم..

وقبل وفاة الحسن بن علي كان معاوية حريصاً على توثيق العلاقة به، فترك له أقاليم خصبة وواسعة يجبى خراجها لنفسه كأنه يحكمها أو كأنه يملكها، ولا يحاسبه معاوية على درهم ولا دانق!..

ولئن مات معاوية لتكونن خسارة بني هاشم أشد من خسارة جميع العرب، فإنه أكثر قومنا الأمويين في دمشق معرفة بحق الهاشميين، ولن يعرف أحد من أمية حقهم بعده كما عرفه..

وقد عشنا الأشهر الأولى من هذه السنة ـ ستين للهجرة - يساورنا القلق على أمير المؤمنين معاوية، فقد اشتد عليه الضعف، وكثر دخول الأطباء عليه وخروجهم، وتضاربت الأقوال والشائعات!..

اليوم الثالث:

جاءنا النبأ الذي كنا نخاف منه!..

توفي معاوية إلى رحمة الله، ونودي بابنه يزيد في دمشق خليفة على المسلمين، وبعث يزيد رسله إلى الأمصار يطلب البيعة من أهلها.. ومن حسن حظي أن معاوية عزلني ـ للمرة الثانية ـ في أواخر أيامه، فنجوت من السعي بين الناس في طلب البيعة لابنه يزيد..

وهنا في المدينة يعتصم الناس ببيوتهم فراراً من هذه البيعة..

وما يراه أهل المدينة في يزيد هو في الحقيقة ما يراه عموم المسلمين في مكة والبصرة والكوفة ومصر وسائر الأمصار.. وقد تواردت إلينا أنباء الفتوق التي أخذت تمزق دولة يزيد المترامية الأطراف، وأطلت فرق الخوارج من جديد، وتحركت جماعات الشيعة ودعاة أهل البيت، وما زال يزيد يبدأ خطواته الأولى في الخلافة، فما عساه يصنع؟!..

حمدت الله تعالى على عزلي في هذه الآونة، لأني أوثر التنحي عن العمل في دولة يزيد، وأن البعد عن السلطان لأحب إلى قلبي الآن من القرب، وأرى الخير كله فيما اختاره الله لي من اعتزال يزيد وحزبه حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً..

تولى إمارة المدينة الشاب الأموي عمرو بن سعيد بن العاص.. وكان معاوية ـ منذ سنوات ـ قد ولى عليها سعيد بن العاص والد عمرو هذا بدلاً مني، ثم عزله وأعادني، فجاء يزيد بن معاوية فأقر في مكاني ابن سعيد بن العاص، وتلك الأيام نداولها بين الناس، والله غالب على أمره..

اشتد عمرو بن سعيد في طلب بيعة الحسين بن علي وآل البيت الهاشمي للخليفة يزيد.. أجابه بعضهم وبايع، ولكن الحسين تسلل من المدينة بأهله وعياله وبعض أقاربه وشيعته قاصداً مكة، نجاة بدينه ودنياه من هذا البيعة التي يراها مخالفة لمصالح المسلمين..

اليوم الرابع:

لبست المدينة الحداد حزناً على مقتل الحسين في كربلاء.. إن عبيد بن زياد قائد جيش يزيد بن معاوية التقى في كربلاء بالحسين جماعة صغيرة معه فقتلهم جميعاً، واحتز رأس الحسين، وجعل من جسده وأجساد أبنائه وذويه وصحبه موطئاً للخيل. وسبى النساء والأطفال وأهانهم وروَّعهم، وفيهم زينب بنت علي بن أبي طالب، أخت الحسين.. وابنه زين العابدين الذي لم يجاوز الرابعة عشرة من عمره، وهو الوحيد الذي بقي حياً من أبناء الحسين!..

وأرسل ابن زياد آل الحسين مع رأسه إلى يزيد في دمشق، فجعل يزيد ينكت بقضيب في أسنان الحسين متأملاً ملامحه ثم أنشد:

نفلق هاماً من أناس اعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

يريد يزيد أن يتهم الحسين بالعقوق وظلم ذوي القربى في خروجه عليه وامتناعه عن بيعته.

وبلغني أن يزيد قال لجلسائه:

- إنما خرج هذا يشق علينا العصا وهو يحدث نفسه بأنه خير مني أبا وجداً وأما.. فأما جده لأمه، فلعمري ما فينا أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله عدلاً ولا نداً.. وأما جده لأبيه، فأبو سفيان مات مسلماً وأبو طالب مات ولم ينطق الشهادتين، وأما أبوه وأبي، فقد تحاكما إلى الله فحكم لأبي وبوأه الخلافة.. وأما أمه فإن

امرأة من قريش ـ وهي أمه ـ خير من امرأة من بني كلب وهي أمي..

اليوم الخامس:

ينتظر أهل المدينة عودة زين العابدين علي بن الحسين ومن بقي حياً من أسرته، فقد وجههم يزيد إلى المدينة، وبلغني أنه اعتذر إلى زين العابدين وأظهر حزنه على «الحسين» وقال:

ـ لعن الله ابن مرجانة ـ عبيد الله بن زياد ـ والله ما أمرته أن يقتل الحسين!..

وواست نساء يزيد والأمويين زينب بنت علي ومن معها من بنات هاشم، وأقمن مأتماً للحسين في قصر الخلافة، واشتددن في التنديد بفعلة ابن مرجانة، واستنكار ما أصاب بنات «عبد مناف» من جرائم العسكر الأجلاف.. وقلن:

ـ قد أهان بنات أمية حفيد عبد مناف من أهان بنات هاشم بن عبد مناف!..

ولم يمنع يزيد نساءه ونساء بني أمية من النياحة على الحسين وآله، فالجرم فادح، والمصاب لم يترك قلباً إلا جرحه. ولكن الملك عضوض عقيم لا رحمة فيه ولا قرابة. وفي سبيله يتقاتل الإخوة وأبناء العم ويذبح بعضهم بعضاً..

إلا أن الحسين ـ في الحقيقة ـ لم يتريث ولم يعد العدة، بل كان متعجلاً خفيفاً. سارع إلى تصديق غوغاء الكوفة ممن تظاهروا بالتشيع له، وهم أنفسهم من تشيعوا لأبيه من قبل ثم خذلوه وأسلموه للقتل..

وقد رأيت شيخ الهاشميين المحنك عبد الله عباس يسدي

النصيحة إلى الحسين ألا يسمع لغوغاء الكوفة، فلم ينتصح الحسين لابن عباس، ولا انتصح الحسين لأخيه محمد بن علي بن أبي طالب، ابن الحنفية، وهو أخوه من أبيه، وأكثر الناس شفقة عليه ومحبة له!..

ولكن الحسين خرج حمية لدينه، ولما يراه من حق بني هاشم في الخلافة.. وليس ليزيد بيعة في عنقه كما كانت لأبيه معاوية، فإن كان للحسين عذر في التعجل بالخروج فهذا عذره.. رحمه الله!..

وقد كان الحسين طيلة عهد معاوية هادئاً ساكناً حافظاً لبيعته، يزجر من يهمس له لخلعها. وكذلك كان أخوه الحسن - رحمه الله - فلم ير منهما معاوية إلا الصدق في البيعة، والوفاء للعهد..

وكنت أنا وابني عبد الملك وبقية أهلي في المدينة على أحسن الصلات مع الحسين رحمه الله حين كنت والياً، فكان يتخذني إماماً في الصلاة الجامعة بالمسجد، وكان الحسن أيضاً يصلي ورائي، ولم أر أحداً منهما صلى وراء والٍ أموي في المدينة غيري.

وأنا أبرأ إلى الله من جريمة عسكر يزيد بن معاوية، وأسأله الله أن يجنب المسلمين سوء عواقبها.. وياتعسا لأبناء بني عبد مناف بن قصي سيد قريش وقد صاروا يتجالدون بالسيوف، ويضرب بعضهم رقاب بعض في طلب سرير الخلافة!..

والله يعلم أنه لا ذنب لي في هذه الدماء التي جرت بين أبناء العمومة من هاشم وأمية أحفاد عبد مناف، وما خرجت على علي ابن أبي طالب في شبابي أطلب دم عثمان إلا وظني أنه كان لعلي يد في سفكه، ثم تبينت براءته.. فلا دم لبني أمية عند بني هاشم، ولكنْ بنو هاشم قد صار لهم الآن دم غزير عند بني أمية، فيا سوء المنقلب للفرعين الكريمين في دوحة عبد مناف بن قصي!..

أليس عجيباً أننا في الجاهلية لم يقتل أحدٌ منا، وكان التنافس بيننا على مكارم الأعمال والأخلاق وخدمة الحجيج في مكة.. ثم لما أكرمنا الله بالإسلام، سالت بيننا الدماء؟!..

٤

يزيد والهاشميون الثلاثة

اليوم الأول:

استقر زين العابدين علي بن الحسين في داره بالمدينة بعد مصرع أبيه في كربلاء، ورأيت حاكم المدينة عثمان بن محمد بن أبي سفيان ـ ابن عم خليفتنا يزيد بن معاوية ـ لا يمد يد العون لهذا الشاب الصغير الذي فقد أباه وإخوته وكثيراً من بني عمومته وقرابته الأدنين في مذبحة كربلاء، فنهضت فصرت إلى زين العابدين في داره فقلت له مواسياً:

ـ يا بن أخي.. إن أباك ـ رحمه الله ـ كان قد سألني حين كنت والياً على المدينة، أربعة آلاف دينار فوق عطائه، فلم تكن حاضرة عندي يومها، وهي اليوم عندي مستيسرة، فإن أردتها فخذها فهي من حقك..

تبسم زين العابدين شاكراً، ولم يرفض الهدية، فامتلأ قلبي سروراً!.. وإن زين العابدين لمن أعقل بني هاشم، وأكثرهم قصداً، وأحسنهم طاعة للولاة والأمراء، وأحبهم إلينا نحن بني أمية في

المدينة ومكة ودمشق.. وإن يزيد بن معاوية ـ على جبروته ـ لا يفتأ يرسل إلى واليه في المدينة أن يرفق بهذا الفتى الهاشمي ويقضي حوائجه.

وقد تركت كربلاء في زين العابدين أثراً غائراً، وعلمته ما لم يكن يعلم من ابتلاء الناس بالناس في هذه الحياة، فعاد منها وكأنه قد كبر عشرات السنين في سنة واحدة!.. ولم تزل كلماته منذ نصل ليل كربلاء، تنم على وفور عقله، ورجاحة حلمه، وركانته وزكانته.. سمعته أخيراً يقول لبعض شيعته:

أيها الناس.. أحبونا حُبَّ بالإسلام، فوالله ما زال بنا ما تقولون حتى بَغَّضْتُمونَا إلى الناس!..

وجاء إليه نفر من هؤلاء، فأسرفوا في الثناء عليه، فقال ينهرهم:

ـ ما أكذبكم وما أجرأكم على الله!.. نحن من صالحي قومنا، وبحسبنا أن نكون من صالحي قومنا!..

ولكن زين العابدين ـ مع ذلك ـ قلما يتصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مخافة أن يطغى عليه جبار عنيد.. وتلك هي العظة التي عاد بها من بلاء كربلاء!..

ويا رحمتا له وللهاشميين جميعاً.. فإنهم منذ مصرع الحسين لا يكاد أحدهم يخرج من داره، وقالت لي إحدى عجائز قومي كأنها ترثي لهم:

ـ ما من امرأة هاشمية في المدينة اكتحلت ولا اختضبت ولا لبست ثوباً جديداً منذ مصرع الحسين!..

ولم يبق على قيد الحياة من كبراء بني هاشم إلا محمد بن علي ابن أبي طالب الذي أنجبته لعلي ـ رحمه الله ـ زوجة له اتخذها من

بني حنيفة، فسمى الناس ابنها هذا «ابن الحنفية» لكيلا يختلط عندهم بأبناء علي بن أبي طالب من فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم.

وهناك أيضاً عبد الله بن جعفر وهو الهاشمي الذي ضرب الناس بجوده الأمثال، وليس له نظير في العلم بالشعر والغناء، ورعايته للمغنين والمغنيات من الحاذقين بالصناعة.

أما عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، فلم أر أحداً أعلم منه بشعر ولا عربية، ولا تفسير ولا فريضة ولا حساب، ولا علمت أحداً أثقف منه رأياً، وأحضر فهما في التأويل والمغازي!..

هؤلاء الثلاثة ـ على فضلهم ـ لا يرشح أحد منهم نفسه للخلافة جهراً ولا سراً، فقد رأوا عاقبة ترشيح الحسين لنفسه، وكيف خذله شيعته، وأسلموه إلى مصرعه وهم ينظرون!..

ويشعر يزيد بن معاوية بفداحة جريمة قائده الأحمق الجاهل عبيد الله بن زياد الذي أمر بقتل الحسين!.. ويحاول يزيد جاهداً أن يستميل إليه هؤلاء الكبراء الثلاثة من بني هاشم في مصارعته عبد الله بن الزبير الذي يحاول أن ينتزع منه الخلافة!..

أما عبد الله بن جعفر، فحين دخل على يزيد بن معاوية في قصر الخلافة بدمشق، تلقاه يزيد مرحباً مفتوح الذراعين، وأجلسه على سريره، وهش له وبسط وجهه، وسأله:

ـ كم كان أميرالمؤمنين معاوية يبذل لك من العطاء المفروض من بيت المال كل عام!..

قال عبد الله بن جعفر وقد تذكر مودة معاوية وأريحتيه:

ـ كان عطائي عند أمير المؤمنين معاوية ـ رحمه الله ـ ألف ألف درهم!..

قال يزيد مبتهجاً:

ـ فعطاؤك عندي ألفا ألف، لأنك ترحمت على أمير المؤمنين!..

كان يزيد يظن أنه ما من هاشمي يسمح لنفسه أن يدعو لمعاوية بأن يرحمه الله بعد موته، فلما سمع جعفراً يترحم عليه، اهتز طرباً وسروراً وأمر بمضاعفة عطائه فكان لهذه المفاجأة الكبيرة وقع الدهشة والسعادة عند عبد الله بن جعفر، فما تمالك نفسه أن هتف بين يدي يزيد:

ـ بأبي أنت وأمي يا أمير المؤمنين!..

فبلغ يزيد عند سماعه هذا الهتاف الرائع قمة الحبور والغرور، فما كان يطمع في سماعه من رجل هاشمي، فصاح مستحسناً:

قد جعلنا عطاءك ثلاثة آلاف ألف، من أجل هذه الكلمة!..

أما ابن الحنفية ـ وريث علي بن أبي طالب وابنه الوحيد الباقي على قيد الحياة ـ فإنه لبى دعوة يزيد إلى دمشق، فغمره بالإنعام الجزيل، وشكره على رفضه مبايعة عبد الله بن الزبير، وتنصل له من قتل الحسين، وقال متهدج الصوت متأثراً:

ـ والله ما أمرت بقتل أخيك الحسين، ولكن ابن مرجانة، عبيد الله بن زياد، أخزاه الله، قتله بلا أمر مني ولا رضا، وما كنت والله لأخوض في دماء بني مناف وأنا منهم!..

عاد ابن الحنفية إلى المدينة يثني لأهلها على يزيد ويدعو له بالخير ويؤيد بيعته ويتصدى لمن يتهمه بترك الصلاة وشرب الخمر والعكوف على الملاهي، وقال ابن الحنفية لأهل المدينة:

- إني رأيت يزيد بن معاوية مواظباً على الصلاة، ملازماً للسنة يسأل عن الفقه ويجالس العلماء!..

أما ابن عباس فكان أكثر تحفظاً، فحين عرض عليه يزيد الأموال والطرف والهدايا، قال ابن عباس:

- إننا نحن بني هاشم نستحق من الفيء والعطاء أضعاف ذلك!..

ولما حاول يزيد أن يبرأ إليه من دم الحسين، رفض ابن عباس براءته صراحة، وجادله فيما اعتذر به من تعلات لتلك المذبحة، وقطع عليه جميع معاذيره!..

وأظن أن يزيد بن معاوية إنما يحاول وهو يصارع ابن الزبير على الخلافة، أن يثبت للناس أن معاوية كان على حق إذ أوصى له بالخلافة، وانتزع البيعة له بالترغيب والترهيب، ولعل يزيد يناجي نفسه في خلوته قائلاً: إنما مثل أبي في ذلك كمثل علي بن أبي طالب، أوصى بالخلافة من بعده لابنه الحسن!..

ولا كذلك الحقيقة!.. فإن علياً حين حضرته الوفاة قيل له: استخلف أحداً يا أمير المؤمنين!.. فقال: أترككم كما ترككم رسول الله، لم يستخلف أحداً.. ثم سألوه أن يستخلف الحسن، فقال نافضاً يده من أمرهم وأمر دنياهم: لا آمركم ولا أنهاكم!. فلما مات - رحمه الله - تولى قيس بن سعد دعوة الناس إلى مبايعة الحسن فاستجابوا.. تلك هي الحقيقة كما رأيناها..

فمعاوية أول من أوصى لابنه وبايع له وفرضه على الأمة بغير رضا ولا مشورة صحيحة.. ولم يخطر قط للخلفاء من قبله توريث الخلافة لأبنائهم، فما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ليضع

حكم الناس جميعاً في سلالة رجل واحد يتوارثونها إلى يوم القيامة!..

اليوم الثاني:

يتيه علينا ابن عمنا الوالي عثمان بن محمد بمنصبه، كأنه مخلد فيه، وإنه ليذكرني بابن عم آخر لنا تولى قبله هذا المنصب، فاتخذ من التكبر ثياباً يرتديها لأهل المدينة وهم بقية المهاجرين والأنصار، وفيهم العشرات ممن شهدوا بدراً مع رسول الله.

قال لي عثمان بن محمد بن أبي سفيان، الوالي الجديد، وهو شاب معجب بنفسه:

ـ يا عم.. كيف كانت سيرة ابن عمنا الوليد بن عتبة عامل معاوية على المدينة؟!

قلت:

كان والله حسن السيرة، لولا تكبره وجهله بأقدار الناس وعلمائهم.

قال:

ـ وكيف كان ذلك؟

قلت:

ـ حسبك من بداوته ونوادره ما حدث منه حين توفي الصحابي أبو هريرة، فقد احتشد الناس لجنازته وأرسلوا إلى ابن عمنا الوالي يسألونه الحضور ليؤم الصلاة، فبعث إليهم: لا تصلوا عليه حتى يحضر الأمير!..

فأرسلوا إليه رجلاً وقف ببابه وقال له متوسلاً:

ـ أصلح الله الأمير!.. قد خرج الناس بأبي هريرة بعد صلاة الظهر فانتهوا به إلى موضع الجنائز!

قال الأمير:

ـ لا تدفنوه حتى تُؤذنُوني، وأنا على الأهبة!..

فانتظر الناس، ونام عتبة نومة القيلولة، ولم يفق إلا عصراً، فقال له خدمه: أصلحك الله!.. إن جنازة أبي هريرة واقفة منذ الظهر.

فخرج الأمير متمهلاً فصلى العصر بالناس ثم صلى على أبي هريرة، وفي الناس يومئذ عبد الله بن عمر بن الخطاب وأبو سعيد الخدري وعبد الله بن عباس وغيرهم من الصحابة.. وكنت أنا مع ابن عمر وأبي سعيد الخدري نمشي أمام الجنازة، وحمل أولاد عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ نعش أبي هريرة حتى بلغنا البقيع، وكان أبو هريرة ممن نصروا عثمان يوم الدار. وما أظن الوليد بن عتبة هذا جلس إلى أبي هريرة يوماً فسمع منه بعض ما يروى من الحديث!..

اليوم الثالث:

مر عام على موقعة كربلاء الفاجعة، فأراد يزيد بن معاوية أن يتقرب إلى أهل المدينة، ويخفف أثر الفاجعة في نفوسهم، فدعا وفداً من كبرائهم لزيارته في دمشق، وأسبغ عليهم من نعمه ما ظن أنه يملك به ألبابهم، ويميلهم إلى حزبه.

وفي دمشق عاين وفد المدينة ما يعيش فيه يزيد وأمراؤه وحاشيته من ترف وسرف وأبهة لم يروا مثلها قط، ولا خطرت في خيال أحد منهم، فعادوا إلى المدينة واجمعين عابسين ساخطين.

وسألهم الناس عما وراءهم فلم يُلَجْلِجوُا في الكلام ولا ترددوا في ذم يزيد وفضح مباذله والتحريض على خلعه.. قالوا:

رأينا سكيراً خميراً يضرب بالطنابير، ويلاعب القرود!..

وأعلن رؤساؤهم أنهم قد نزعوا عن أعناقهم بيعة يزيد. وأن مدينتهم صارت مستقلة عن دولته، وأنه إن أرسل إليهم جنده قاتلوهم!..

وجاء الثائرون إلى بيوت بني أمية فحاصروها، وبيتي أول هذه البيوت وأكبرها، فاجتمع عندي أبناء عمومتي زهاء ألف من الرجال والنساء والأطفال..

خرجت فقلت للثائرين:

ـ قد علمتم ما أنا بوالٍ ليزيد على المدينة، وإني أقمت فيكم أربعين سنة منذ جئت إلى المدينة في عهد عثمان، فأنا من أهلها، وكذلك قومي هؤلاء.. فما تريدون مني ومنهم؟!.

قال الثائرون:

ـ يا بني أمية.. اخرجوا من المدينة، فقد نفيناكم منها، واذهبوا إلى يزيد بن معاوية في الشام فإنه رأس جماعتكم!

قلت أراجعهم!

ولا بد من ذلك؟!

قالوا:

ـ بلى.. ولا نخرجك أنت وقومك حتى تحلفوا لنا أنكم لا تدلون جند على عورات مدينتنا، ولا تبغونا غائلة، ولا تظاهروا علينا عدونا!..

أعطيت الثائرين المواثيق والعهود التي طلبوها، وجئت إلى زين العابدين علي بن الحسين، فقلت له:

ـ يا أبا الحسن.. إن لي رحماً ماسة، وقد اضطرني الناس ومعي

أبناء عمومتك من عبد مناف إلى الرحيل عن المدينة، فهل تأذن لي أن يكون حرمي مع حرمك، وثقلي إلى ثقلك، حتى يأذن الله بأمره؟!.

نهض زين العابدين فضم حرمي إلى حرمه وثقلي إلى ثقله وسافر بالركب إلى بلدة «ينبع» على البحر، غير بعيد من المدينة.. وقال: سأبلغ الركب مأمنه ثم أعود..

اليوم الرابع:

خرجنا من المدينة مقروحي القلوب!.. وفي طريقنا إلى الشام التقينا بجيش يزيد بن معاوية يقوده مسلم بن عقبة فاستوقفنا يسألنا عن عورات المدينة ومداخلها ومخارجها وأسلحة أهلها وعدد المقاتلة فيها.

وبدأ مسلم بن عقبة بسؤال عمرو بن عثمان بن عفان، وهو رجل صالح كأبيه أمير المؤمنين عثمان رحمه الله، فقال عمرو لابن عقبة:

ـ لا أخبرك بشيء، فقد أعطينا أهل المدينة المواثيق ألا ندل عليهم عدوهم!..

فغضب ابن عقبة، وهو رجل أحمق عظيم الشر، وقال لعمرو:

ـ والله لولا أنك ابن عثمان لضربت عنقك لأنك تخذل جند الخليفة وتظاهر الخارجين عليه!.

ولما أوشك مسلم أن يسألني تحرجت من العهود والمواثيق التي أعطيتها لأهل المدينة، فغمزت ابني عبد الملك أن يتحدث إليه بدلاً مني، فتقدم عبد الملك وتحدث إلى الرجل، ودله إلى الطريق، ونصح له، فلما فرغ عبد الملك قال لي مسلم:

ـ إيه يا مروان!..

قلت له:

ـ قد حدثك عبد الملك فكأنني حدثتك لا أزيد عليه شيئاً..

قال مسلم وكأنه يبشرنا ويتوعد أهل المدينة قبل أن يصل إليهم:

ـ قد أوصاني أمير المؤمنين أن أعيدكم إلى بيوتكم في المدينة معززين مكرمين، فإن أبى أهلها قاتلناهم كما أقاتل الخارجين عن الملة!!

سرنا على وجل في ركاب ابن عقبة حتى بلغنا مشارف المدينة، فألقى الجيش أثقاله، وشرع ينصب آلات الحصار حول المدينة، ورأينا من بعيد أهلها قد احتشدوا على حمية، وسيوفهم ورماحهم تلمع في ضوء الشمس!.

٥

المدينة والسيف!

اليوم الأول:

وقف جيش الخليفة يزيد بن معاوية على حافة الخندق الذي حفره أهل المدينة المنورة حولها كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام إذ حفر الخندق في غزوة الأحزاب فانهزمت القبائل المغيرة على المدينة وتولت هاربة!

ولكن جنود يزيد بن معاوية، وأميرهم مسلم بن عقبة المري، لم ينهزموا ولم يهربوا، بل شدوا طوق الحصار على المدينة، ثم اقتحموها وقاتلوا أهلها في بيوتهم!..

وكان مسلم بن عقبة قد سار بجنده حتى نزل عند النخيل حول المدينة، فتفيأوا ظلال غابة كثيفة من النخل، ممتدة طولاً وعرضاً.. وأكلوا من الرطب الجنى، وباتوا ليلتهم..

فلما أصبحوا ورأى مسلم بن عقبة أسلحة أهل المدينة تلتمع في الضحى، دار بجيشه حتى صارت الشمس وراء ظهره، فعاين أهل المدينة عندئذ ضخامة هذا الجيش الذي اجتمع فيه اثنا عشر ألف

مقاتل من العرب والموالي، ومن المسلمين وقليل من الذميين اجتلبهم يزيد من الأمصار لهذه الغزوة، وبذل لهم العطاء قبل أن يبرحوا ساحة قصره في دمشق، قاصدين المدينة.

واشتد بريق أسلحة الجيش الغازي في عيون أهل المدينة، وزلزل صهيل الخيل الأسماع، وطارت الحمائم في أفق المدينة تولول بهديلها، وتلوذ بسقوف البيوت والمسجد، أو تشتد هاربة إلى المدى البعيد..

وأرسل الأمير مسلم بن عقبة أحد رجاله حتى بلغ الخندق فوقف يخاطب أهل المدينة بأعلى صوت:

إن الأمير مسلم بن عقبة ـ أصلحه الله ـ قد أمهلكم ثلاثة أيام بلياليها لتعودوا إلى طاعة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ـ أعزه الله ـ وتبايعوا له، وتتوبوا عما فعلتم .. فإن أبيتم فإن مسلم بن عقبة قد أعطاه أمير المؤمنين كل شيء يريده جنده من أموالكم ونسائكم وذراريكم، بعد سفك دمائكم! فاتقوا الله في أنفسكم وأهليكم، فإن الجند إن ظفروا بكم صرتم لهم نهباً ثلاثة أيام، يحل لهم فيها أن يفعلوا في بلدكم ما شاءوا..

كبر هذا النذير على أهل المدينة، فإن الحرب بين طائفتين من المسلمين لا تبيح لإحداهما سبي نساء الطائفة الأخرى واستصفاء أموالها واستباحة حرماتها، وقد تقاتل علي ومعاوية بضع سنين فلم يمسا حرمات المسلمين والمسلمات، ولكن ها هو ذا يزيد بن معاوية يجيء ببدعة سبي نساء المسلمين وقتل ذراريهم..

اشتدت أنفة أهل المدينة من إنذار مسلم بن عقبة لهم، وثارت حميتهم، وتحصنوا بخندقهم، وولى المهاجرون عليهم قائداً كما ولى الأنصار قائداً، وانحازوا جميعاً إلى بقعة «الحرة» فاحتشدوا بها، وارتفع صوت شاعرهم يهجو يزيد بن معاوية:

إن في الخندق المكلل بالمجد لضربا يلور بالسروات
لست منا وليس خالك منا يا مضيع الصلاة للشهوات

ثم بدأت معركة الحرة، وسقط في ساحتها قائدالمهاجرين وقائد الأنصار، وثمانون صحابياً شهدوا معركة بدر الكبرى في السنة الثانية للهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعاشوا إلى هذه السنة ـ الثالثة والستين للهجرة ـ فشهدوا معركة الحرة دفاعاً عن مدينة رسول الله!

أغرق جيش أمير المؤمنين بطوفانه جند المدينة القلائل، ووقعت المدينة في يد الجيش الغازي مضرجة بالدماء!..

اليوم الثاني:

الأمر والنهي، وحق الحياة والموت الآن في يد مسلم بن عقبة قائد جيش يزيد بن معاوية الذي أخمد كل مقاومة في المدينة وأباحها لجنده ثلاثة أيام بلياليها ارتكبوا فيها من الفتك والهتك والسرقة والقتل ما لا يفعل مثله إلا الأعداء في بلاد الأعداء..

دخل جنود مسلم بن عقبة البيوت وعاثوا فيها الفساد، وسلبوا أهلها، وهتكوا أستار الأرامل والأيامى والزوجات والعذارى، وأيتموا الأطفال وأعملوا فيهم القتل كما أعملوه في الكبار رجالاً ونساء، وحرموا الصلاة في المسجد النبوي على الناس، فلم يجرؤ على دخوله إلا سعيد بن المسيب، صهر زيد بن ثابت الذي كان يعمل معي في ديوان عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ والذي جمع القرآن لعثمان في مصحف واحد، هو مصحف جميع المسلمين الآن..

سمعت رجلاً من جند مسلم بن عقبة يقول لزميله وقد غلبهما الفضول والدهشة لرؤيتهما سعيد بن المسيب في المسجد وهم لا

يعرفونه، ولا يعلمون عن علمه وفضله وإمامته شيئاً ألبتة:

ـ ألا ترى هذا الرجل المجنون الذي يجيء إلى المسجد وحده في كل صلاة، غير خائف منا، فيصلي ويزعم أنه يسمع أذاناً لا يسمعه غيره، ويشاركنا الصلاة أحياناً؟!

قال الجندي الآخر:

ـ لولا أنه مجنون لما جرؤ على الظهور وأهل المدينة جميعاً مختبؤون في بيوتهم، بعد تلك المقتلة العظيمة!

هكذا تحاور الجنديان الجاهلان..

وأظن أن سعيد بن المسيب، على فقهه الذي يحتاج إليه كل إنسان، لم يكن لينجو من القتل لولا أن الجند ظنوا به الجنون فتركوه يدخل المسجد ويخرج منه كما يشاء، والناس يقتتلون، والجند تسلب وتهتك، وهو مقيم في المسجد لا يبرحه إلا قليلاً من الليل.. وإن أهل الشام ليدخلون زمراً.. زمراً، يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ المجنون!.. فلم يزل كذلك طوال أيام الحرب، أراه كلما استدعاني الأمير مسلم بن عقبة لأمر من الأمور، لا يريم المسجد، ولا يبايع ليزيد.. ولو تنبه إليه أمير الجيش لما نجا من سيفه، على معرفته بعلمه وفضله!..

اليوم الثالث:

انقضت الأيام التي خصصها يزيد وقائد جيشه للنهب والسلب في المدينة.. ونادى مسلم ابن عقبة بالأمان، ثم ها هو ذا يجلس ويدعوا الناس إلى المثول بين يديه لمبايعة يزيد بن معاوية!

أول من جيء به من أهل المدينة للبيعة رجل من أحفاد أم المؤمنين «أم سلمة» زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له ابن عقبة:

ـ بايعني لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

قال الرجل:

ـ لا والله.. لا أفعل!

فصاح ابن عقبة في الحرس المكلف بقطع الرقاب:

ـ يا حرس.. اضرب عنقه!..

ثم تقدم محمد بن أبي الجهم العدوي فلم يأمره ابن ع
بالبيعة، ولكن وبخه وشتمه قائلا:

ـ أنت الذي وفدت على أمير المؤمنين فأكرمك وحباك، فرجعت إ
المدينة تشهد عليه بشرب الخمر؟!

لم يرد الرجل، فصرخ ابن عقبة بالجلادين:

ـ اضربوا عنقه!..

ثم تقدم معقل بن سنان الأشجعي، فقال له ابن عقبة مستهزئ

ـ أتذكر يوماً مررت به في الشام وأنت راجع مع قومك إلى المدينة م
عند أمير المؤمنين وقد أعطاكم وتفضل عليكم، فقلت لي: سنأ
المدينة فنخلع الفاسق يزيد بن معاوية؟!..

قال الرجل ثابت الجنان:

ـ نعم، أذكر ذلك ولا أنساه!

قال ابن عقبة وقد انفجر غضبه كالبركان:

ـ فاعلم إذن أني آليت في ذلك اليوم أن أقتلك، وقد أمكنني الله منك
الآن أيها الأحمق!..

قال الرجل:

ـ ما أنا بأحمق!..

قال ابن عقبة وهو يتميز غيظاً، ويفيض احتقاراً للرجل وسخراً
منه:

ـ لو لم تكن أحمق لما تدخلت في أمور الخلافة، وإنما أنت من قبيلة «أشجع» فما أشجع والخلافة؟! إنما الخلافة في قريش!.. اضربوا عنقه!

اليوم الرابع:

سألني مسلم بن عقبة: أين زين العابدين علي بن الحسين؟!.. قلت: هو في بيته كسائر آل أبي طالب وبني عبد المطلب ـ قال مسلم: إن أمير المؤمنين أوصاني به خيراً فادعه إلى مجلسي أكلمه ويكلمني..

جاء زين العابدين فأجلسه مسلم بن عقبة على فراشه وقال له:

ـ كيف كنت بعدي؟!..

قال زين العابدين:

ـ إني أحمد الله إليك..

ـ قد أوصاني بك أمير المؤمنين.

ـ وصل الله أمير المؤمنين، وإني كنت لما فعل أهل المدينة كارهاً..

ـ نعم.. قد علمت ذلك..

ولم يكد مسلم بن عقبة ينتهي من أمر المدينة حتى جمع كتائبه وأخذ يستعد للزحف على مكة التي أعلن عبد الله بن الزبير خلافته فيها واعتصم بالمسجد الحرام.. قلت لابن عقبة:

ـ أظنك تعرف ابن الزبير؟!

ـ نعم.. وقد كنت في الوفد الذي أرسله أمير المؤمنين منذ بضعة أشهر إليه ليعيدوه إلى الطاعة والجماعة..

قلت:

- وهل تستحل قتاله في المسجد الحرام؟!

- نعم.. إن هو لم يستجب إلى طاعة أمير المؤمنين!..

ـ وكيف ذلك وما من أحد يستحل حتى قتل إحدى حمائم المسجدالحرام؟!

ـ لو عصت الحمامة ورفضت الجماعة لقتلتها، ولكن الحمامة لا تتكلم ولا تنزع البيعة عن عنقها!..

ـ ولكنك يا ابن عقبة تعاني من الذبحة في صدرك، وقد أنهكتك معركة المدينة، وأراك لا تريد أن تريح نفسك ولو أياماً قلائل..

ـ نعم.. إني عليل، وقد اشتدت علتي، ولكن لا بد مما ليس منه بد، وقد أمرني أمير المؤمنين ـ إذ رأى بوادر مرضي ـ أن أستخلف أحد رجالي على الجيش إذا حدث بي في عملي هذا حادث.. ولكن الرجل الذي أمرني باستخلافه يميل إلى الرقة مع الناس ولو كان الأمر لي ما استخلفته على الجيش، غير أني لا أعصى أمير المؤمنين!..

ثم دعا مسلم بن عقبة خليفته على الجيش فقال له:

ـ إذا وافيت مكة فناجز ابن الزبير الحرب من يومك بلا إبطاء، ولا ترد جندك عن شيء يريدونه بعدوهم، ولا تجعل أذنك وعاءً للناس فيخدعوك!..

قلت لابن عقبة مرتاعاً من وصيته هذه:

ـ ويلك!.. أتقدم على لقاء ربك وقد بؤت بما صنعته في المدينة، وبما سوف يصنعه خليفتك هذا في مكة، فكيف ترى قدومك على الله؟!..

قال:

ـ يا مروان.. أنت رجل رقيق، ولو كان بنو أمية كلهم مثلك لذهبت دولتهم!.. وإنك يا مروان قد تقلبت فبايعت علي بن أبي طالب، وهممت أن تبايع عبد الله بن عمر بن الخطاب لولا إباؤه الخلافة.. ولو طلب عبد الله بن الزبير بيعتك لأعطيته ما يطلب!..

ونفخ الحرس في النفير يدعون الجيش إلى التحرك نحو مكة!..

وأركب الجند أميرهم على حصانه فسار به وهم يسندونه خشية أن يسقط عن سرجه من فرط ضعفه وإعيائه!.. فلم أر مثله رجلاً يقاتل في مرضاة الحكام الظالمين، حتى آخر ساعة في حياته!..

ونظرت إلى هؤلاء الجند وقد ساروا في طاعة أميرهم هذا المسرف في الدماء، الطاغية المجنون الجبار الذي يموت سابحاً في الدماء، وتمثلت قول القائل:

أطعتم أمر جبار عنيد   وما من طاعة للظالمينا

ثم استدرت عائداً إلى بيتي، وقد ذهبت السكرة وجاءت الفكرة!.. لقد قتل جند يزيد ـ وهم جند بني أمية في نظر الناس ـ عشرة آلاف رجل وامرأة في المدينة، وفعلواالأفاعيل الفاحشة التي لا يفعلها المسلمون بالمسلمين مهما تنازعوا وتقاتلوا.. فكيف نستطيع نحن بني أمية أن نبقى في المدينة بعد اليوم، برغم استسلامها وخضوعها بعد تلك الوقعة النكراء؟!

ذهبت إلى أبي سعيد الخدري صاحب رسول الله الذي يروي الأحاديث، أعرض عليه ما يساورني من شعور بالألم والخزي.. فرأيت هذا الشيخ الجليل وقد ذهب جانبا لحيته، وبقي بعض شعرها في وسطها، وقد خضبت بقية من الدم وجهه فسألته واجماً عما به، فقال:

ـ هذا من فعل الظلمة جنود يزيد!.. دخلو بيتي فانتهبوا ما فيه حتى أخذوا قدحي الذي كنت أشرب فيه الماء ثم خرجوا، ودخل بعدهم نفر، وأنا قائم أصلي فلم يجدوا شيئاً في البيت فحملوني من مصلاي وضربوا بي الأرض، وأقبل كل رجل منهم على ما يليه من لحيتي فنتفه، فما ترى منها خفيفاً فهو موضع النتف، وما تراه ضافياً فهو ما لم يصلوا إليه، وسأدعها كما ترى حتى أوافي ربي!

لم أستطع أن أعزي الشيخ في لحيته فإني لم أستطع أن أعزي المسلمين في قتلاهم، ولكني تمثلت هذا البيت:

أأقتل مسلماً في غير حق   فليس بنافعي ما عشت عيشي

٦

سرير الخلافة

اليوم الأول:

نحن في أوائل عام ٦٤ للهجرة، وقد طارت في الآفاق أنباء مذبحة «الحرة» التي كانت نكاية في الإسلام، وظلماً فاحشاً وقع على كثيرمن المهاجرين والأنصار!..

وقد غسل مسلم بن عقبة المري سيوفه من الدماء، وأعاد تنظيم جيشه البالغ اثني عشر ألف مقاتل وضعهم تحت إمرته أمير المؤمنين يزيد بن معاوية ليخمدوا ثورة المدينة فأخمدوها وفعلوا في أهلها الأفاعيل المنكرة التي لم يسمع بمثلها المسلمون!..

وقبح الله العجز، فإني وقفت أيام المعركة لا أقدر على أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، ولا استطعت أن أرد جماح جنود يزيد بن معاوية أو أكسر شرتهم، فكأني شركتهم في إثمهم وأعنتهم عليه، فلا عجب أن تنطلق تلك الأكاذيب والأباطيل التي لفقها الناس وألصقوها بي زاعمين أني كنت ظهيراً لابن عقبة في المذبحة من حيث لا يراني الناس..

وقد غادرنا ابن عقبة ـ أبعده الله ـ بجيشه قاصداً مكة وفيها ثورة لاتقل شدة عما كانت عليه ثورة المدينة، ومعه أمر من سيده يزيد بن معاوية أن يضرب الثائرين في مكة كما ضرب الثائرين في المدينة.

ولكن ابن عقبة كان بعد معركة المدينة مريضاً مدنفاً لا يتماسك فوق حصانه، فلم يلبث أن سقط بين أيدي جنوده في طريق مكة.. ومات..

تولى قيادة الجيش الحصين بن نمير الذي كان يصفه ابن عقبة بالرقة والضعف، وبلغ الجيش مكة ونصب المجانيق على جبل أبي قبيس، يضرب عبد الله بن الزبير وأصحابه اللائذين بالمسجد المكي.. ولكن ابن الزبير وأصحابه ثبتوا له فلم يمكنوه من اقتحام مكة، فخرج ابن الزبير فنادى الحصين بن نمير ومن معه من الجند:

ـ يا أهل الشام، قدهلك طاغيتكم، فعلام تقاتلون؟!..

أمر الحصين جنوده فأغمدوا سيوفهم، ومشى إلى ابن الزبير، فقال له:

ـ هل لك في الموادعة، وتفتح لنا الأبواب فنطوف بالبيت الحرام، ويختلط الناس بعضهم ببعض؟!..

فتح ابن الزبير أبواب المسجد وجعل الحصين وأصحابه يطوفون بالبيت وقد جنحوا إلى السلام وأمنوا على أرواحهم..

ثم أخذ الحصين بيد ابن الزبير، فانتحى به جانباً وقال له همساً في السر:

ـ يا ابن الزبير.. إن كنت تريد الخلافة، فما هنا مكانها، فهل لك في الخروج معي إلى الشام، فأدعو الناس إلى بيعتك، فإن أمرهم قد اختلط وفسد بعد موت يزيد بن معاوية، ولا أرى أحداً أحق منك اليوم

بالخلافة، وما عليك إلا أن تطوي صفحة هذه الدماء بيننا وبين أهل مكة وأهل المدينة وسائر أهل الحجاز.. وإن هذا الجيش معي من صفوة فرسان الشام، فوالله لن يختلف عليك إثنان ولن أعصي لك أمراً هناك!..

وليس ابن الزبير بعيد الغور في شؤون الملك والسياسة، فما سمع همس الحصين حتى جذب يده من يده، ورفع صوته بحيث يسمعه كل الناس، فقال:

- لا والله.. لا أصالحكم يا أهل الشام، حتى أقتل بكل رجل قتلتموه من أهل الحجاز عشرة منكم!..

ذهل الحصين وهو الأريب المحنك في الحرب والسياسة، وقال لعبد الله بن الزبير مستهزئاً:

- يا ابن الزبير.. قد كذب والله من زعم أنك من دهاة العرب، فإني كلمتك سراً فرددت على كلامي علانية، ودعوتك إلى الخلافة تأخذها بلا عناء، فدعوتني إلى الخلف والشقاق، وأبيت إلا القتل والقتال!..

- وانصرف ابن الحصين بجيشه فمر بالمدينة في طريقه إلى الشام، فقال لي:

- يا مروان.. إن ابن الزبير ربما استولى على المدينة، بل هو مستولٍ عليها لا محالة بعد رحيلي بالجيش، وسيأخذ بني أمية بالظنة والتوهم، فإن حزبك أمر فسارع إلى اللحاق بالشام فإن فيه أهلك وشيعتك..

اليوم الثاني:

تفكرت ملياً في كلمات الحصين.. رأيت أن الأسلم لي مبايعة ابن الزبير والمكوث في المدينة فقد صرت من أهلها وعشت فيها أربعين عاماً، ولا رغبة لي في الشام وأهله، ولم أحط علماً ولا خبراً بدولة بني أمية في دمشق، ولا أعرف الكثير من أسرارها، ولا القليل من كثير هذه الأسرار، فأين أذهب؟!..

دخل عسكر ابن الزبير المدينة فجاءني الرجل الذي جعله ابن الزبير والياً عليها، فقال لي:

- إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير قد أمر ألا يبقى من بني أمية أحد في المدينة!..

شددت رحالي، وجمعت أهلي، وخرجت ليلاً، لا أعرف ما تخبئه لنا الأقدار.. ومضى ركبنا المغلوب على أمره بطيئاً حزيناً على طريق الشام!..

ماذا تخبىء لي الأيام وقد بلغت الرابعة والستين من عمري؟!.. لو كنت في شبابي لما اغتممت بإخراجي من ديار أقمت فيها أربعين سنة ولا طاقة لي بفراقها والإقامة بعيداً عنها، وقد تركت فيها منزلي، وفارقت أصحابي وذكريات شبابي، وأجمل ما مر من أيام حياتي!..

كنت في سالف الزمان صديقاً لعبد الله بن الزبير، فتنكر لي حين أمر أمره، وعظم شأنه، ودعا لنفسه بالخلافة، ولم ير فارقاً بيني وبين سائر بني أمية فأخرجني معهم من المدينة ظالماً لي، وأنا الذي هممت يوماً أن أبايعه بالخلافة، مخالفاً رأي شيخنا عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي رفض أن يبايعه وسخر منه أشد السخرية قائلاً للملأ:

- إني والله ما وجدت بيعة ابن الزبير إلا قِقَةً؟!

قالوا:

- وكيف ذلك؟!

قال:

- أما رأيتم الصبي يسلح على ثيابه ثم يضع يده في سلحه، فتقول له أمه مؤنبة إياه: كخ.. ققة؟!.. فهذه هي بيعة ابن الزبير!..

فهل يجرؤ ابن الزبير على إخراج ابن عمر من المدينة كما أخرجني؟!..

وإني لأتذكر الآن ما حدث يوم أحاط الغوغاء بدار أمير المؤمنين عثمان منذ ثلاثين عاماً يريدون قتله، فجئت ابن الزبير فقلت له: قد ولاك إمرة داره، فوثب ابن الزبير فقال:

- يا أمير المؤمنين.. إن معك في الدار عصبة مستنصرة بنصر الله، فأذن لي فلأقاتل العصاة الخارجين عليك..

فأبى عثمان أن يأذن له بقتالهم، ثم اطلع - رحمه الله - من كوة في جدار بيته فقال لمحاصريه:

- أيها الناس.. لا تقتلوني واستتيبوني!..

ولكن الناس لم يستتيبوا أمير المؤمنين وقتلوه، ولم ينصره ابن الزبير ولا غيره ممن كانوا يحرسون الدار.

تلك أيام خلت لا يذكرها ابن الزبير الآن وهو جالس على وسادة ناعمة والناس يتوافدون عليه قائلين : السلام عليك يا أمير المؤمنين!..

اليوم الثالث:

احتريت أبْعِرَةً فحملت أهلي ومتاعي، وحث بنا الحادي في طريق الشام مرتجزاً:

حرم مروان عليهن النوم
إلا قليلاً، وتلاهن القوم
هن يقلن أو يبتن بالدوم

والدوم على مسيرة يومين من المدينة، وكان ابني عبد الملك عليلاً، فأفاق من علته قليلاً، وقال لجنود ابن الزبير الذين استاقونا خارج المدينة، وزجروا إبلنا ودوابنا، وعنفوا بخدمنا:

ـ قولوا لأبي خبيب.. يصنع الله!..

وأبو خبيب لقب يكرهه الزبيرا.. وقال الشاعر ممن كان معنا من بني أمية:

بـكـى أحـد لما تحـمـل أهـلـه فكيف بذي وجد من القوم آلف

فلما دخلنا دمشق وجدنا الناس مختلفين، فقد توفي الخليفة الجديد معاوية بن يزيد بن معاوية الذي تولى الخلافة عليهم أربعين ليلة.. وقيل له في يومه الأخير:

ـ يا أمير المؤمنين.. لو عهدت إلى رجل عهداً، واستخلفت خليفة..

قال معاوية الصغير الذي لم يكمل من عمره عشرين عاماً:

ـ والله ما نفعتني خلافتكم حياً، فكيف أتقلدها ميتاً؟!.. إن كانت خيراً فقد استكثر منه آل أبي سفيان، فإذا مت فليقم بالخلافة قائم يختاره الناس!..

اليوم الرابع:

دعا بعض الناس في دمشق علانية إلى مبايعة ابن الزبير، وتفرق جند الشام.. فلما رأيت ذلك خرجت أريد ابن الزبير في مكة كي أبايعه وآخذ منه الأمان لبني أمية، فما بعدت إلا قليلاً عن دمشق حتى لقيت عبيد الله بن زياد أمير البصرة الأموي عائداً إلى دمشق وقد خلعه البصريون من إمرتهم وطردوه من مدينتهم، ثأراً منه لما صنعه جنوده بالحسين وأصحابه في كربلاء.. قال لي:

ـ أين تريد يا أبا عبد الملك؟!

أخبرته أني أقصد مكة لمبايعة ابن الزبير، فصاح مدهوشاً:

ـ سبحان الله.. أرضيت لنفسك بهذا؟!.. تبايع لأبي خبيب وأنت سيد بني عبد مناف؟!.. والله لأنت أولى منه بالخلافة.. فمد يدك أبايعك!..

قلت:

ـ وما تبلغ بيعتك وحدك؟!.. اخرج إلى الناس فناظرهم في ذلك!..

قال ابن زياد:

ـ نعم، فارجع معي وادع إلى نفسك، وأنا أكفيك قريشاً ومواليها فلا يخالفك منهم أحد فإنك شيخ قريش وسيدها..

قلت:

ـ وماذا عن خالد بن يزيد بن معاوية وقد رشحه بعض الناس للخلافة بعد وفاة أبيه وأخيه؟!..

قال:

ـ ما ينظر الناس إلى هذا الغلام الصغير، فتزوج أنت من أمه، فيكون في حجرك كأحد أبنائك!..

فقمت فدعوت بني أمية والناس، وتزوجت أم خالد ـ أرملة يزيد بن معاوية ـ وكتبت إلى حسان بن مالك بن بحدل رئيس القبائل اليمانية، أمير فلسطين والأدرن، وهو خال أولاد يزيد من أرملته التي تزوجتها، فدعوته إلى بيعتي فلم يستجب، فسألت عبيد الله بن زياد: ماذا نصنع وهذا الرجل بمن معه من الجند اليمانية يستطيع أن يفسد علينا أمرنا؟!..

قال ابن زياد: اخرج ومعك بنو أمية إلى ناحية الجابية ـ موضع بين دمشق والأردن ـ فناظره وادعه إلى بيعتك!..

اليوم الخامس:

أخذت معي إلى اجتماع الجابية ابني عبد الملك وعبد العزيز، واجتمع الكثيرون من القواد والأجناد وبني أمية، ولبثنا في حوار وجدال أربعين ليلة، حتى قال بنو أمية:

ـ لا نريد أن يخرج هذا الأمر منا، ولكنا لا نجيء بصبي صغير، هو

خالد بن يزيد ـ ويجيىء أهل الحجاز والعراق بشيخ كبير هو ابن الزبير، فلنجعل لنا شيخاً يهابه الناس..

ووقف الحصين بن نمير فقال:

ـ قد علمتم أني خلفت مسلم بن عقبة على جيش الحرة، ثم سالت ابن الزبير وهممت أن أبايعه لولا ما ظهر لي من رعونته وجهله بسياسة الملك.. وإني أدعوكم الساعة إلى بيعة مروان شيخ بني عبد مناف، فإني رأيت في المنام قنديلاً متوهجاً معلقاً في السماء، من تناوله بيده ظفر بالخلافة، فلم يتناوله ممن تطاول إليه إلا مروان!.. فوالله لنستخلفنه!..

وانفض المجلس للراحة، فملت إلى فسطاطي فجلست متيقظاً أدبر أمري، ودرعي إلي جانبي، ورمحي مركوز، وفرسي مربوط، ومصحفي بين يدي أقرأ فيه.. فجاءني القوم فرأوني على هذه الحال الجميلة، فقالوا:

ـ هذا هو الذي يصلح لخلافتنا.. ثم اجتمعوا كلهم فبايعوني.. والتف حولي بنو أمية فقالوا:

الحمد لله الذي أبقى الخلافة فينا ولم يخرجها منا، وإن هذه الدولة هي دولة بني أمية من حيث تبدأ الأرض إلى حيث تنتهي!..

وتمت البيعة لي بفضل الله.. لم يخالف أحد.. وركبت القواد والأشراف، فصرت إلى دمشق فجلست على سرير الخلافة، ويسر الله لي الأمور، وكشف الأسرار.

ووالله ما خطر ببالي حين أخرجني ابن الزبير منذ ستة أشهر من المدينة طريداً شريداً أبكي على أربعين عاماً من عمري، أني سأجلس بعد تلك الأشهر الستة في قصر دمشق، والناس يتتابعون بين يدي بالتحية قائلين:

ـ السلام عليك يا أمير المؤمنين!..

يوميات زياد بن سمية

١

الأمير وأمه وأبوه..

اليوم الأول:

هل توشك أيامي في البصرة أن تنتهي؟!..

لا أدري ما تخبىء لي الأقدار بد أن أقمت في البصرة أكثر من عشرين عاماً منذ فتح المسلمون هذه الأرض وأنشؤوا هذه المدينة في خلافة عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ إلى أن أظلنا هذا اليوم الجديد من أيام سنة ٣٨ للهجرة..

يا له من عهد طويل قضيته في نضال لم ينقطع يوماً واحداً في سبيل الدين والدولة، وفي سبيل بيتي وأولادي..

لن أنسى ما حييت أيامي الخالية، فإنها هي التي قذفت بي من مدينة الطائف في الحجاز إلى مدينة البصرة هذه التي قامت في العراق على أيدي العرب، ورأيتها بعيني وهي تتسع وتعمر عاماً بعد عام، حتى صارت من أكبر أمصار دولة الإسلام..

وخلال الأعوام العشرين التي عشتها في البصرة، تدرجت في المناصب، فأنا ـ بحمد الله ـ من أرباب القلم ومن أرباب

السيف!.. ولولا السيف والقلم لكنت ما زلت حتى اليوم عبداً ضئيل القدر، أخدم سادتي في الطائف، وأقطف لهم عناقيد العنب من بساتينهم يأكلونها هانئين، وأنا وأمثالي من العبيد نأكل من خشاش الأرض!..

في الطائف ولدت في العام الأول للهجرة..

أمي جارية فارسية الأصل تدعى «سمية».. امتلكها رجل من قبيلة ثقيف، سادة الطائف.. وكان له خادم رومي الأصل اسمه «عبيد».. فتزوج عبيد من سمية، ورزقها الله بي، فصرت مع أمي وأبي من أرقاء ذلك السيد الثقفي، ولكني ـ برغم عبوديتي ـ نشأت عاقلاً أديباً، وتعلمت الكتابة والحسابة!..

أما أخي أبو بكرة، فقد ولدته أمي من سيدها، لا من أبي، فتبرأ السيد من أخي، فنشأ عبداً لا ينتسب إلى أب!..

وكنت في الثامنة من عمري حين نشبت الحرب بين ثقيف في الطائف وبين المسلمين، فاهتزت أسوار الطائف ثم انهارت واستسلم الثقفيون ومن معهم، ثم دخلوا في الإسلام..

وجاء المسلمون فجمعونا نحن العبيد والإماء في الطائف وقالوا لنا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أعتقكم من الرق ذكوراً وإناثاً، فأنتم منذ اليوم طلقاء أحرار..

دخلت في الإسلام مع أمي وأبي وأخي بعد دخولنا في الحرية، ولكن أحوالنا الجديدة بقيت كأحوالنا قديماً ونحن أرقاء: نخدم سادتنا ومواليننا بعد إسلامهم كما خدمناهم وهم مشركون!..

وفي عهد عمر بن الخطاب ـ وقد صرت في الخامسة عشرة من عمري ـ دخلت في خدمة قائد من سادتنا كان من قادة جيش المسلمين في فتح العراق، فقاتلت واشتركت في الفتح، ورأيت

البصرة في أول نشأتها، وأسهمت في بنائها، ثم أقمت فيها واتخذت لي داراً، وتمنيت أن أتخذها وطناً!..

فلما أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ أبا موسى الأشعري والياً على البصرة، سأل أبو موسى عن رجل كاتب حاسب يصلح كاتباً لديوان الولاية وقيماً عليه، فرشحني بعض سادتي لهذا العمل وقمت به قياماً نال إعجاب الوالي، فكان يرسلني بكتبه ورسائله أو بخراج البصرة إلى أمير المؤمنين في مدينة رسول الله، حتى عرفني عمر وأعجبته أمانتي وكتابتي وحسابتي وفصاحتي وحفظي للأعداد الحسابية الكبيرة التي لم يكن العرب يحتاجون إلى استعمالها في جاهليتهم، ثم احتاجوا إلى ذلك عند اتساع الدولة وتدفق الأموال عليهم من المشرق والمغرب.

وأذكر أن أبا هريرة ـ وكان والياً على البحرين ـ جاء إلى عمر ابن الخطاب بخراج تلك البلاد، فقال له عمر:

ـ كم يبلغ ما حملت من المال يا أبا هريرة؟!

قال أبو هريرة:

ـ خمسمائة ألف درهم..

فعجب عمر لهذا العدد الكبير وظن أن أبا هريرة لا يعرفه، فقال له:

ـ أتفهم ما تقول؟!

قال أبو هريرة:

ـ نعم يا أمير المؤمنين.. ألف درهم خمسمائة مرة!..

لهذا قربني عمر إليه، على حداثة سني، وشجعني وامتدحني بمشهد من أصحاب رسول الله، ولم يصرفه عن الإشادة بي أني كنت عبداً في الأصل، وقدمني على كثير من أندادي أبناء

المهاجرين والأنصار والقبائل، حتى أن أبا سفيان بن حرب لما سمع ثناء أمير المؤمنين على عملي وذكائي وفصاحتي قال لبعض الناس همساً:

- إن ابن سمية هذا الذي يطريه عمر، هو ابن لي، فقد عرفت أمه في الجاهلية حين كنت أزور الطائف أجتلب الزبيب!..

وسمع الناس هذه الهمسة العجيبة من أبي سفيان بن حرب وهو من سادة العرب، فقالوا:

- قد صار ابن سمية أخاً لمعاوية بن أبي سفيان..

وسخر بعض الناس قائلين:

- ليس لابن سمية أن ينتفي من أبيه عبيد ويستلحق بأبي سفيان، وكيف يجتمع أبوان لابن واحد؟!..

لم يزد أبو سفيان شيئاً على تلك الهمسة، ولكنها كانت كافية لإثارة لغط عريض بأبوته لي وبنوتي له، مع أن أبي الذي اعتاد الناس أن ينسبوني إليه كان ما زال حياً، ولم يقع بينه وبين أمي الطلاق!..

وكان بعض الناس يسميني زياد بن سمية، زراية بي واستخفافاً، وبعضهم يسميني زياد بن عبيد، ثم جاءت همسة أبي سفيان، فماذا يسميني من يصدقها؟!..

لبثت في البصرة كاتباً حاسباً مساعداً لولاتها في مهمات الأمور طوال عهد عمر وعهد عثمان، حتى ذاعت شهرتي وصارت كفايتي في شؤون الحكم مثار إعجاب الكبراء.. ثم كانت موقعة الجمل في البصرة وانتصر فيها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، فلم تكد الوقعة تضع أوزارها حتى بعث يسأل عني وكنت مريضاً فعادني ودعا لي بالشفاء، ثم قال لي:

ـ يا زياد.. إني قد فكرت في رجل يتولى البصرة فلم أجد خيراً منك..

ـ يا أمير المؤمنين.. إنما أنا زياد بن سمية أو ابن عبيد، والناس يتعصبون للأنساب والأحساب ولا يهابونني كما يهابون رجلاً من سادة العرب!..

قال علي:

ـ فمن تراه منهم يصلح لولاية البصرة، فقد أهمني أمرها؟!..

قلت على الفور:

ـ هو يا أمير المؤمنين ابن عمك عبد الله بن عباس..

هكذا صار هذا الرجل العلامة النجيب والياً على البصرة، فاتخذني للكتابة في ديوانه كما فعل الولاة السابقون في عهدي عمر وعثمان.

والآن.. أجلس وحدي في كرسي ولاية البصرة، فقد ارتحل الوالي ابن عباس، قاصداً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في مقره بالكوفة، واستخلفني على البصرة حتى يعود..

ولكن الأمور مضطربة، والدولة يضرب بعضها بعضاً، ومعاوية بن أبي سفيان يقاتل علياً على الخلافة زاعماً أنه إنما خرج يطلب بالثأر من قتلة عثمان.. وها أنذا أقف وسط البصرة بلا مدد من أمير المؤمنين علي، بينما تزحف ثلة من معاوية إلى البصرة، ولا أدري ما أصنع وقد ورد على قلبي من الهم والكدر ما يعوق الفكر عن التدبير..

اليوم الثاني:

مشيت إلى قبيلة بكر بن وائل في البصرة فقلت لهم:

ـ يا معشر بكر بن وائل.. أنتم من أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي

طالب، وقد اقترب من البصرة جند لمعاوية، ابن آكلة الأكباد هند، وابن رأس النفاق أبي سفيان.. وإن معاوية يتوعدني، فوالله لئن رامني ليجدنني شديد الضرب بالسيف، ثابتاً لا ألين ولا أتزحزح.. وإني أتقدم إليكم أن تؤازروني مؤازرة الأعوان النصحاء..

قال لي رجال القبيلة:

- فماذا تريد منا أيها الأمير؟!..

قلت:

- تدافعون بسيوفكم عني وعن بيت مال المسلمين بالبصرة، حتى يأتينا من الكوفة رأي أمير المؤمنين..

قالوا:

- فاحمل إذن ما في بيت المال إلى بعض منازلنا، ندافع عنه، فلا يصل إليه جنود معاوية!..

وجاءت النجدة من عند أمير المؤمنين، فقمت معهم فضربت الحصار على جنود معاوية في بعض الدور، ودعوت هؤلاء الجنود إلى الطاعة والجماعة فلم يستجيبوا، فأحرقت عليهم تلك الدور ثم هدمتها فوقهم، فصاروا دخاناً وغباراً فبُعداً لمن طغى وعصا!..

عدت ظافراً إلى دار الإمارة في البصرة، ومعي وديعة بيت المال فأعدتها إلى موضعها..

وقال شاعر بكر بن وائل يمتدحني ويذكر مأثرة قومه:

رددنا زياداً إلى داره وجار تميم دخاناً ذهب
حميناه إذ حل أبياتنا ولا يمنع الجار إلا الحسب

اليوم الثالث:

عاد والي البصرة عبد الله بن عباس فوجد البصرة قد هدأت

بعد تلك الهيعة التي أحدثها جنود معاوية، فشكر لي، وأبلغني الثناء الجم من أمير المؤمنين، ثم قال:

ـ يا زياد.. إن أمير المؤمنين قد جعلك والياً على فارس وكرمان، فامض على بركة الله فأعد إليهما الأمن والنظام، واضرب على أيدي الغوغاء والسوقة والأراذل الذين طردوا عمال أمير المؤمنين، ورفضوا أن يدفعوا الخراج!..

حاولت أن أتخلص من هذه الولاية الثقيلة، وسقت إلى ابن عباس معاذير كثيرة، فقال لي: يا زياد.. إن أمير المؤمنين قد وجدك صليب الرأي، عالماً بالسياسة، كافياً لما توليت من أمور، فخصك بهذه الولاية، وجعل تحت إمرتك أربعة آلاف من جنوده، على حاجته إلى الجند في محاربة معاوية..

قبلت آخر الأمر ما قلدنيه أمير المؤمنين من ولاية فارس وكرمان، ثم خلوت في داري أفكر في الأمر وأدبر له..

ماذا يصنع أربعة آلاف جندي في بلاد واسعة وعرة الجبال، انتقض أهلها على الدولة وكسروا الخراج، وطردوا ولاة أمير المؤمنين وأهانوهم؟!..

ولكن.. لا بد مما ليس منه بد، ولا معدي لي من المسير إلى فارس وكرمان وإن كانتا تضطرمان ناراً يصطبغ بها وجه هذه السنة، سنة ٣٩ للهجرة..

اليوم الرابع:

قلت في نفسي وأنا وسط جنودي تدقدق سنابك خيلنا على الطرقات الوعرة بين البصرة وبلاد العجم:

ـ هأنتذا يا ابن سمية الذي ولدتك أمك عبداً مهاناً، قد زايلك هوانك، وبلغت بمواهبك وأعمالك مرتبة الإمارة التي تشرئب إليها

الأعناق، فلا فرق الآن بينك وبين الأمراء الصناديد من بني هاشم وبني أمية.. فما عساك تصنع مع أولئك العجم الذين ينتظرونك في بلادهم، وهم قوم متعصبون على العرب، يثورون شفاء لداء العصبية قبل أن يثوروا طلباً للعدالة؟!..

وقطع تفكيري صوت بعض طلائع الجند:

ـ نحن الآن في أول أرض العجم أيها الأمير..

قلت في نفسي وكأني أرد على صاحب ذلك الصوت:

ـ نعم.. نحن الآن في أول أرضهم.. فكيف لك يا بن سمية، أو يا ابن عبيد، أو يا ابن أبي سفيان أن تسد تلك الثلمة المنفجرة، وتدرأ ذلك الشر المنبثق، وقد استوحل الدهماء والحشوة في كل وحل، وظنوا أن الدولة انهارت، والحكومة ذهبت إلى غير رجعة، فسقطت هيبتها في نفوسهم، وحملهم ذلك على احتقار الولاة، ثم التأدي باحتقارهم إلى خلعهم، ثم التأدي بخلع الولاة إلى خلع أمير المؤمنين.. وليس يجدي في هذه الحال إلا ضرب الرقاب وسفك الدماء؟!..

ولكن ما أبعد الفارق بين وال يخوض في دماء الرعية، وبين وال ينظر في أسباب سخطهم فيخلق بعدله وحذقه في الحكم أسباباً للرضا، فيكون ذلك برهانه عند أمير المؤمنين على الفطنة وحسن السياسة في المهم العظيم من أمور الدولة!..

وصاح جندي من الطلائع مرة أخرى فقطع تفكيري من جديد، فلما سكت عدت إلى ما كنت فيه من الحديث إلى نفسي.. قلت:

ـ ألا وإن الناس لا مقادة لهم إلا بيد أمير يرعى مصالحهم، فإن أهملها انقادوا لكل من يدعوهم إلى الخروج عليه.. وذلك ما وقع في كرمان وفارس.. فكيف أصنع؟!

٣

عضة السيف المسموم

اليوم الأول:

كلما نظرت في أحوال الدولة لم أزدد إلا يقينا بأن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قد أصبح يبتغي الوسائل والأسباب إلى هدف مبهم بعيد لا تراه الأبصار وإن تعلقت به البصائر، فإن أمير المؤمنين يطلب الآخرة والناس يطلبون الدنيا، وينفضون من حوله ويتسللون إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام، ومعاوية لا يبخل عليهم بالذهب والفضة.. أما علي فيحاسبهم على الدرهم والدانق وما يدخل في بطونهم من الطعام والشراب، فكأنه شهر الحرب على غرائز الناس، بعد أن كان قد شهرها على معاوية والخوارج والفرق المناوئة الأخرى.

وتالله ما رأيت رجلاً أعجب من علي بن أبي طالب في مناهضة طبائع الناس ونواميس حياتهم واجتماعهم، وهو ينسج على منوال الشيخين العظيمين أبي بكر وعمر بعد ذهاب أيامهما وملابساتها، ويحاول إحياء سيرتهما وإنما هي حديث للرواة يحب

الناس سماعه. ولكن حياة الناس الآن غير حياة الناس في عهد الشيخين.

وقد كره حتى أقرب الناس إلى «علي» شدته وأخذه بنواصيهم إلى سنة أبي بكر وعمر، وقال قائلهم: قد كان عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ لا يقتر علينا، وهذا علي بن أبي طالب يريد أن يصادر أموالنا ويبيع جوارينا وغلماننا، ويسألنا: من أين لكم هذا؟!..

ولقد أصابني أنا من تشدد أمير المؤمنين ما ملأني تعجباً، فإنني من ثقاته ولكنه يظهر اتهامي ويسمع عني الوشايات والدسائس فيصدقها، وما هي إلا أحاديث يفتريها أصحابها ابتغاء عزلي من منصبي..

جاءني رسول له ليحمل إليه خراج ولايتي، وكان رجلاً فظاً غليظ القلب مغروراً، فأنكرت منه ذلك ولم أبسط له وجهي، ولكني أرجعته إلى أمير المؤمنين مثقل الحقائب بأموال الخراج، فلم يكفائني أمير المؤمنين بكلمة شكر، بل بعث يؤنبني في كتاب يقول: «إنك شتمت الرجل وجبهته تجبراً وتكبراً، ومن تكبر سخط الله عليه، وقد أخبرني أنك تستكثر من ألوان الطعام، فماذا عليك لو صمت لله أياماً وتصدقت ببعض ما عندك محتسباً؟!.. أتطمع وأنت متقلب في النعيم تستأثر به على الجار المسكين الضعيف الفقير والأرملة واليتيم، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين؟!..

وأخبرني الرجل أنك تتكلم كلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فتب إلى ربك وأصلح عملك!..

أدهشتني هذه الرسالة العجيبة من أمير المؤمنين، فقد بادر إلى تصديق مزاعم رسوله دون أن يتثبت من حقيقة الأمر، فغاظني ذلك ورددت عليه أقول: «إن هذا الرجل قد جاء إلينا متعجلاً فانتهرته

وزجرته.. فأما ما ذكر من الإسراف في الأموال والتنعيم واتخاذ الطعام، فإن كان كاذباً فلا أمنه الله عقوبة الكاذبين.. وأما قوله إني أتكلم بكلام الأبرار وأخالف ذلك بفعلي، فليأت على قوله هذا بشهود عدول، وإلا تبين كذبه وظلمه»!..

وما أعجب هذه الملاحقة التي يلهب بها أمير المؤمنين ظهور عماله وأمرائه وقواده في الأمصار، فلا تنقطع عنهم رسائله، يندد بهم ويحاسبهم ويغلظ القول لهم، حتى أسخط أقرب أمرائه إليه..

وهذا ابن عمه عبد الله بن عباس والي البصرة، اتهمه أبو الأسود الدؤلي قاضي البصرة بأنه أكل ما تحت يديه من أموال المسلمين، فسارع علي فكتب إلى ابن عباس زاجراً منددأ: «.. بلغني عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت ربك، وأخرجت أمانتك، وعصيت إمامك، وخنت المسلمين... بلغني أنك أكلت ما تحت يديك من بيت المال.. فارفع إلينا حسابك، واعلم أن حساب الله أشد من حساب الناس»!..

فحدثني من كان في مجلس ابن عباس بدار الإمارة في البصرة حين وصلت إليه هذه الرسالة، أنه غضب منها أشد الغضب، وجمجم بكلمات بينه وبين نفسه، ثم صاح: يا غلام.. الدواة والقلم والقرطاس.. فكتب إلى أمير المؤمنين هذه الكلمات التي تقدح شرراً: «.. والله لأن ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من ذهبها وفضتها، أحب إلي من أن ألقاه وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال لذلك الملك والسلطان»!..

هكذا هجم ابن عباس على ابن عمه هذه الهجمة المنكرة، فاتهمه بسفك دماء الأمة طلباً للملك والسلطان، لا دفاعاً عن

كتاب الله وسنة نبيه.. وهذا بعينه هو ما يقوله معاوية وحزبه، وما يقوله الخوارج وسائر الشانئين والمخالفين لأمير المؤمنين..

اليوم الثاني:

جاءني اليوم «صاحب الخبر» في ديوان الإمارة وهو رجل نشيط يقود جماعة كبيرة من العسس والموكلين بجلب الأخبار.. قال لي:

ـ أصلح الله الأمير.. إن عبد الله بن عباس قد انشق على أمير المؤمنين وحمل ما في بيت مال البصرة عنوة فأودعه حقائبه ومضى إلى مكة يحتمي بها ويتصرف بالمال..

دهمني الخبر وروعني، فصحت في الرجل:

ـ ويلك!.. أرسل من فورك من يستطلع لنا تفاصيل هذه الأمور الخطيرة ويعود إلينا في أقرب وقت!..

انطلق صاحب الخبر، فبعث فريقاً من أبرع رجاله إلى البصرة والكوفة ومكة.. فلم تمض إلا أيام حتى عادوا بقصص صرت أتعجب لها وأقول في نفسي: أفي الممكن هذا؟!.. أفي الجائز عقلاً أن يقال: إن ابن عباس بحر العلوم ومفسر القرآن هو ابن عباس مغتصب بيت مال البصرة، والمنشق عن طاعة الإمام؟!..

لقد أحصى ابن عباس ما في بيت المال فوجده ستة آلاف ألف درهم، فحشاً به ثيابه وعبابه، لم يترك منه درهماً واحداً، وخرج من البصرة في حماية بعض القبائل، وثار أهل البصرة يحاولون منعه من اغتصاب بيت مالهم، ولكنه تمكن من اللحاق بمكة وفي حوزته جميع ما أخذ من الأموال.. وكان أول أعماله هناك أن اشترى ثلاث جوار صغار فوق سن العاشرة بقليل كأنهن الأقمار، وبدأ حياة جديدة بمنأى عن القتل والقتال، والصراع الدموي على الخلافة بين علي ومعاوية..

وقد أطلعني صاحب الخبر على نص رسالة عظيمة الشأن بعثها الإمام

علي إلى ابن عباس تعليقاً على هذه الحادثة التي سارت بها الركبان..
قال الإمام: «... أما بعد.. فإنه لم يكن في أهل بيتي رجل أوثق منك في نفسي، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، وأمانة الناس قد خرجت، وهذه الأمة قد فتنت، قلبت له ظهر المجن، ففارقته مع القوم المفارقين، وخذلته أسوأ خذلان الخاذلين، وخنته مع الخائنين، فلا ابن عمك آسيت، ولا الأمانة أديت، كأنك إنما كنت تكيد أمة محمد عن دنياهم، أو تطلب غرتهم في فيئهم، فلما أمكنتك الغرة أسرعت العدوة، وغلظت الوثبة، واختطفت ما قدرت عليه من أموالهم، إختطاف الذئب الأزل دامية المعزى الهزيلة، فحملت أموالهم إلى الحجاز رحيب الصدر، غير متأثم من أخذها!..
أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً؟!.. أو ما يعظم عندك أنك تستثمن الإماء وتتزوج النساء بأموال اليتامى والأرامل والمجاهدين..
وقد بلغني أنك اشتريت الجواري من المدينة والطائف تتخيرهن على عينك وتعطى فيهن مال غيرك.. مكانك قد بلغت المدى، فاتق الله، وأد أموال القوم...»!..

ليت شعري.. كيف كان رد ابن عباس على هذه الرسالة القاصمة؟!..

سألت صاحب الخبر: أما تعرف كيف رد ابن عباس على هذه الكلمات التي سوف تبقى آخر الدهر؟!.. قال صاحب الخبر: قد جاءني أجد رجالنا بنص رد ابن عباس ولكني لا أصدقه لفرط غرابته.. قلت: وما هو؟.. فدفع الرجل في يدي بقرطاس فيه هذه الكلمات:

«.. يا علي.. لئن لم تدعني من أساطيرك هذه لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به»!..

نظر الرجل في وجهي الممتقع وسألني:

ـ أصلحك الله أيها الأمير.. هل تصدق أن يبلغ حقد ابن عباس على ابن عمه أمير المؤمنين هذا المبلغ؟!..

أشحت عن الرجل وقلت في نفسي: إذا انقلب الأمناء يختانون الأمانة، فاعلم يا زياد بن سمية أن دولتهم في انقراض، وإلى انتهاء!..

اليوم الثالث:

تمضي الأيام والدولة تزداد ضعفاً، ومعاوية يزداد قوة، وقد أحبته قريش والقبائل لسخائه ونظره إلى أمور دنياهم، بينما يقف علي بن أبي طالب موقفه ذاك من التقتير، والمحاسبة على النقير والقطمير، ولو شاء معاوية أن يجتاح بجيوشه دولة على لاجتاحها، ولكنه ما زال يحتفظ بشيء من المحاسبة لعلي، وقد بلغني أنه كتب أخيراً إلى علي يقول له: «.. إذا شئت فلك العراق والحجاز، ولي الشام ومصر».. وقد تراضيا على ذلك، وتمت بينهما الموادعة والمهادنة وكفًا السيف عن الأمة، وحقنا دماء العرب، وأقام معاوية في الشام بجنوده يسيطر فوقها ويجبيها وما حولها، وأقام علي بالعراق يجبيها ويقسمها بين جنوده، فصار للأمة خليفتان، وإنما الخليفة في الإسلام واحد، وإلا صار كل خليفة ملكاً في مملكته ثم فسدت المملكتان بعد فساد الخلافة..

ولا أظن الأمور تمضي متخبطة في هذا الطريق أمداً طويلاً، وإن كنت أظن ظناً غير مستيقن أن أيام دولة علي بن أبي طالب باتت معدودة، لأن الفتوق فيها تتسع، وجيوشه سئمت الحرب ويئست من النصر، وفي كل يوم تثب عليه فرقة جديدة من الخوارج الذين بلغوا في تأويل الدين حد الجنون، وما عسى يصنع أمير المؤمنين في هذه الفتن الداهمة، والخطوب الحاطمة؟!..

لابد للمرء من أن يفكر في مستقبله.. فماذا يمكن أن أفعل إذا سقطت هذه الدولة، وهل تقوم من جديد بعد سقوطها، وكيف

أقف من معاوية وكيف يقف مني معاوية وأنا عنده موسوم بالخطأ والعداوة؟!..

اليوم الرابع:

أخيراً جاءت النهاية!..

قتل الخوارج أمير المؤمنين!..

حمل البريد إلي ديوان الإمارة هنا تفاصيل الحادث الرهيب، وإن المرء ليعجب، كيف ترك أمير المؤمنين نفسه بلا حراسة في الليل والنهار وعاصمة دولته تعج بالخوارج الذين خولطوا في عقولهم، فاتهموه بالكفر وطالبوه بالتوبة والعودة إلى الإسلام من جديد؟!..

لقد تركهم يناقشونه في المسجد، ويهتفون في وجهه: لا حكم إلا لله، فلا يزيد على أن يقول لهم: «كلمة حق يراد بها باطل».. حتى استمرأ هؤلاء المأفونون تسامحه وانتقلوا من الصياح والهتاف بشعاراتهم إلى الضرب بالسيوف والطعن بالرماح!..

وقد جاءت نهاية أمير المؤمنين على يد عبد الرحمن بن ملجم الحميري، وهو من أعتى عتاة الخوارج المتحجرين في جهالتهم..

خرج أمير المؤمنين للصلاة وجعل ينادي أيها الناس... الصلاة... الصلاة!.. وإذا بابن ملجم يخرج عليه بسيفه صائحاً:

ـ لا حكم إلا لله!.. الحكم لله يا علي لا لك ولا لأصحابك!..

وعضت ضربة السيف جبهة أمير المؤمنين حتى بلغت دماغه، فوقع وهو يقول لمن حوله: لا يفوتنكم الرجل!..

وحمل علي إلى منزله: وأخذ ابن ملجم مكتوف اليدين فوقف بين يديه فقالت له أم كلثوم بنت علي وهي تبكي:

ـ يا عدو الله.. لا بأس على أبي، والله مخزيك!..

قال ابن ملجم:

ـ فعلام تبكين إذن؟!.. أما والله لقد سممت السيف شهراً، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل هذا المصر ما بقي منهم واحد لشدة ما في حد هذا السيف من السم!..

ثم مات أمير المؤمنين بعد أن أملى وصيته، وقد تلقيت نصها بحذافيره، وإنها لعظة بالغة، أوصى فيها أبناءه، واستودعهم الله، ولم يستخلف أحداً وقال: أترككم كما ترككم رسول الله لم يستخلف أحداً.. ولكن أناساً من غلاة شيعته وجهلائهم شرعوا يتكذبون عليه ويقولون إنه سوف يبعث قبل يوم القيامة!..

وقد سمع ابنه الحسن ذلك فتعجب قائلاً: سبحان الله. لو علمنا ذلك ما قسمنا ميراثه بيننا ولا زوجنا نساءه لهذا وذاك من الرجال!..

وليست عودة علي بن أبي طالب قبل يوم القيامة هي الأمر المهم الآن.. المهم حقاً أن تعود دولته كما كانت، وإلا ذهبت بغير عودة إلى يوم القيامة!...

٤

نهاية دولة الأحلام

اليوم الأول:

أفاق الناس في «الكوفة» عاصمة الخلافة فوجدوا أنفسهم بلا خليفة، بعد أن قتل ابن مجلم الخارجي خليفتهم علي بن أبي طالب..

وقبل أن يسلم الخليفة الشهيد الروح، أوصى ابنه الأكبر «الحسن» فنهاه عن المثلة بجثة ابن ملجم حين يقتلونه قصاصاً، وقال للحسن: «... إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة، ولا تمثل بالرجل فإني سمعت رسول الله يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور»!!

ولكن بعض آل أبي طالب دعوا بابن ملجم فقطعوا يديه ورجليه، وفقأوا عينيه، وقطعوا لسانه، ثم أوقدوا ناراً فرموا فيها جيفته!

تدبر قادة الدولة وصية خليفتهم الشهيد فلم يجدوا فيها إلا الحث على تقوى الله، وصلة الرحم، والاعتصام بحبل الله،

وصلاح ذات البين، والصلاة والزكاة والجهاد والرفق بالفقراء والمساكين والأرقاء..

ودخل قيس بن سعد قائد الجيش خيمة الحسن بن علي يقول له:

ـ أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين «يعني معاوية وحزبه»..

فقال الحسن:

ـ على كتاب الله وسنة نبيه، فإن ذلك يأتي من وراء كل شرط..

ولم يذكر الحسن «قتال المحلين».. متعمداً، ووضح أنه لا يريد أن يتكلم عنهم، فبايعه قيس بن سعد، وسكت عن مجادلته في الأمر، ثم بايعه أهل العراق..

ولم تمض أيام حتى لاح لأصحاب الحسن أنه لا يريد محاربة معاوية، بل يريد أن يأخذ منه لنفسه ما يستطيع أن يأخذه ثم يتنازل له عن الخلافة ويدخل في الجماعة بسلام!..

كأنما استند الحسن في عزيمته هذه إلى ما جاء في وصية والده حيث قال: «إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام، «فاعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»..

أما أنا فإني وإن بعدت في بلاد العجم مدة، إلا أني أعرف الحسن بن علي كأني لم أفارقه قط.. وإني لأراه رجلاً قد اعتصم بعقله حين رأى دولة أبيه تتساقط بين يديه قطعة قطعة، وقد تفرق أنصاره ومالوا إلى معاوية الذي يمنيهم بدولة لينة سخية رخية كدولة عثمان بن عفان!..

وإن قريشاً لأكثر القبائل الآن ميلاً إلى معاوية، وانصرافاً عن

علي.. وإنما الدولة والخلافة في قريش، وهي تعطي الخلافة والدولة لمن تختاره!..

ولكني أتساءل: من الذي أورث معاوية هذا الإرث، ومن الذي جعل الخلافة وقفا عليه، ولماذا يجيء معاوية مطالباً بدم عثمان، فإذا به يجلس في سرير عثمان؟!..

اليوم الثاني:

جاءني أصحاب الخبر في ديواني اليوم فقالوا: إن جنود الحسن ابن علي قد تمردوا عليه فنهبوا سرادقه بعد أن ارتابوا في نيته، وقال بعضهم لبعض مستنكرين: إن خليفتكم هذا يضمر الاستسلام لمعاوية والتنازل له عن الخلافة، وإنكم إنما بايعتم خليفتكم هذا لنسبه وكونه سبط رسول الله وابن علي بن أبي طالب فقصر به عمله وأبطأت به همته عن النهوض بحق البيعة، وقد صدق عمر ابن الخطاب إذ قال: من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه!...

وقال جماعة منهم يلهجون بكلام الخوارج:

ـ لقد كفر الحسن كما كفر أبوه من قبله، فليقر بالكفر ثم فليتب إلى الله من كفره ويدخل في الإسلام من جديد!..

وهجم عليه نفر منهم بالسلاح يريدون قتله، فنجا بنفسه على فرسه إلى بلدة «المدائن».. فكمن له في الطريق رجل من الخوارج، هجم عليه فجأة وطعنه في فخذه طعنة لم تقتله، وانطلق الحسن مثخناً بجرحه، وعولج حتى برأ..

كانت هذه الطعنة هي خاتمة القصة، فسرعان ما ترك الحسن الحرب، والتقى بمعاوية بن أبي سفيان وشرط لنفسه عليه شروطاً ثم بايع لمعاوية بالخلافة.. وذهبت دولة الحسن بعد ذهاب دولة أبيه كأنهما ما كانتا ملء الأسماع والأبصار..

وكان الحسين قد حاول أن يصرف أخاه الحسن عن مبايعة معاوية متوسلاً إليه:

ـ نشدتك الله يا أخي ألا تأتي عملاً فيه تصديق لأحدوثة معاوية، وتكذيب لأحدوثة علي!!..

قال له الحسن:

ـ أسكت فأنا أعلم بالأمر منك!..

والتقى الحسن بحجر بن عدي، من أكبر أنصار علي بن أبي طالب، فقال له حجر مندماً إياه على مبايعته معاوية:

ـ يا ابن رسول الله، لوددت أني مت قبل أن أرى ما رأيت!.. أخرجتنا من العدل إلى الجور، فتركنا الحق الذي كنا عليه، ودخلنا في الباطل الذي كنا نهرب منه.. وأعطينا الدنية من أنفسنا، وقبلنا الخسيسة التي لا تليق بنا!..

فتأثرالحسن وقال لحجر مواسياً: إني رأيت هوى الناس في الصلح، فلم أرد أن أحملهم على ما يكرهون من الحرب، فصالحت!..

ودخل معاوية الكوفة ـ عاصمة دولة علي ـ دخول الظافرين، في غرة جمادي الأولى من هذه السنة ـ سنة ٤١ للهجرة ـ وقال للناس متهللاً:

ـ أبشروا.. فقد جعل الله عامكم هذا عام الجماعة فلن تتفرقوا بعده إن شاء الله..

ونصرف الحسن والحسين مع أهلهم وبعض شيعتهم في صفوف طويلة حزينة، تتحرك في الطريق إلى مدينة رسول الله، حيث يأويان إلى دارهما بعيدين عن الحرب والسياسة!..

اليوم الثالث:

جاءني أصحاب الخبر في الديوان يقولون: إن قيس بن سعد

كبير قواد الحسن بن علي أراد أن يستسلم لمعاوية فوقف خطيباً فيمن تحت إمرته من الجند فقال:

ـ أيها الناس.. اختاروا الدخول في طاعة «إمام ضلالة» أو القتال مع غير إمام بعد أن خلع الحسن نفسه من الإمامة وسلمها لمعاوية..

قالوا جميعاً في استسلام:

ـ بل نختار أن ندخل في طاعة إمام ولو كان إمام ضلالة ولا نقاتل بغير إمام أبداً..

قال لهم قيس:

ـ إذن تبايعون لمعاوية؟!

قالوا: نعم، ولن يكون معاوية إمام ضلالة إن شاء الله..

وبايعوا جميعاً لمعاوية، لم يتخلف عن البيعة منهم أحد، لأن الحسن بن علي قد تركهم مأمومين بلا إمام!..

واشترط قيس بن سعد على معاوية الأمان لنفسه ولمن معه من الجند على ما أصابوا من الدماء والأموال.. ثم دخلوا جميعاً في طاعة معاوية، وانساغ لشيعة «علي» هؤلاء من طاعة إمام الضلالة ـ في زعمهم ـ ما لم يكن لينساغ لهم أيام الصيال والنزال في «صفين» وما تلاها من الخطوب!..

اليوم الرابع:

الدنيا تتغير بسرعة، وآثار الزمن القديم تعفو أثراً بعد أثر، وسقطت أفكارنا وأحلامنا الجميلة التي حاربنا لنصرتها، في مهواة سحيقة فانتثرت ذرات في أربعة أركان الأرض.. وانتهت دولة الأحلام!..

وكنا نقول: إن الغراب لا يصلح أن يكون صقراً، ولا يستطيع

أن يغلب نسراً، فعلمتنا صروف الليالي أن النسر قد يغلبه الغراب، وأن الغراب إذا أقبلت عليه الدنيا، صلح أن يكون صقراً، أو بديلاً للصقر، وأن الحق لا ينتصر بكونه حقاً معلقاً في الفضاء كشمس النهار، وإنما ينتصر بقدرته على جعل معانيه حياة يعيشها الناس لبقائهم فيها، وبقائها فيهم..

وقد كنا نعرف ذلك ونراه في عهد عمر بن الخطاب رحمه الله، ولكن دنيا عمر قد انقضت فلا أثر لها الآن، وصارت الخلافة مُلكاً وسلطة وجبرية.. من غلب على شيء أكله!..

وقد بلغني أن معاوية بعد أن أخذ بيعة أهل الكوفة ولى عليهم المغيرة بن شعبة، ثم انصرف بجيشه إلى الشام..

فما أعجب الأيام التي عادت بالمغيرة بن شعبة والياً على أحد أمصار العراق، وإني لأعرفه حق المعرفة منذ كنت في أربعة نفر شهدوا عليه في مجلس عمر بن الخطاب ـ رحمه الله ـ بأنهم رأوه يخلو بإحدى النساء المعروفات بسوء السمعة في البصرة حين كان والياً عليها في عهد عمر..

وقد شهد ثلاثة منهم شهادة شرعية تامة الأركان أنهم رأوه في ذلك الموقف.. ولو شهدت عليه مثل شهادتهم لثبتت عليه الجريمة، ولقتله عمر رجماً بالحجارة!.. ولكن المغيرة بن شعبة نظر في وجهي بينما كان عمر يستجوبني، فتلجلجت واتهمت نفسي، وقلت:

ـ يا أمير المؤمنين.. إني لم أتمكن من رؤيته متلبساً بتلك الحالة رؤية تامة شاملة، ولا أشهد إلا بما رأيت.

فدرأ عمر حد الزنا بهذه الشبهة في شهادتي، عملاً بقول رسول الله: «ادرأوا الحدود بالشبهات».

ثم أقام عمر حد القذف على الشهود الثلاثة، ومنهم أخي من أمي، «أبو بكرة» وهو رجل جد وصدق، وقد جلده عمر وجلد الشاهدين الآخرين، ونجا المغيرة من القتل بفضل تلك الشبهة في شهادتي فلبث يحفظ لي هذا الجميل منذ يومئذ، ولكنني لا أدري كيف يقف مني الآن وقد صار من أركان دولة معاوية، وأنا ما زلت معتصماً بقلعتي في «اصطخر» فوق هذه الأرض الفارسية، ومعي أموال طائلة من أموال الدولة العلوية الدائلة، ولن استسلم لمعاوية، فهذه سياستي، ولم لا أقيم فوق هذه الأرض دولتي؟!.. وهل كثير على مثلي أن تكون له دولة؟!..

نعم.. هذه سياستي، وإذا أنا قلت إن هذه سياستي، كانت هي سياستي بلا جدال، لا ينبغي لأحد أن يراجعني فيها بكلمة. أو يقول لي: أيها الأمير.. إن سياستك قد أضرت بنا.. فمهما أوقعت سياستي من ضرر بهذا أو ذاك من الناس، فإن سياستي هي دائماً سياستي، لا يحاول أحد أن يردني عنها إلا رددته بالسيف!.. وليعلمن الناس جميعاً ذات يوم مَنْ زياد ابن سمية!..

وسوف أبقى في «اصطخر» حتى يثور مائة ألف سيف من سيوف الحسن بن علي، فتتسع لي من خلالها فرجة أرى فيها حيلة لمغداي ومراحي، وألتمس منها تفريجاً لكربات المكروبين، وشفاء لآلام المألومين الذين ضاعت آمالهم في دولة عدل ورحمة ومساواة بين الناس كأنهم أسنان المشط!..

على أنني ـ في الحقيقة ـ أستبطىء حركة أنصار الحسن وشيعة أبيه، ولقد رأينا البطء والوناء وعاقبتهما في هدم دولة علي.. فليت شعري متى يتحرك أصحاب الحقوق في الطلب بها؟!

اليوم الخامس:

يساورني القلق منذ مدة على أبناء لي تركتهم في البصرة حين غادرتهم إلى هذه الأرض الفارسية التي ولاني عليها علي بن أبي

طالب في أخريات عهده.. وقد جاءني اليوم صاحب الخبر فقال لي:

- أيها الأمير.. قد أنجى الله أولادك في البصرة مما دبر والي معاوية من قتلهم، وذلك أن أخاك أبا بكرة حين رأى الوالي يريد قتلهم استمهله حتى يكلم فيهم معاوية بدمشق.. ثم ركب أبو بكرة من فوره فبلغ دمشق في أسبوع واحد، وأخذ من معاوية كتاباً إلى الوالي بإطلاق سراحهم، ثم عاد إلى البصرة في أسبوع آخر فبلغ أبوابها وقد أخرج الوالي أبناءك ليقتلهم، فلحقهم أخوك أبو بكرة، وصاح الناس: الله أكبر.. الله أكبر!.. وأطلق الوالي أبناءك، فالحمد لله!..

شكرت لصاحب الخبر وقلت:

- الحمد لله، ولا قوة إلا بالله والله أكبر!..

وشكرت لأخي أبي بكرة صنيعه في أبنائي، وإنه لمن عباد الله الصالحين الصادقين، وقد جلده عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حد القذف حين شهد على المغيرة بن شعبة في تهمته بتلك المرأة، وكنت أنا سبب جلده لأني ترددت في الشهادة فكنت الشاهد الرابع الذي هدم بشبهاته شهادة الثلاثة الآخرين، وعلى رأسهم أخي أبو بكرة..

وقد علمت أخيراً أن أخي أوشك أن يقتله حفاظه على الصدق.. فقد وقف والي البصرة الجديد الذي ولاه معاوية، فشتم علي بن أبي طالب شتماً مقذعاً، ثم قال للناس في المسجد كأنه يريدهم أن يشهدوا له شهادة زور:

- نشدت الله رجلاً منكم علم أني صادق فيما شتمت به علياً إلا صدقني، أو علم أني كاذب إلا كذبني..

فقام أبو بكرة من دون الناس فقال للوالي بصدق وبراءة، لا يخشى في الحق لومة لائم:

ـ اللهم إنا لا نعلمك إلا كاذباً!..

فأمر الوالي أعوانه أن يقتلوه خنقاً بأيديهم، فرمى بنفسه عليه أحد وجهاء البصرة ممن يهابهم الوالي فأنقذه!..

هكذا تغيرت الدنيا وأطلق السلطان أيدي ولاته في رقاب الناس بعد أن تلاشت دولة الأحلام!..

٥

استسلام الرجل الأخير

اليوم الأول:

نعم سوف أبقى في حصني هذا بمدينة «إصطخر» التي اتخذتها عاصمة لي في هذه الأرض الفارسية، حتى يفيق أنصار الحسين بن علي بن أبي طالب من غشيتهم ويثوروا على حكم معاوية بن أبي سفيان ويخلعوه، ويعيدوا الدولة العلوية الطالبية إلى عنفوانها، بعد انهيارها ودثورها!..

إن السيوف التي ما زالت تُضمر الولاء للحسن بن علي لا يقل عددها عن مائة ألف سيف، لو شهرها أصحابها ولم يجبنوا ولم ينكصوا لأنزل الله عليهم نصره المبين!..

ولكن.. أكذلك تستقيم الأمور؟!.. لعلي أحلم!.. فلا الحسن بن علي يريد استرداد الخلافة وقد باعها لمعاوية بدراهم وهدايا.. ولا أصحاب علي يريدون العودة إلى شهر السيوف! لقد غيروا ما بأنفسم وفاؤوا إلى ظلال معاوية، فتغير كل شيء حولهم، ولم يبق مقيماً على العهد سواي.. نائياً متوحداً في هذه البقعة من أرض العجم!..

غير أنني ـ بيني وبين نفسي ـ قد أصبحت أرتاب في السياسة التي سلكها علي بن أبي طالب، وصرت أراه الآن بعد انقضاء أحدوثته، مجرد رجل عبقري من رجال الوعظ والإرشاد، بهر الناس حيناً بفصاحته وبلاغته!.. لم يكن ـ رحمه الله ـ رجل دولة، ولا رب مملكة، ولا كان في طوقه أن يسيطر على أرض مترامية الأطراف تعج بالعرب والفرس والروم والأكراد والمصريين والأرمن والأتراك والأفريقيين والجماعات الأخرى من شتى الملل والنحل والأعراق، والعجب أن الأقلية في هذا الملك الشاسع هي من العرب والمسلمين، وسائر الرعية أهل ذمة وعاملون في فيء المسلمين!..

وقد تغيرت الدنيا في عهد عثمان بن عفان بعد اتساع الفتوح وتدفق الأموال واستبحارها في بيت مال المسلمين في «المدينة».. فكان عثمان يحثو المال حثوا للناس، ويعطي أقرباءه الأمويين كما يعطي المهاجرين والأنصار والعرب جميعاً فوق مأمولهم من الأموال الجزيلة!..

وأذكر أني حملت ذات يوم، خراج البصرة إلى عمر بن الخطاب فجلس يحصيه درهماً درهماً.. فجاءت طفلة له فالتقطت قطعة من درهم، فوثب عمر فأخرج من يدها الصغيرة قطعه الدرهم ونهرها ونهاها عن أخذ «مال الله»!..

فلما كانت خلافة عثمان حملت إليه مرة خراج البصرة، فجاءت طفلة له فاغترفت بيديها مقداراً كبيراً من المال وانصرفت آمنة مطمئنة، لم ينهرها عثمان، ولم يلتفت إليها.. فهالني ذلك وأحزنني حتى أبكاني!..

فلما رأى عثمان دموعي سألني:

ـ ما يبكيك يا زياد؟!..

قلت:

ـ رأيت ابنتك هذه تأخذ هذا المقدار الكبير من مال الله فلا تردها، ولقد رأيت ابنة عمر تأخذ كسراً من درهم فينتزعه منها ويعيده إلى مكانه ويزجرها..

قال عثمان:

ـ إنما أصل رحمي، وهذه طريقتي، ولا أقدر أن أكون مثل عمر، ولن تجد مثل عمر!..

هكذا اعترف عثمان بأنه لا يستطيع أن يسلك الطريق الوعر الذي سلكه عمر، فما بال علي بن أبي طالب قد رمى بنفسه في هذا الطريق الصعب، وأصر على المضي فيه بعد أن انقضى زمانه وتغيرت الأرض غير الأرض، وصار العرب ـ وعلى رأسهم قريش ـ سادة الدنيا، وتحت أيديهم خزائن المشرق والمغرب؟!..

لقد رأيت عثمان يعطي الزبير بن العوام ستمائة ألف درهم في ضربة واحدة، وقد كان الزبير في عهد النبوة لا يملك إلا حصاناً وبعيراً، ولم يكن لزوجته أسماء بنت أبي بكر خادم، فكانت تجلب الماء إلى البيت، ثم تطحن الشعير، ثم تعجن دقيق الشعير، ثم تحمى الفرن لتنضجه.. وقد مات الزبير بعد انقضاء عهد عثمان، فوجدوا في تركته ألف خادم وعبد وجارية، وعدداً لا يحصى من الخيل والبغال والإبل والماشية، وأموالاً طائلة، وزروعاً وقصوراً في الحجاز والعراق ومصر تقدر بألوف الألوف من الدنانير..

وفي عهد عثمان بن عفان جمع عبد الرحمن بن عوف ـ أحد رجال الشورى الستة ـ قطعاً ضخمة من الذهب لم يستطع ورثته

أن يقسموها بينهم إلا بعد تقطعيها بالفؤوس، عدا البعران والأفراس والزروع والبيوت.

وكانت تركة عثمان بن عفان أكثر من ثلاثين ألف ألف درهم، ومائة وخمسين ألف دينار، عدا الزروع والبساتين والخيل والإبل والماشية والبيوت.

غير أن تركة الصحابي طلحة بن عبيد الله كانت أضخم من تركة أمير المؤمنين عثمان، فقد بلغت أكثر من ألفي ألف دينار، وثلاثين ألف ألف درهم.

وكان سعد بن أبي وقاص ـ فاتح العراق ـ أقل ثراء من أقرانه هؤلاء، فلم تزد تركته على مائتين وخمسين ألف درهم!..

فما أبعد الفرق بين هؤلاء جميعاً ـ وإن كانوا من أفضل المسلمين ـ وبين علي بن أبي طالب الذي لم تزد تركته على مائتين وخمسين درهماً!..

لقد فشل علي ونجح معاوية.. لأن علياً أراد العودة بقريش والعرب إلى ما يشبه المسغبة التي كان يعانيها أهل «الصفة» في عهد النبوة.. أما معاوية فقد عرف أن هذه العودة مستحيلة ولا يأمر الإسلام بها، وأن أهل «الصفة» الذين كان يغمى على بعضهم أحياناً من الجوع قد صاروا أغنياء.. وهذا أشهر رجل فيهم ـ أبو هريرة ـ يملك الآن من الدنانير والدراهم والبيوت والزروع والخيول والجمال والأغنام ما لا حصر له.. وقد كان أبو هريرة ممن تصيبهم إغماءة الجوع من أهل الصفة المساكين المنعزلين في أسمالهم، لا عزاء لهم إلا قراءة القرآن.

فكيف يعود أغنى أغنياء الدنيا كلها ـ هؤلاء العرب الجدد ـ إلى ما كانوا فيه من الجوع والعري فيما مضى؟!..

لقد ذهبت تلك الأيام.. وهذا هو معاوية بن أبي سفيان يسوس الدولة في أيامها الجديدة الناضرة الزاهرة التي لا يرضى الناس بها بديلاً!..

اليوم الثاني:

في خزانتي أموال عظيمة، وإني لقادر على تحريك فريق كبير من شيعة علي وإمدادهم بالمال والسلاح، وإنجادهم بعسكر كثيف من هؤلاء العجم في إمارتي.. ولكن، هل يجزي هذا ـ على كثرته ـ في محاربة معاوية، وهل أستطيع أن أغلبه وهو الذي غلب علي ابن أبي طالب وابنه الحسن وهما سيدا قريش ولست أنا إلا عبداً من عبيد ثقيف ينسبني الناس إلى أمي استهانة بي، وإنكاراً لبنوتي لوالدي العبد الرومي، ويهمسون بأن أبا سفيان ـ والد معاوية ـ كان قد زعم قديماً أنه والدي؟!..

ولم لا يكون أبو سفيان هو أبي؟!.. لو كان حياً لطالبته أن يعترف ببنوتي على رؤوس الأشهاد بعد أن اعترف بها في عهد عمر بن الخطاب خفية وهمساً!...

وأراني الآن حائراً!..

فلا أنا بايعت معاوية كما بايعه الحسن والحسين وبنو هاشم.. ولا معاوية أرسل يطلب بيعتي، فماذا يضمر لي هذا الرجل الداهية؟!..

لقد بعث معاوية صفوة رجاله ولاة على الأمصار.. فهذا عمرو ابن العاص في مصر..

ومروان بن الحكم في «المدينة».. وخالد بن العاص في مكة، وعلى مقربة مني في خراسان والٍ جديد من رجال معاوية.. وأما

الكوفة ـ العاصمة السابقة لخلافة علي بن أبي طالب ـ فقد تولاها المغيرة بن شعبة، ذلك الرجل الذي كنت قديماً قد تلجلجت في الشهادة عليه بتهمة الزنا فدرأت عنه حد الرجم بالحجارة!..

ترى هل يتذكر المغيرة بن شعبة ـ وهو المقرب من معاوية الآن ـ تلك اليد التي أسديتها إليه عندما قبض عليه عمر بن الخطاب وحقق معه في تلك التهمة الموبقة؟!..

اليوم الثالث:

فجأة.. دخل حاجب دار الإمارة فقال لي:

ـ أصلح الله الأمير.. إن المغيرة بن شعبة واقف بباب مدينتنا، أفنفتح له الباب وتأذن له بالدخول؟!..

أدهشني النبأ، فما الذي أقدم المغيرة إلى إصطخر؟!.. أتراه جاء والياً عليها من عند معاوية؟!..

والله لئن كان كذلك لأعيدنه إلى معاوية مضروباً محلوق الرأس والشاربين واللحية!..

قلت للحاجب:

ـ جيء به إلينا!..

ولم أكد أراه حتى أدركت أنه جاء مسالماً لا محارباً، وأنه رسول للصلح بيني وبين معاوية!..

قلت له مرحباً:

ـ أفلحت يا مغيرة من رائد، فهات ما عندك..

قال:

ـ يا زياد.. إن معاوية قد ذكر اعتصامك بعيداًعنه بأرض العجم، فلم يهدأ له بال، وقال لي إن زياداً داهية العرب، معه الأموال، متحصن

بقلاع الفرس، يدبر الحيل ويتربص بي الدوائر، وأخشى أن يبايع بالخلافة لرجل من بني هاشم، فإذا هو قد أشعل نار الحرب بعد أن خمدت!..

شعرت بالكبرياء والفخر، فقلت للمغيرة:

- إيه.. فماذا بعد؟!

قال المغيرة:

- كما ترى.. جئتك أعقد بينك وبين معاوية صلحاً، وقد أخذت لك منه ميثاق الأمان..

قلت للمغيرة وقد أيقنت أن معاوية قد استخفه الوجل مني:

- ولكني باق على العهد لعلي وأبنائه!..

قال المغيرة مستنكراً:

- الله.. الله يا زياد.. إن أبناء علي، وأولهم الحسن قد بايعوا لمعاوية.. ولئن أبطأت بعد بيعتهم ليفوتنك ما عسى أن تطمع فيه يوماً من دولة معاوية ودنياه الواسعة، ولئن استسلمت الآن لتكونن آخر المستسلمين من رجال علي، فلا عار عليك في الاستسلام..

لزمت الصمت برهة أتفكر ثم قلت للمغيرة:

- إن كان الأمر كذلك فبم تشير علي وتنصح لي؟!..

قال الميغرة:

- أرى أن تسافر إلى معاوية فتبايع له، وتقدم إليه حساباً بما تحت يدك من أموال الدولة.. ويصنع الله خيراً..

اليوم الرابع:

جلست مع المغيرة بينما جنودي وأتباعي يجهزون آلات السفر..

تذاكرنا عهداً طويلاً مضى منذ كنا في البصرة على عهد عمر

ابن الخطاب.. كان المغيرة هو الوالي، وكنت كاتب الولاية وحاسبها..

قلت أذكِّر المغيرة بما مضى وأمازحه:

ـ والله لولا أن تلجلجت في شهادتي عليك بتهمة الزنا حين قبض عليك عمر بن الخطاب، لكنت أنت في عداد الموتى منذ خمسة وعشرين عاماً، فما كان عمر يعفيك من الرجم لو ثبتت عليك شهادة الشهود الأربعة!..

قال المغيرة يدفع التهمة:

ـ لم أكن زانياً قط، وقد أخطأ أخوك أبو بكرة وزميلاه إذ شهدوا ضدي!.. وكيف يزني رجل مثلي يملك سبعين جارية؟!..

قلت ضاحكاً مداعباً:

ـ وأنت على كثرة جواريك، لا تفتأ تتزوج أربع حرائر ثم تطلقهن وتتزوج أربعاً أخريات ثم تطلقهن وتتزوج غيرهن، حتى صرت مثلاً للرجل المزواج المطلاق!..

قال المغيرة كأنه يفاخرني، ويفتح للكلام باباً آخر:

- إني والله كنت آخر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، عهدا به؟!

- وكيف ذلك؟!..

ـ لما دفن عليه الصلاة والسلام بعد موته وخرج علي بن أبي طالب من القبر وأوشك أن يغلقه، ألقيت في القبر خاتمي، ثم هتفت بعلي: يا أبا الحسن: خاتمي.. خاتمي!.. قال لي علي: إنزل فخذ خاتمك، فنزلت فأخذته ثم مسحت قدم رسول الله وخرجت فكنت أحدث المسلمين به عهداً!..

قلت له بين اللوم واللين:

ـ ويحك!.. تأبى إلا الخداع حتى في ذلك الموقف!.. وتحسبني لا

أعرف حقيقة أحدوثتك هذه يا مغيرة؟!.. فالحقيقة أن علياً نهاك عن النزول وأمر أحد بني هاشم فنزل وجاءك بخاتمك!..

اليوم الخامس:

في الطريق إلى الشام قال لي المغيرة:

ـ يا زياد.. إن لي عليك يداً بيضاء لا تعرفها، فقد بعثني معاوية إلى البصرة لأحاسب عبد الرحمن، ابن أخيك أبي بكرة على ما استودعته أنت من أموال الدولة، وأمرني أن أعذبه عذاباً شديداً حتى يقر بهذه الأموال فوالله ما أنزلت به إلا أهون ألوان التعذيب، فكنت ألقي على وجهه منديلاً من حرير مبللاً بالماء فيلتصق بأنفه وفمه فيمنعه التنفس فيغشى عليه لحظة فأنزع المنديل عن وجهه فيتنفس ويفيق!.. ثم إنني تركت تعذيبه وأخبرت معاوية أنني لم أجد لديه شيئاً من أموالك فهذا ـ والله ـ فضل علَيك لي.. وسيكون لي عندك فضل آخر إذا أطعتني ونفذت ما أشير به عليك..

ـ وما ذاك يا مغيرة؟!..

صمت المغيرة كأنه يتفكر ثم قال:

ـ لا تضع نفسك في خدمة معاوية حتى يعلن على رؤوس الأشهاد أنك من ولد أبيه، أبي سفيان بن حرب.. فقد اعترف أبو سفيان نفسه لك بهذا النسب قديماً وإن لم يقله علانية!..

قلت متلهفاً:

ـ وهل يقبل معاوية أن يعلن على الملأ أنني أخوه!.. وما السبيل إلى أن أكون ابن أبي سفيان، وإنما أنا ابن سمية وابن عبيد، عرفني الناس كذلك منذ أربعين عاماً؟!..

قال المغيرة نافد الصبر على غير عادته:

ـ قد نصحت لك، فاصنع ما بدا لك!..

٦

الأخ غير الشرعي

اليوم الأول:

في الطريق بين العراق والشام ودعت صديقي المغيرة بن شعبة والي الكوفة، فسار إلى ولايته ومضيت إلى دمشق أقصد أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان..

استقبلني على أبواب دمشق صاحب الشرطة الملقب بالسكسكي، فرحب بي وصحبني إلى قصر الخلافة، ووجدت نفسي على بابه يحف بي رئيس حرس الخلافة وكنيته «أبو المخارق» وهو من الموالي الذين لا يعرفون في الدنيا إلا الولاء لمعاوية.. ولو أن عمر وعثمان وعلياً كانوا قد اتخذوا في خلافتهم حرساً يحميهم من الغائلة كما اتخذ معاوية هذاالحرس الشديد، لما استطاع أنني يغتالهم أولئك الأراذل السفهاء من العجم والخوارج.. أذن لي معاوية بالدخول فوراً، فأخذ بيدي حاجب القصر ومعه كاتب معاوية المسمى سرجون بن منصور الرومي.

ولم أكد ألمح معاوية حتى تذكرت قول عمر بن الخطاب لنفر

من قريش: كيف تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما ولا تذكرون معاوية في الشام؟!..

سلمت إلى معاوية بالخلافة، وكنت من قبل أنكر الخلافة عليه، ولكن الله حببني فيه بعد بغضاء محرقة كنت أحملها ظالماً له، وإنه والله لخليق بالحب والولاء، ولا أدري كيف أبغضته في سالف أيامي، ولا كيف أحببت أبا تراب، علي بن أبي طالب، في تلك الأيام!..

قال لي معاوية مترفقاً متودداً:

- يا زياد.. إن الناس يقولون إن في عهدتك أموالاً، ولا أراك تحبسها وهي حق للمسلمين!..

قلت أوضح له الحقيقة:

- يا أمير المؤمنين.. إني كنت قد حملت إلى علي بن أبي طالب أكثر هذه الأموال، وأنفقت بعضها في الوجوه التي احتاجت إلى النفقة مدة ولايتي في العجم.. وقد كان لي مال قبل عملي في هذه الولاية، فوددت أن ذلك المال يبقى لي، فإنه حقي!..

قال معاوية باسطاً وجهه متبسماً:

- نحن لا نطالبك إلا بما بقي لديك، وأنت صادق عندنا، فقد كنت أمين خليفتينا عمر وعثمان.. فهل لك أن تصالحنا على ما شئت من مال، قليلاً كان أو كثيراً؟!..

صالحته على شيء من المال سميته له، وأعددت حسابه درهماً درهماً، فطلب من كاتبه سرجون الرومي أن يقبض مني هذا المال بلا مراجعة ولا حساب!..

ثم سألني معاوية مبدياً الاهتمام بأمري:

- أين اعتزمت الإقامة يا زياد ؟!

قلت: يأذن لي أمير المؤمنين في نزول الكوفة..

فأذن لي ورحلت من يومي، واتخذت في الكوفة داراً، وأكرمني المغيرة بن شعبة والي الكوفة والوسيط في الصلح بيني وبين معاوية.

وأجدني الآن، لأول مرة منذ بضعة وعشرين عاماً، أجلس في داري بلا عمل، فإن معاوية حين صرفني معززاً مكرماً من مجلسه بقصر الخلافة، لم يولني عملاً، كأنه أرادني على التقاعد عن حكم الأمصار والعمل في التجارة أو الزراعة، والاكتفاء بحضور الصلاة الجامعة في مسجد الكوفة وراء صاحبنا المغيرة بن شعبة بعد أن كان الناس يصلون ورائي أيام ولايتي في البصرة وفي العجم!..

اليوم الثاني:

انقضت مدة وأنا متعطل بالكوفة لا عمل لي ولا مورد رزق لعيالي إلا ما ادخرت من المال في السنين الماضية..

فجأة وصل إلى الكوفة مبعوث من عند معاوية.. قال لي: أجب أمير المؤمنين بأسرع ما تستطيع!..

طرت إلى دمشق على ناقة وجناء رائعة أبلغتني قصر الخلافة في أيام معدودات..

استقبلني أمير المؤمنين.. وقال لي بلا تقدمة:

- يا زياد.. إن الأحوال في البصرة قد اختلت وفسدت، ولا يصلحها سواك، ولا يصلح لها غيرك، فأنت من بناة البصرة وولاتها منذ أيام عمر بن الخطاب، ولكني أحببت قبل أن تصير إليها أن أعترف على الملأ بحقك في الاستلحاق بأبي سفيان بن حرب، فقد علم الناس من قديم أنه أبوك!..

أدهشني كلامه وبغتني، وتأمل معاوية وجهي قليلاً، ثم استأنف كلامه الخطير:

ـ .. واعلم يا زياد أنني حين أستلحقك بأبي وأبيك ـ أبي سفيان بن حرب ـ لا أتكثر بك من قلة، ولا أتعزز بك من ذلة.. ولكني عرفت حقاً لك، فأردت أن أضعه موضعه.. وإنني قد استعملتك على البصرة وخراسان وسجستان والبحرين وعمان!..

ثم إن معاوية بادر فعقد مجلساً للناس وأتى برجال يشهدون بصحة نسبي إلى أبي سفيان بن حرب والد معاوية، وشيخ بني أمية في الجاهلية وفجر الإسلام!..

ووقف أحد بني ثقيف الذين كنت من عبيدهم في طفولتي ومعي في العبودية لهم أمي وزوجها «عبيد» الرومي وأخي أبو بكرة الذي لم يعترف به أبوه الثقفي.. وقف ذاك الرجل في المجلس الذي جمعه معاوية لتصحيح نسبي، فقال:

ـ اتق الله يا معاوية، فإن رسول الله قضى بأن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، وأنت قد جعلت للعاهر الولد، وللفراش الحجر!..

صاح فيه معاوية:

ـ ليس الأمر كما تتوهم، فماذا تريد أن تقول؟!

قال الرجل محنقاً زاعقاً:

ـ إن زياداً هذا الذي تريد أن تنسبه إلى أبيك، أبي سفيان، إنما هو عبد عمتي وابن عبدها، كذلك عرفناه في الطائف قبل دخولنا في الإسلام، وما زلنا نعرفه كذلك حتى اليوم، وإن صار من الأمراء!..

زجر معاوية هذا الرجل زجراً عنيفاً وهدده وتوعده، فصمت الرجل وجلس صاغراً..

ووقف رجل يشهد بصحة نسبي فقال:

ـ أشهد أن زياد بن سمية، هو زياد بن أبي سفيان بن حرب، فإن أبا سفيان كان قد سكر ليلة في الطائف، فالتمس إحدى البغايا لقضاء ليلته، فجيء إليه بسمية والدة زياد هذا الماثل أمامنا. فقالت سمية لأبي سفيان بعد أن ولدت زياداً إنها إنما حملت به منه في ليلتها تلك!..

غاظني هذا الرجل غيظاً أليماً بهذه التفاصيل التي ذكرها عن لقاء أمي بأبي سفيان، فوقفت صائحاً فيه:

ـ يا هذا.. إنك إنما دعيت لتشهد لنا، لا لتشتم أمهاتنا وآباءنا!..

لم يكن الشهود الآخرون أقل صراحة في الحديث عن تلك الليلة بين أمي وأبي سفيان، ووقف أحدهم فأبدى دهشته قائلاً:

ـ قد كانت سمية زوجة لعبد رومي اسمه «عبيد» حين راودها أبو سفيان عن نفسها.. وقد عاش زياد أربعين عاماً ينتسب إلى «عبيد» الرومي، فكيف يصح الآن انتسابه إلى أبي سفيان؟!..

وقال غيره:

ـ كانت سمية من بغايا الطائف، ولبثت كذلك حتى فتح المسلمون تلك البلدة.. وإن سمية لأدرى بمن أولدها زياداً، ولكني أشهد أنني سمعت أبا سفيان يقول إن سمية قد أخبرته بأن زياداً هذا هو ابنه، لأن أحداً من الرجال لم يقربها ـ غير أبي سفيان ـ قبل أوان حملها بزياد، وبعد أوانه!..

ووالله لو ضربني الناس بسيوفهم لما حزت شفراتها في لحمي وعظمي كما حزت كلماتهم هذه، وإنني لاستحي أن أذكرها بحذافيرها حتى بيني وبين نفسي، وأحاول جاهداً أن أنساها.. ولكن كان لا بد من ذلك المجلس العلني الفاضح لإثبات نسبي وإلحاقي بأبي سفيان بن حرب، صعوداً إلى أمية بن شمس بن عبد مناف، حيث يجتمع أصل بني أمية وبني هاشم سادة العرب والعجم!..

لقد لمحت في عيون بني أمية استنكاراً ورفضاً لانتسابي إليهم، أما بنو

هاشم فاستعاذوا بالله من أن يقال إنني صرت ابن عم لهم بهذا النسب الذي استجده لي معاوية!..

وأعجب شيء أن أخي أبا بكرة ـ الذي لم يعترف به أبوه الثقفي قط ـ قد استنكر هذا الاستلحاق، وقال لي غاضباً:

ـ يا زياد.. ما الذي حملك على قبول هذا الاستلحاق المنكر؟!.. فوالله ما كانت أمنا سمية مومسة، ولا جلس منها أبو سفيان مجلساً قط، وإنما أنت ابن «عبيد» الرومي، وأنا ابن رجل من ثقيف كانت أمنا ملك يمينه ولم يعترف بي، وقد حررك وحررني رسول الله من الرق يوم فتح الطائف، فأنا طليق الله وطليق رسوله، وأنت كذلك، وأنا مولى رسول الله، وأنت أيضاً، فكيف تترك ولاء رسول الله إلى ذلك النسب الكاذب من أبي سفيان؟!.. وكيف تطيب لك البراءة من أبيك «عبيد» وإن كان عبداً رومياً؟!..

قلت له:

ـ يا أخي.. أنت رجل طيب لا تعرف سياسة الدولة ولا تفهم عمل الرؤساء والقادة وأولي الأمر، وإنما يريد معاوية رجلاً لدولته الجديدة.. فما يضيرك من ذلك؟!

اليوم الثالث:

عزمت أن أتولى إمارة الحج هذا العام، فلقيت أخي أبا بكرة، فقال لي:

ـ بلغني أن معاوية قد جعلك أميراً للحج، وإني أنصح لك ألا تقبل هذه الإمرة، فإنها ظلم عظيم!..

ـ لماذا؟!

قال أبو بكرة غاضباً:

ـ حتى لا تفجر يا زياد في الإسلام ثلاث فجرات تدخل بهن النار، وواحدة منهن تكفي!..

ـ وما هي هذه الفجرات التي تزعم أني وقعت فيها؟!

ـ أما الفجرة الأولى، فكتمانك الشهادة على المغيرة بن شعبة بالزنا عندما أمسك به عمر بن الخطاب.. وإن الله ليشهد أنك رأيت من المغيرة مع تلك المرأة التي كانت معه أمام عيوننا، مثلما رأيت أناوالشاهدان الآخران!..

وأما الفجرة الثانية، فانتفاؤك من أبيك المسكين عبيد الرومي وادعاؤك إلى أبي سفيان، ويعلم الله أن أبا سفيان لم يعرف قط أمك سمية وأنه افترى عليها!..

ثم الفجزة الثالثة، وهي أنك إذا ذهبت إلى الحج فلا بد لك أن تزور في مكة أو في المدينة أم المؤمنين السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة النبي عليه الصلاة والسلام.. لأنك فيما زعمت أخيراً، أخوها من أبيها.. فإن أذنت لك أم المؤمنين بالدخول في بيتها وهي سافرة باعتبارك أخاها، كانت هذه مصيبة كبرى وخيانة لرسول الله، لأنك لست أخاها ولا أنت من محارمها، فكيف تلقاك بوجهها؟!.. أما إذا رفضت أم المؤمنين أن تلقاك وقالت لك: لست بأخي وليس أبي أباك، كان قولها هذا حجة عليك تدحض حجتك في انتسابك لأبي سفيان، ولا ينفعك عندئذ، اعتراف معاوية بك، لأن الناس يصدقون أخته أم المؤمنين ولا يصدقونه!..

اليوم الرابع:

ظللت صحابة يومي أتأمل كلام أخي إذ نصحني ألا أحج بالناس هذا العام، حتى لا أضطر إلى زيارة أختي أم حبيبة، أم المؤمنين، فيحدث ما لا تحمد عقباه!..

لقد نصح لي أخي أبو بكرة بلا ريب، فهو يحبني وإن كان

يكره ما صرت إليه من الولاء المطلق لمعاوية بعد ذلك الولاء المطلق لعلي بن أبي طالب!..

فلو ذهبت إلى الحج واستأذنت على أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، فقد لا تأذن لي ولا تعترف بأني أخوها، فأفتضح بين العرب والعجم، ويذهب تعبي وتعب معاوية باطلاً!..

عدلت عن الحج، وعزمت ألا أحج ما دامت أم حبيبة في مكة أو المدينة!..

وأنا مشغول بالتجهيز للسفر إلى البصرة، بادئاً عهدي الجديد هناك، عاملاً لأمير المؤمنين أخي معاوية بن أبي سفيان.. ولقد هدى الله قلبي إلى محبته بعد الكراهية، كما هدى قلبي إلى كره علي ابن أبي طالب بعد المحبة!.. وكنت قديماً أرى علياً مملوءاً علماً وحكمة، فالآن أرى أنه كان طامعاً في السلطان، غرته سابقته في الجهاد مع رسول الله، وقرابته إليه فظن أن الناس لا يعدلون به في الخلافة أحداً، ولكن معاوية غلبه بحلمه وتواضعه وكرمه ونظره إلى الناس في معاشهم، وتركه إياهم يعملون للآخرة من صالح أعمالهم ما شاء الله لهم أن يعملوا فأراح واستراح، وجمع حوله قلوب العامة والخاصة، وفاز بمبايعة الصديق والعدو، وأقبلت دولته على العرب والمسلمين بالخير والبركات!..

٧

السياسي والدهاء

اليوم الأول:

ها أنذا أخيراً على أبواب البصرة!..

أكثر من خمس سنوات قضيتها أميراً على فارس وكرمان في دولة علي بن أبي طالب حتى أخرجتني الأقدار الرحيمة من الضيق الذي كنت أكابده في دولة علي، إلى السعة التي صرت إليها في دولة أخي معاوية بن أبي سفيان!.. وإن معاوية لسيف صارم قطع الله به الفتنة، ووحد العرب، وجعله أمناً وسلاماً للعباد والبلاد من حدود الهند إلى مشارف بحر الظلمات!

في طريقي إلى البصرة قادماً من الشام مررت بالكوفة، فقيل إن فيها قوماً كذابين من شيعة أبي تراب علي بن أبي طالب، يزعمون أن معاوية قد سوغني ما استوليت عليه من بيت مال المسلمين في ولاية العجم التي كنت عليها، وأنني قد صرت أعظم الناس ثراء بما اغتصبته من ذلك المال!

رحب بي صديقي المغيرة بن شعبة والي الكوفة، وأنزلني في

ضيافته ريثما أتهيأ لاستئناف السفر إلى البصرة، لكني قلت له عاتباً:

- يا مغيرة.. أرى شيعة أبي تراب في ولايتك هذه يخوضون في الباطل خوضاً، ويكذبون على الله، وأنت تغضي عنهم ولا تزجرهم، كأنك تخشاهم!.. وقد زعموا أنني أكلت أموال الخراج التي كنت جبيتها لأبي تراب من أرض العجم قبل أن يديل الله لنا من دولته، ويكشف ستر أحدوثته..

قال المغيرة يترضاني ويمزج كلامه بشيء من الدعابة:

- والله لقد كان علي بن أبي طالب عندك فيما مضى، أعظم من كل كنية ولقب، فصرت الآن لا تكنيه إلا بأبي تراب، ولكنك تخشى التراب وأبا تراب، وتؤلمك أقاويل بعض أشياعه، فلاتشغل بالك بهم، فإنهم موتورون منك ومن معاوية أخيك، ولن ينجو أميرٌ ولا والٍ ولا كبير نابه في دولة معاوية من ألسنة هؤلاء الناس أبداً!..

قلت غاضباً:

- والله ما أخذت من دولة أبي تراب كما أخذ بنوه وذووه، فإن ابنه الحسن قد استولى على ما في بيت مال الكوفة كله قبل أن يبرحها إلى المدينة بعقب مبايعته معاوية.. وبلغ ما استولى عليه الحسن بغير حق خمسة آلاف ألف درهم.. غير الطرائف والأقمشة والنفائس والأسلحة.. أما عبد الله بن عباس - ابن عم أبي تراب وواليه على البصرة - فقد نزح بيت مال البصرة كله، فتركه قاعاً صفصفاً ليس فيه درهم ولا دانق ينتفع به فقراء المسلمين، وبلغ ما اغتصبه ستة آلاف ألف درهم، هرب بها إلى مكة، حتى إن أبا تراب غضب عليه وكتب إليه: «إنك تأكل حراماً، وتشرب حراماً»!

أما عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فإنه الآن من ندماء معاوية وخلصائه، وقد فرض له معاوية عطاء سنوياً ، ألف ألف درهم، وهو أكبر عطاء فرضه خليفة لأحد من الناس منذ عهد أبي بكر وعمر إلى

يومنا هذا، ولا أعرف أموياً ولا هاشمياً يقبض من بيت مال الدولة في دمشق هذا المبلغ الجسيم، إلا هذا الرجل، عبد الله بن جعفر، ابن عم علي بن أبي طالب!

تابع المغيرة كلامي صامتاً ولم يعلق عليه، فقلت أزيده بياناً.. وأسأله:

ـ يا مغيرة.. من الذي أكل أموال المسلمين.. أنا أم هؤلاء الذين زعموا أنهم إنما قاتلوا معاوية حفاظاً على أموال المسلمين ومصالحهم؟!

لزم المغيرة الصمت فاستفزني فقلت:

ـ إن أقواماً من العرب المساكين يركبون الفلوات الحارقة حتى يقطع العطش أعناقهم، بحثاً عن عطاء قليل عند هذا الأمير وذاك، بينما ينعم بنو هاشم في الظل والماء، ويرتعون في الذهب والفضة، ثم يتغامزون على رجل شريف مثلي بالباطل، وهم أحق بالسكوت حياء من الحق لو كانوا يعرفونه!

ظل المغيرة صامتاً لا يعلق على كلامي بشيء! ما الذي يخشاه هذا الرجل من آل أبي تراب وشيعته؟!

اليوم الثاني:

ليس في الدولة كلها أمير يعرف عن البصرة ما أعرفه عنها، فقد كنت في الرعيل الأول من سكانها في عهد عمر بن الخطاب، وهأنذا أعود إليها نائباً عن أخي أمير المؤمنين معاوية أعز الله نصره!

قررت أن أستعين بعدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أمثال أنس بن مالك خادم رسول الله، وأسندت إلى أحدهم منصب القضاء، وبعثت آخرين منهم أمراء على الأمصار التي تشملها ولايتي الممتدة من حدود الهند إلى حدود ولاية الكوفة..

وقد فسدت البصرة في السنوات القلائل الماضية فساداً ذريعاً، فديوان الإمارة قد انفرط عقده، وجنود الولاية تفرقوا، وخراجها

انكسر.. والسكان قد انغمسوا في الفسق، وقطعوا الطرقات، وتقاتلوا وتشاتموا، واجترأوا على الدولة.. فاتخذت حرسا لي يحف بي حيث سرت، قوامه خمسمائة جندي بأيديهم الرماح والسيوف، يمشون بها بين يدي، ويدخلون معي بها إلى المسجد..

هالني ما رأيت في أرجاء الولاية من المواخير وانتهاك الحرمات واختطاف النساء، وفواحش أخرى كثيرة، ظاهرة وباطنة، غصت بها الولاية منذ أواخر دولة أبي تراب!

جمعت أربعة آلاف شرطي وأمرتهم أن يلاحقوا قطاع الطرق بلا هوادة، فلا يتركوهم إلا قتلى، وقلت لرئيس الشرطة:

- اقتل كل من تلقاه في طريقك من هؤلاء المفسدين في الأرض، حتى تأمن الطرق من البصرة إلى خراسان وسجستان، ولا يجرؤ أحد أن يلتقط درهما سقط من صاحبه في الطريق.. ومن التقط من الطريق ولم يرده إلى صاحبه، فاقطع يده!

ثم إنني ناديت بالصلاة جامعة في مسجد البصرة، وقمت خطيباً فنددت بالفساد، وأعلنت أني قد حرمت على نفسي الطعام الطيب والشراب البارد حتى أسوي هذه البلاد بالأرض هدماً وإحراقاً، ما لم تستقم على الجادة، وأنذرتهم قائلاً:

- أقسم بالله لآخذن المقيم بالظاعن، والمقبل بالمدبر، والصحيح بالسقيم، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول: انج سعد فقد هلك سعيد!

ثم أعلنت حظر التجوال ليلاً في كل مكان من البصرة وأرباضها، وأقسمت لأقتلن كل من يمسكه الجند ليلاً في طرقات المدينة مهما تكن معاذيره!

وأحدثت لكل ذنب عقوبة، فمن أغرق أحداً في النهر، أغرقته، ومن أشعل النار في زرع أو دار، أحرقته بالنار، ومن نقب جدار

بيت ليسرقه، نقبت بالرمح صدره وقلبه، ومن نبش قبراً ليسرق ما فيه، دفنته فيه حياً..

وقلت في خطبتي:

ـ وأيم الله ـ أيها الناس ـ إن لي فيكم لصرعى كثيرين، فيلحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي!

قال لي أحد الشيوخ:

ـ أيها الأمير.. إن الله تعالى قد واعدنا خيراً مما واعدتنا من أخذك البرىء بذنب المسيء، فإنه لا تزر وازرة وزر أخرى، وليس الخوض في الدماء من حسن التدبير في سياسة الدولة!

قلت للشيخ:

ـ إنني لا أجد إلى العدل والحق سبيلاً حتى أخوض الباطل خوضاً، ولا أجد إلى حقن الدماء سبيلاً حتى أسفك الدماء سفكاً! تلك هي سياستي ولن أحيد عنها أبداً..

اليوم الثالث:

الحمد لله على ما أثمرته سياستي، فقد أقمت بها أمر السلطان، وأكدت الملك والدولة، وألزمت الناس الطاعة. وأسللت السيف على الرقاب، وضاعفت العقوبة، وأخذت الناس بالظنة، وعاقبتهم على الشبهة، فخافوا خوفاً شديداً، وتاب الفساق، واختفى اللصوص المجرمون، حتى صارت المرأة تبيت في منزلها وحدها فلا تغلق عليها باباً لفرط شعورها بالأمان!

لقد سست الناس سياسة لم يروا لها مثيلاً، فهابوني هيبة لم يهابوها أحداً من الولاة قبلي، وشعر بالمذلة من كان يشعر بالكبرياء، وفاء إلى الطاعة من كان يجنح إلى المعصية، فاستقرت الدولة لمعاوية، وخمدت جمرة الهاشميين، وقبع الحسن والحسين

في مدينة الرسول تحت حكم واليها مروان بن الحكم، وكان أهل المدينة قد كادوا يقتلونه مع عثمان بن عفان منذ نحو عشر سنوات!!

وعادت الفتوح كما كانت قبل الفتنة التي أثارها أبو تراب على عثمان بن عفان، ثم على معاوية، وأرسلت من ولايتي جيشاً غزا طخارستان وغنم غنائم كثيرة، وبعث غيري من الولاة بعوثاً تحارب في أرض الروم، وتوالت الحملات صيفاً وشتاءً، حتى أن يزيد بن معاوية غزا الروم بجيش كثيف فبلغ أسوار القسطنطينية، وكان في صحبته عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن عباس، وأبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله والقرشيين وأشراف العرب..

اليوم الرابع:

وقع في الكوفة طاعون جائح فهرب منها أميرها المغيرة بن شعبة، ولبث مدة خائفاً يترقب بعيداً عنها، ثم علم بانقشاع الطاعون فعاد إليها فأصابه الطاعون فمات!

كان المغيرة ـ رحمه الله ـ من دهاة العرب وإن مست سمعته تلك الحادثة التي أوشك عمر ابن الخطاب فيها أن يحكم عليه بالرجم!

ولقد جاهد المغيرة في العهد النبوي، وفقئت عينه في معركة اليرموك، فلعل الله أن يغفر له!

واليوم جاءني كتاب من معاوية يقلدني فيه ولاية الكوفة خلفاً للمغيرة، فاجتمعت لي ولايتا البصرة والكوفة، وهما العراق كله، ولم تجتمع هاتان الولايتان لأحد قبلي، فعزمت أن أقسم كل عام بينهما، فأقيم ستة أشهر في البصرة، ومثلها في الكوفة.

يحز في نفسي وأنا في هذا الملك العريض أنني ما زلت أسمع الناس يهمسون باسمي القديم «زياد بن سمية» ومنهم من يسميني: «زياد بن أبيه»! ويأبى القرشيون أن يعترفوا بنسبي حتى أن رجلاً طلب إلى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أن يكتب له توصية في حاجة له عندي يريد قضاءها، فكتب عبد الرحمن كتاباً يذكر فيه اسمي وحده، متجاهلاً اسم أبي الذي اعترف لي به أمير المؤمنين معاوية!

ملأني هذا الحادث غماً، حتى فرج الله كربتي بكتاب تلقيته من أم المؤمنين عائشة، رفعت فيه قدري، ونوهت باسمي مقروناً إلى اسم أبي، إذ كتبت تقول في أول الكتاب: «من عائشة أم المؤمنين إلى زياد بن أبي سفيان...».

سررت بهذا الكتاب أبلغ السرور، وأمرت الرجل الذي جاء به أن يقرأه على ملأ من الناس في المسجد حتى يتعالم أهل البصرة وأهل الكوفة وأشراف قريش في مكة والمدينة، أن أم المؤمنين عائشة لا تنكر نسبي، وأن رأيها فيه مطابق لرأي أمير المؤمنين.

على أنني ما زلت أحجم عن الحج، حتى لا أضطر إلى الاستئذان على أختي أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبي سفيان، فإنها قد تحجبني ولا تأذن لي، وقد تقول والناس يسمعون: «لست يا زياد ابن سمية بأخ لي»!..

ولو حدث ذلك، لصار بطن الأرض أحب إلى قلبي من ظهرها، ولما كانت ولايتي للعراق والعجم وخراسان تساوي جناح بعوضة!

٨

الفرسان والجلادون

اليوم الأول:

خرجت بعد صلاة الفجر إلى الصحراء وحيداً أرتاض وأفكر!..

سمعت صوتاً يأتي من بعيد، تحمل أصداؤه الواسعة لحناً يملأ الصحراء،روعة، كأنه حداء أو غناء يتطرب به صاحبه، ويوالي ترجيعه وترصيعه،ويرد بدايته إلى نهايته، استزادة من الطرب لنفسه ولمن يصحبه، إن كان يصحبه أحد.. فبدا لي ما سمعته من هذا الحداء أو الغناء الذي تتراكب نغماته في السمع، كأنه مزمار عفريت من الجن يهز الأفق، صاعداً نازلاً بين الفضاء والصحراء!..

كان الصوت يجلجل بتلاحينه مرتجزاً:

يا رب رب الأرض والعباد
إعلن زيادا، وبني زياد
كم قتلوا من مسلم عباد
جم الصلاة خاشع الفؤاد
يكابد الليل من السهاد

ارتاع قلبي من هذا الصوت في هذا الرجز، يستنزل اللعنة علي

وعلى أبنائي، فعدوت راجفاً راجعاً إلى الكوفة كأني أعتصم بها من العفريب الذي يزمر ويغني في الصحراء، فلو شاهدني أتباعي وجندي في تلك الساعة لظنوا بعقلي الظنون!..

آه!.. هذه هي الكوفة، تبدو هادئة، لكنها في الحقيقة تغلي كالقدر على النار!.. إن لم ينصفني أهل الكوفة من أنفسهم فلن يشفع لهم عندي أحد!..

سأبقى فيها ستة أشهر، تاركاً البصرة تحت إمرة أحد نوابي، حتى أعود إليها بعد هذه الأشهر الستة لأقضي فيها بدورها ستة أشهر أيضاً.. وهكذا أقطع العمر بين البصرة والكوفة، أعمل بلا كلل، إشفاقاً على الأمة، ونظراً لها، وإقامة للعدل فيها!..

ورحم الله صديقنا المغيرة بن شعبة والي الكوفة السابق، فلولا الطاعون الذي اغتاله لما أضاف أمير المؤمنين عمل الكوفة إلى عمل البصرة وجعلني على العملين!..

أواجه في الكوفة جماعة من عتاة شيعة أبي تراب، علي بن أبي طالب.. على رأسهم حجر بن عدى الذي شهد حروب علي، وبقي يضرم الولاء له ويعلنه حتى اليوم برغم مبايعته معاوية بعد سقوط دولة أبي تراب ثم دولة ابنه الحسن!..

وإن لي بحجر لصحبة قديمة في عهد أبي تراب، فما عرفته منذ تلك الأيام إلا أحمق مندفعاً أهوج، ليس له من رأيه ما يعصمه من الزلل، وقد قدمه أصحابه في الكوفة عليهم، لأنهم احتاجوا ـ وفيهم الحلماء والعقلاء ـ إلى سفاهته وسلاطة لسانه التي لا يملكون مثلها، فهو يسافه عنهم بلسانه، ويسمي سفاهته دفاعاً عن الحق!..

واعتاد حجر وأصحابه في عهد المغيرة بن شعبة أن يحصبوه

بالحصى وهو يخطب على منبر المسجد لاعناً أبا تراب كما ألعنه أنا وجميع الولاة في جميع الأمصار..

ويا طالما شتموا المغيرة وسخروا منه وأعلنوا الزراية به، فكان يلا ينهم ويزيد في عطائهم ولا يعاقبهم، إيثاراً للسلامة وحفظاً لذكرى صداقة كانت بينه وبين زعيمهم أبي تراب!..

ولحجر هذا تاريخ لا ينساه أمير المؤمنين معاوية، إذ كان قد عارض صلح الحسن بن علي مع أمير المؤمنين، وذهب إلى الحسين يحرضه على الحرب، قائلاً:

- .. ما هذا الذي فعله أخوك الحسن؟!.. لقد شريتم الذل بالعز، وقبلتم القليل وتركتم الكثيرا.. أطعني اليوم يا حسين ثم اعصني الدهر كله.. دع الحسن وما رأى من الصلح مع معاوية، واجمع إليك من الكوفة وغيرها ما شئت من الجنود وولني قيادتهم، فلا يشعر معاوية إلا ونحن نقارعه بالسيوف!..

ومن حسن الطالع أن الحسين لم ينخدع بدهان كلامه وقال له:

- يا حجر.. دع ذا عنك، فقد بايعنا وعاهدنا، ولا سبيل إلى نقض بيعتنا.. ووالله لو سرنا إلى معاوية بجيوش من الجبال والأشجار ما كان بد من انتصاره علينا وفوزه بالخلافة، فبهذا جرت المقادير!..

وكان حجر بن عدى وأصحابه في زمن المغيرة يجهرون بذم معاوية ومدح أبي تراب، فلما توليت أمر الكوفة دعوت حجراً فقلت له منذراً:

- يا ابن عدى، أراك ونفرا من شيعة أبي تراب تثرثرون عن أمير المؤمنين معاوية بكلام غث باطل.. فوالله ما تقطع كلمة أحدكم ذيل عنز جرباء، ولكني أقسمت لئن بلغتني بعد اليوم كلمة سوء منكم في أمير المؤمنين لأسفكن دم قائلها!..

بهت حجر لهذا الإنذار القاطع الذي لم يسمع مثله من قبل،

ولم يحر جواباً، فمضيت أعظه وأحذره وأنصحه ألا يجهر بالعصيان وأن يكف عن مخالفة السلطان، وأن يتجنب إغضابي، لأني لست ليناً ضعيفاً مثل المغيرة، ولن أترك الداء يشتد فيمتنع الدواء، بل أعاجله بما يقطعه ويحسمه!..

اليوم الثاني:

وقفت على المنبر ألقي خطبة الجمعة، فذكرت عثمان بن عفان ـ رحمه الله ـ فقرظته وبينت مناقبه وفضائله.. وذكرت علي بن أبي طالب فلعنته، ووعظت الناس فأسهبت، فقام حجر بن عدى وأصحابه فصاحوا: الصلاة!.. الصلاة!.. ثم حصبوني بالحصا!..

لم أوجه إليهم كلمة.. وكتبت إلى معاوية بما جرى، فبعث كتاباً عاجلاً يقول لي فيه: شد هؤلاء العصاة في الحديد، واحملهم إلينا!..

هرب حجر وأصحابه ولكني قبضت عليهم بعد خطوب، وشددت وثاقهم بالحديد، ووجهتهم إلى معاوية في دمشق مع مائة جندي يقودهم نخبة من رجالي، وأرسلت معهم صحيفة من ديوان الولاية تحتوي أسماء سبعين رجلاً من أهل الكوفة يشهدون بأن حجراً قد جمع إليه الجموع، وأظهر شتم أمير المؤمنين، ودعا إلى محاربته، وزعم أن الخلافة لا تصلح إلى في آل أبي طالب، وترحم على أبي تراب وتبرأ من عدوه، وخلع الطاعة، وفارق الجماعة، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء!..

وبعثت إلى أمير المؤمنين مع رئيس الجند كتاباً قلت فيه: «لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد بن أبي سفيان، أما بعد.. فإن طواغيت من هذه الترابية، ورأسهم حجر بن عدى، قد خالفوا أمير

المؤمنين، وفارقوا جماعة المسلمين، ونصبوا لنا الحرب فأظهرنا الله عليهم، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين»..

اليوم الثالث:

بعد عدة أسابيع قضوها في دمشق، عاد الجند الذين أرسلتهم في حادثة حجر بن عدى وأصحابه المارقين.. فحدثني أحد رؤساء هؤلاء الجند أن حجراً وأصحابه حين وصلوا إلى دمشق، تقدم قائد من قواد جيش الخلافة، ينتمي لقبيلة حجر بن عدى اليمانية، فقال لمعاوية:

ـ يا أمير المؤمنين.. دع لي ابن عمي حجراً، فإنه لن يعود إلى مخالفتك أبداً..

فقال معاوية لهذا القائد:

ـ إن ابن عمك هذا هو رأس القوم، وأخاف إن خليت سبيله أن يفسد علينا العراق كله فيضطرنا غداً أن نرسلك على رأس جيش لتخمد الفتنة هناك!..

قال القائد غاضباً:

ـ ما أنصفتني يا معاوية!.. قاتلت معك ابن عمك علي بن أبي طالب في «صفين» ولم أخذلك، ثم سألتك العفوعن ابن عمي فخذلتني وزعمت أنك تخاف العواقب!..

قلت لرئيس الجند الذي وقف بين يديَّ يحدثني بنبأ ما جرى لحجر وأصحابه بعد وصولهم إلى دمشق..

ـ فلماذا عفا أمير المؤمنين عن بعض أصحاب حجر وقد أبى أن يعفو عن حجر؟!

أجاب الرجل:

ـ لأن أقاربهم من الكبراء والوجهاء من رجال الدولة في دمشق، قاموا

شفعاء لهم عند أمير المؤمنين، ورأى أمير المؤمنين أن هؤلاء العصاة يمكن استتابتهم وردعهم عن العصيان..

قلت للرجل أستزيده من خبر حجر وأصحابه:

ـ وكيف قضى حجر بن عدى والآخرون نحبهم؟!

قال:

ـ إن أمير المؤمنين أمر الجلاوزة أن يعرضوا على حجر وأصحابه أن يتبرأوا من علي ويلعنوه، فإن فعلوا أطلقوا سراحهم وإلا قتلوهم.. وقد أبى حجر وأصحابه أن يتبرأوا من أبي تراب ويلعنوه، فحفر الجلاوزة لهم قبوراً وجاؤوهم بأكفانهم، فقال حجر:

ـ اللهم إن أهل الكوفة شهدوا علينا، وإن أهل الشام يقتلوننا!..

ثم التفت إلى الجلاوزة الجلادين قائلاً:

ـ أما والله لئن قتلتموني، إني لأول فارس من فرسان المسلمين وطئت قدماه هذه البقعة من أرض الشام ونبحته كلابها، حين جئناها فاتحين في عهد عمر بن الخطاب، وهي يومئذ يملكها الروم، فملكناها منهم!.. وإني لأول مسلم يقتله حاكم المسلمين صبراً فوق هذه الأرض التي قاتلت عليها مع أصحاب رسول الله قبل أن يسمع عنها معاوية شيئاً!..

فثار أحد الجلادين إلى حجر بالسيف يبرق في يده، فارتعد حجر قليلاً، فقال له الجلاد:

ـ زعمت أنك لا تجزع من الموت، فأنا أدعوك مرة أخرى، أن تبرأ من أبي تراب وتلعنه، فإن فعلت أطلقتك كما أمر أمير المؤمنين!..

قال حجر:

ـ ومالي لا أجزع وأنا أرى قبراً محفوراً، وكفناً منشوراً، وسيفاً مشهوراً، وإني والله ـ وإن جزعت من القتل ـ لا أقول ما يسخط الله تعالى!

فقتله الجلواز، وأقبل الجلاوزة يقتلون أصحاب حجر، واحداً واحداً، فلما بقي منهم إثنان قالا للجلاوزة:

ـ نحن نقول في علي بن أبي طالب مثل الذي تريدوننا أن نقوله، فلا تقتلونا!..

فبعث الجلادون بالرجلين إلى أمير المؤمنين!..

«وهنا صرفت رئيس الجند، وأمرته أن يوافيني في اليوم التالي ليروي لي بقية القصة»..

اليوم الرابع:

جاء رئيس الجند ليروي لي بقية الحكاية عن مصرع حجر وأصحابه.. قال:

ـ لما دخل الرجلان على أمير المؤمنين، قال أحدهما: الله.. الله يا معاوية، فإنك منقول من هذه الدار الفانية إلى الدار الدائمة، ثم مسؤول عما أردت بقتلنا، وفيم سفكت دماءنا!..

قال له أمير المؤمنين متجاهلاً هذه العظة المتداولة:

ـ يا هذا.. ما تقول في علي؟

قال الرجل متخابثاً:

ـ أقول فيه قولك!

فشدد عليه أمير المؤمنين الخناق:

ـ أتبرأ إذن من دين علي الذي كان يدين الله به؟!..

فسكت الرجل واجماً متحيراً، لا يدري كيف يبرأ إلى معاوية من دين علي الذي كان يدين الله به!..

فقام رجل في المجلس فقال:

ـ يا أمير المؤمنين.. هب لي دم هذا الرجل فإنه من أبناء عمومتي!..

فوهبه له إلا أنه أمر بنفيه من الكوفة فلا يدخلها أبداً..

ثم التفت أميرالمؤمنين إلى الرجل الآخر فسأله:

ـ ما قولك في علي؟

قال الرجل في مداراة ومداجاة:

ـ دعني ولا تسألني فإنه خير لك!..

قال أمير المؤمنين مصمماً على سبر غوره:

ـ والله لا أدعك حتى تخبرني عن رأيك فيه!..

قال الرجل وكأنه نسي أنه مسفوك الدم حتماً إن لم يصانع أمير المؤمنين ويخضع له:

ـ أشهد أنه كان من الذاكرين لله كثيراً، ومن الآمرين بالحق، والعارفين بالقسط، والعافين عن الناس!..

قال معاوية:

ـ فما قولك في عثمان بن عفان؟!..

أجاب الرجل بصراحة قاتلة:

ـ هو أول من فتح باب الظلم، وأوصد أبواب الحق!..

صاح معاوية غاضباً محنقاً:

ـ يا هذا.. إنك قتلت نفسك بما قلت.

أجاب الرجل متحدياً:

ـ بل إياك قتلت يا معاوية بكلامي!..

هكذا انتهى حجر وأصحابه تحت شفرات السيوف، إلا هذا المتطاول على أمير المؤمنين، فقد أعاده أمير المؤمنين مع جنودي إلى الكوفة لأنه أخبث من بعثتهم إليه.. وقد أمرني أمير المؤمنين أن أعاقبه العقوبة التي هو أهلها، وأن أقتله شر قتلة!..

دعوت بهذا الأحمق الشرس، فجيء به مكتوفاً بالحديد، هزيلاً مما كابده في الطريق من دمشق إلى الكوفة.. فكرت في العقوبة التي أنزلها به جزاء اجترائه على أميرالمؤمنين.. لم يطل تفكيري!.. أرسلته إلى الصحراء، وقلت للجند: احفروا له هناك قبراً عميقاً وضعوه فيه وهو حي، ثم أهيلوا عليه الرمال حتى تصير فوقه مثل التل، فلا يلفظ أنفاسه إلا مطموراً فيها!..

ويا تعسا للصحراء، وللمطمورين في رمالها، وللصائتين فيها بحدائهم أو غنائهم ليلاً أو نهاراً!..

يوميات عبيد الله بن مرجانة

١

الأمير الصغير

اليوم الأول:

العبء يثقل كاهلي بعد وفاة والدي ـ رحمه الله ـ مع وجود بضعة عشر أخاً وأختاً لي تركهم أمانة في عنقي، فضلاً عن زوجاته وجواريه...

لم يكن والدي مزواجاً مطلاقاً، ولا محباً لاقتناء الجواري، إلا قليلاً، وهو بالقياس إلى أمراء الدولة الأموية وسادات قريش، يعتبر من الزاهدين في النساء، بل في الدنيا بأسرها إلا ما تعلق منها بشؤون الدولة والسلطان، فقد كانت هذه الشؤون متعته الكبرى...

أنجبني أبي من جارية له فارسية الأصل، اسمها «مرجانة».. فسماني الناس: «ابن مرجانة» كما سموا أبي قديماً: «ابن سمية» نسبة إلى والدته ـ جدتي ـ «سمية» ـ رحمها الله ـ وكانت مثل والدتي جارية فارسية!..

الناس يتنفسون الصعداء بعد موت أبي ويتهامسون مستبشرين: الحمد لله الذي أهلك الطاغية زياد بن سمية، دعي بني أمية!..

وما كان أبي ـ علم الله ـ طاغية، ولكنه كان يعنف بالناس لأن الدولة في عهده كانت ناشئة والناس يعارضونها، فأراد أبي أن يكبح جماحهم، ويروض اختلالهم، ويستل خيانة الخائنين من أحناء أضلاعهم، ويستخرج بسيفه ما يخامر سويداوات قلوبهم من النفاق والشقاق!

ولو لم يعنف هكذا بالناس، ويطارد أهل الشقاق والنفاق، لما قامت دولة معاوية بن أبي سفيان، ولما جلس بنو أمية على سرر الإمارة في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق وخراسان!..

وبسيف أبي وتدبيره، وحزمه وعزمه، أسلس أنصار علي بن أبي طالب قيادهم، فاندثرت أحدوثته التي أزعج بها العرب والمسلمين بضع سنين!

لقد عاش أبي شطر عمره موالياً لعلي بن أبي طالب، ثم هداه الله إلى محبة معاوية بن أبي سفيان فصار أخاً له، وانقلب اسمه من زياد بن سمية إلى زياد بن أبي سفيان، صاعداً في النسب القرشي الصميم إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، جد الأمويين والهاشميين!..

فبعبقريته استحق أبي هذا النسب الشريف، بعد أن كان الناس ينسبونه إلى أمه الجارية الفارسية، أو إلى أبيه العبد الرومي، فيما زعموا!..

ولكن أبي لم يسلم من حسد الناس قط، فلبثوا يسمونه ـ سراً ـ زياد بن سمية، أو زياد ابن أبيه، ومن أراد منهم توقيره قال: زياد الأمير!..

أما اسمه الذي استحدثه له وأقره أمير المؤمنين، وهو «زياد بن أبي سفيان» فلم يكن يخاطبه به إلا رجال الديوان في الكوفة

والبصرة، ولم أره مكتوباً إلا في الرسائل بينه وبين الخليفة والأمراء، أو أصحاب الحاجات من الرعية!..

وتلك هي العلة التي قضت على أبي قبل علة الطاعون، ولو لم يمت بالطاعون لمات كمداً بتلك العلة!..

في أول هذا العام ـ الثالث والخمسين للهجرة ـ نزل الطاعون بالبصرة فقتل خلقاً كثيراً، فغادرها أبي إلى مكة، وكتب إلى أمير المؤمنين أنه قد فرغ من ضبط أحوال البصرة والكوفة وسائر العراق، وأن وقته يتسع لضبط ولايات أخرى مع هاتين الولايتين، واقترح على أمير المؤمنين أن يضيف إلى عمله فيهما ولاية الحجاز!..

كان والدي يشتهي أن يصبح أميراً على المهاجرين والأنصار وسادات قريش في مكة والمدينة وسائر بلاد الحجاز، فإن قريشاً لم تعترف قط بانتساب أبي إلى شخيها القديم أبي سفيان بن حرب والد معاوية، مع أن معاوية نفسه اعترف بهذا النسب وأعلنه للناس كافة..

اليوم الثاني:

جاءت نهاية أبي سريعة فاجعة، فلم يلبث أياماً في الكوفة التي وردها فراراً من طاعون البصرة، حتى ظهرت على إصبعه الوسطى طاعونة صغيرة، يبدو أن العدوى مسته بها في البصرة قبل أن يغادرها ولم تكبر على إصبعه وتوسعه ألماً إلا في الكوفة!..

استدعاني أبي وهمس لي وهو خاشع دامع:

ـ يا بني.. قد أصابني ما كان قد أصاب المغيرة بن شعبة والي الكوفة السابق من وباء الطاعون، وما أراني إلا لاحقاً به، فأستودعك الله، وأوصيك بإخوتك وأخواتك، وأمك وأمهات إخوتك جميعاً!.. وإذا أنا مت فادفني في مقابر قريش بالكوفة، فإنني منهم، وأنا ابن أبي

سفيان، ولن تجرؤ قريش على منعك من دفني في مقابرها بعد أن شهد بنسبي أمير المؤمنين..

قلت باكياً:

- بل يشفيك الله يا أبت.. ويمد في عمرك، وما أرى بك بأساً، فما هذا إلا دمل صغير في إصبعك!..

قال أبي وقد فاض به حزنه:

- وددت أنه دمل صغير، ولكنه الطاعون الذي قتل المغيرة بن شعبة، وقد عزمت أن أقطع يدي كلها، حسماً لهذا الداء الوبيل!..

جزعت واعترضت على أبي، فلم يلتفت إلى جزعي واعتراضي، واستدعى قاضي الولاية فاستشاره فيما عزم عليه من قطع اليد كلها درءاً لانتشار الطاعون في جسده كله، فقال له القاضي مواسياً ناصحاً:

- أصلح الله الأمير.. أخشى أن يكون الأجل قد دنا، فتلقى الله عز وجل وأنت مقطوع اليد!.. أو أن يكون في عمرك بقية،فإذا قطعت يدك عشت أجذم، فيعيرك الناس ويعيرون أولادك بذلك..

فعدل أبي عن قطع يده، واستسلم لقضاء الله، وقال لي:

- يا بني.. إذا دفنتني بعد موتي وفرغت من أمري، فاقصد إلى عمك أميرالمؤمنين في دمشق، ولا تخرج من عنده حتى يوليك الكوفة والبصرة أو خراسان!..

لبث أبي يصارع الطاعون، والطاعون يمتد بضراوة من إصبعه إلى سائر جسده، فانكسرت عيناه وغارتا، وأخذ يتمتم كأنه يناجي نفسه:

- يا زياد.. غفلت عن آخرتك وعشت في غرور من دنياك، ولو أطعت الله يا زياد بن سمية كما أطعت أخاك معاوية بن أبي سفيان ما عذبك الله في الدنيا بالطاعون، ولا أدخلك النار في الآخرة!..

اليوم الثالث:

اجتمع حولي إخوتي: عبد الرحمن وعثمان وعباد وسلم ويزيد والربيع وقالوا لي:

ـ قد كان والدنا ـ رحمه الله ـ أوصاك بالمضي إلى دمشق أملاً في أن يرفعك أمير المؤمنين إلى رتبة الإمارة، ولكننا نراك قاعداً، والناس يقولون: قد بدد الله شمل بني زياد، وأدال دولتهم!..

انتفضت غضباً ووثبت قائلاً:

ـ بل بدد الله شمل من زعم ذلك أو تمناه.. وأنا صائر كم فوري إلى دمشق، ولن أعود إلا أميراً إن شاء الله!..

وافيت دمشق ذات مساء.. استقبلني عمي أمير المؤمنين معاوية.. قال لي بعد أن عزاني وواساني:

ـ يا ابن أخي.. لو كان أبوك استخلفك على الكوفة أو البصرة لأقررتك على إحداهما أو عليهما معاً..

قلت مستعطفاً:

ـ يا أمير المؤمنين.. لو خرجت من هنا ولم تولني شيئاً لخرجت الولاية من بني أخيك زياد إلى الأبد!..

رق لي أمير المؤمنين، وعطفته نحوي ذكرى أبي، فبادر فقال لي:

ـ قد وليتك خراسان.. فأوصيك وصية القرابة عندي: لا تبيعن كثيراً بقليل، ولا تطمعن أحداً في غير حقه!..

خرجت من قصر الخلافة وعلى رأسي عمامة كبيرة، وجاء شاعر فأمسك بزمام فرسي وأنشدني مرثية من الرجز في أبي ـ رحمه الله ـ يقول فيها:

يوم الثلاثاء الذي كان مضى

قضى فيه المليك ما قضى
كان زياد جبلاً صعب الذرى
لا يبعد الله زياداً إذ ثوى

هاجت هذه الكلمات أحزاني فبكيت حتى سقطت عمامتي عن رأسي، وأشرت إلى الشاعر أن يسكت، وتضاعف إحساسي بفجيعتي في أبي يرحمه الله!..

اليوم الرابع:

نقلني أمير المؤمنين من خراسان إلى البصرة فأنا أصغر ولاة البصرة سناً منذ تمصيرها في عهد عمر بن الخطاب، وقد تولاها قبلي شيوخ من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كأبي موسى الأشعري والمغيرة بن شعبة، ثم تولاها أبي... وهأنذا أعود إلى البصرة لأعيد فيها سيرته، وأبني مجداً طارفاً إلى مجده التالد، وأبين أن سني الصغيرة لا تعوقني عن العزائم الكبيرة..

ولكن الناس لا يسكتون، وهم لا يفتأون يتناقلون قصة ولايتي للبصرة.. فقد كان عليها وال من أصحاب أمير المؤمنين، وقف يوماً يخطب على منبر المسجد فحصبه رجل بالحصا في وجهه، فأمر الوالي بقطع يده، فقصد قوم الرجل إلى أمير المؤمنين واشتكوا مبالغة الوالي في العقوبة، وبينوا أن العدل لم يكن يقتضي قطع يد صاحبهم، فلا بد من قطع يد الوالي الظالم، عملاً بمبدأ: العين بالعين والسن بالسن!..

قال لهم أمير المؤمنين:

- أما قطع يد الوالي فلا يصح في سياسة الدولة، ولا سبيل من ذلك، فإنه يسقط هيبة الولاة، ويجرىء الرعية عليهم، ولكن - إذا شئتم - أعطيتكم دية صاحبكم عن يده المقطوعة!..

رضي القوم بالدية لصاحبهم، فوداه أمير المؤمنين من بيت المال، وعزل والي البصرة، وقال للقوم:

ـ قد وليت عليكم عبيد الله بن زياد، فهو ابن أخي، وقد علمتم حسن بلاء أبيه في ولاتكم!..

هكذا صرت والياً على البصرة مكان أبي، ولكن أبي ـ رحمه الله ـ كان قد تولاها وقد جاوز سن الأربعين، أما أنا فتوليتها في سن الخامسة والعشرين!..

اليوم الخامس:

اشتد معاوية في طلب بيعة الناس لابنه يزيد ولياً لعهده وخليفة من بعده..

ومعاوية الآن في الخامسة والسبعين من عمره، وقد زادت مدته في الخلافة على خمسة عشر عاماً حتى يوم الناس هذا، ولعل مدته تمتد سنين أخرى، ولكنه ضعف عن الحركة حتى أنه يخطب على المنبر جالساً خافت الصوت، ويسلم على الناس قاعداً معتذراً إليهم ببدانته وعجزه عن الوقوف!..

وكان معاوية لما أراد أن يبايع ليزيد منذ سنوات قد كتب إلى أبي يستشيره في هذا الأمر متخوفاً نفور الناس منه، لأن يزيد صاحب لهو وصيد وشراب واشتغال مع النساء والسوقة!..

فلم يشأ أبي أن يصارح معاوية بأن يزيد لا يصلح للخلافة، وكتب إليه ينصحه بالتؤدة وأن يأمر يزيد بالكف عما ينقم الناس من هفواته..

كان معاوية لا يخالف آراء أبي، ثقة بإخلاصه وذكائه وحنكته ودهائه، فطوى معاوية ما كان يفكر فيه من إعلان البيعة ليزيد،

حتى توفى أبي فأعلن هذه البيعة!..

جمعت وفداً من وجهاء البصرة وسرت بهم إلى دمشق تأييداً لبيعة يزيد، فاستقبلنا أمير المؤمنين وأخذ منا البيعة لابنه، وقال لنا متبسطاً كأنه يزكى ابنه وحقه في الخلافة:

ـ إني قد سألت يزيد عن السياسة التي يعتزم انتهاجها، فقال: سياسة عمر بن الخطاب، فقلت له؛ هيهات يا بني.. لقد حاولت أنا سياسة عثمان بن عفان فلم أستطع، فكيف بسياسة عمر؟!..

قال رجل من الوفد:

ـ يا أمير المؤمنين، الدنيا تغيرت، والناس ينتقلون من حال إلى حال، ولا سبيل لرد الماضي، وقد أحسن أمير المؤمنين إلى الناس بسياسته..

وفوجئت برجل من الوفد لم أكن تنبهت إلى جهله وحمقه من قبل، يقف فيقول لأمير المؤمنين:

ـ يا أمير المؤمنين.. أرى إسرافاً في مال الله على أناس، وتقتيراً على آخرين...

قطعه معاوية محتداً:

ـ أنا خليفة الله، وما أخذت من مال الله فهو لي، وما أعطيته للناس فهو فضل مني!.. ولي بعثمان أسوة، إذ قال سآخذ من بيت المال ما أريد برغم أنف من يعترض!..

قال الرجل خافت الصوت خائفاً:

ـ قد كان عمر ـ رحمه الله ـ يرى أن حقه في المال لا يزيد على حق رجل من أوساط المسلمين!..

انتفضت قائماً فصرخت في الرجل الأحمق!..

ـ مه!.. لا تجادل أمير المؤمنين!..

وانفض المجلس!.....

٢

عقدة الخليفة الجديد

اليوم الأول:

إخوتي الكثيرون، يريدون كل منهم أن يصبح أميراً على إحدى ولايات الخلافة الإسلامية، كما كان أبوهم والياً، وكما أصبحت أنا من بعده والياً كذلك!..

وأكثرهم تطلعاً إلى الإمارة أخي عبد الرحمن، وقد لبث ينتظر أن يخصه عمنا أميرالمؤمنين معاوية بولاية كبيرة أو صغيرة، وامتد انتظاره سنوات، حتى صرنا الآن في سنة تسع وخمسين للهجرة، وفاض بعبد الرحمن الشوق إلى الإمارة، فطرق باب أمير المؤمنين في دمشق، وقال له متلطفاً:

- يا أمير المؤمنين، أما لنا حق في هذه الولايات الواسعة؟!..

قال معاوية في سماحة وعطف:

- بلى!.. إن لك لحقاً يا بني!..

قال أخي عبد الرحمن وقد أوشك تلطفه أن يكون إذلالاً:

- فماذا توليني منها يا أمير المؤمنين حفظك الله؟!..

تفكر معاوية لحظة ثم قال:

- يا ابن أخي.. كل الأعمال في أيدي ولاتنا المخلصين.. في الكوفة النعمان بن بشير الأنصاري وهو رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي البصرة وكرمان وخراسان أخوك عبيد الله ابن زياد، وفي سجستان أخوك عباد بن زياد، فهل أقتطع لك من عمل أخيك عبيد الله شيئاً تتولاه؟!..

قال عبد الرحمن في نبرة طمع:

- نعم، يا أمير المؤمنين، فإن عمله واسع يحتمل الشركة!..

- لم يتردد أمير المؤمنين، فدعا بدواة وقرطاس، وكتب لأخي عهداً بولاية خراسان، وأن يكون عملي مقصوراً على ولاية البصرة وما يليها من نواحي العراق وكرمان..

إن أخي عبد الرحمن ليس من رجال الحرب، وإن كان من رجال القلم، وإنما ينجح في حكم خراسان من يغزو كل عام ويضم إلى أرض الدولة أرضاً جديدة، ولا أظن أخي يستطيع أن يغزو طيلة ولايته ولو غزوة واحدة!..

وقبل تجربة أخي عبد الرحمن في خراسان، كان لأخي عباد تجربة في سجستان، فغزا الترك ولكنه لم يوفق، وأصاب جند المسلمين ضيق شديد، وجاعت خيولهم ودوابهم لقلة الأعلاف فهجاه شاعر يدعى ابن مفرغ كان من الغزاة قائلاً:

ألا ليت اللحى عادت حشيشا ... فنطعمها خيول المسلمينا

وإنما أراد الشاعر لحية أخي عباد دون سواه، لأن لحيته عظيمة يكاد وجهه يختفي فيها، فانتهى هذا الشعر إلى عباد وقال له خلصاؤه: ما أراد هذا الشاعر غيرك من ذوي اللحى، وقد هجاك وسخر بك أشد السخر وإن تركته بلا عقاب استخف بك العسكر، واستهانت بك الرعية!..

اليوم الثاني:

وفدت على أمير المؤمنين في دمشق، أستطلع أخبار الدولة، فقدعلمت أنه مريض، وأن خطوباً جساماً ربما تقع، فلما قضيت واجب التحية، قال لي أمير المؤمنين:

ـ ما هذا الشعر الذي يقال إن ابن المفرغ يهجو به أخاك عبادا؟!..

قلت:

ـ يا أمير المؤمنين، هل تأذن لي في قتل هذا الشاعر السليط اللسان؟!..

رفض أمير المؤمنين أن يأذن لي بقتله، وقال لي: أدبه أدباً لا يبلغ حد القتل!..

وجيء بالشاعر إلى قصر أمير المؤمنين، مقبوضاً عليه من مكمنه الذي كان قد لجأ إليه في البصرة، فلما وقف بين يدي أمير المؤمنين، قال متباكياً:

ـ يا أمير المؤمنين، أستجير بك من عبيد الله وأخيه عباد، فقد سقاني عمال عبيد الله دواء مسهلاً وأركبوني حماراً فجعل يطوف بي في الأسواق وأنا أسلح في ثيابي مما أحدثه في إمعائي ذلك الدواء المسهل، وليس يجوز أن يلحق هذا العقاب بمسلم في غير ذنب ولا جريرة!..

فأوشك معاوية أن يضحك برغم ضعفه وعجزه عن الضحك، وقد ساءت صحته حتى ليشفق عليه من يراه!.. ثم قال للشاعر:

ـ وكيف لا يعاقبونك وأنت القائل:

الا أبلغ معاوية بن حرب
مغلغلة من الرجل اليماني
اتغضب أن يقال أبوك عف
وترضى أن يقال: أبوك زاني
فأشهد أن رحمك من زياد
كرحم الفيل من ولد الأتان

لقد هجوتني أيها الخبيث وهجوت أبي، وهجوت أخي زياد بن أبي سفيان، وهجوت بني زياد، وأنكرت نسبهم، فكيف لا يعاقبونك؟!..

قال الشاعر مستعطفاً:

- لا، والذي عظَّم أمير المؤمنين ما قلت هذا، ولكن قائلاً نحلني إياه ليؤذيني!..

قال أمير المؤمنين:

- فإنك هجوت زياداً وبني زياد بأشعار أخرى كثيرة، ولكننا نعفو عنك، فانطلق وانزل في أي أرض شئت، ولا تعد إلى شيء من هذا اللغو الذميم، تنل عفو عبيد الله وعطاءه..

اليوم الثالث:

بارحت دمشق عائداً إلى البصرة، وفي خيالي صورة أمير المؤمنين المريض المدنف الذي يتوقع الموت، ويتوقعه له كل من يحف بسريره من قومه وأتباعه:

لقد رأيت أمير المؤمنين وهو في مرضته هذه التي أيأست الأطباء، يدني وجهه من أذن ابنه يزيد، ليسمعه بصوته الخافت المرتعش وصيته الأخيرة:

- يا بني، إنني قد وطأت لك الأشياء، وذللت لك الأعداء، وأخضعت لك أعناق العرب!..

ثم قال لمن حوله وصوته يزداد خفوتاً وارتعاشاً:

- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد كساني قميصاً فحفظته جديداً لم ألمسه إلا مرة واحدة، وقلم أظفاره يوماً فأخذت قلامته فجعلتها في قارورة.. فإذا مت فألبسوني ذلك القميص، وقطعوا تلك

القلامة واسحقوها وذروها في عيني وفي فمي، فعسى أن يرحمني الله ببركتها!..

ثم أغمي عليه، فلما أفاق قال لمن حضره من أهله وقادة جنده ورجال مملكته، وعيناه تدمعان:

ـ اتقوا الله عز وجل، فإن الله سبحانه يقي من اتقاه!..

ثم قال لابنه يزيد في همسة أخيرة:

ـ أوصي بنصف مالي الخاص أن يرد إلى بيت مال المسلمين، فإن عمر بن الخطاب كان يرد نصف أموال أمرائه إلى بيت المال ولو جاءت من حلال!..

اليوم الرابع:

قالت لي والدتي السيدة مرجانة وقد استقر بي المقام في قصري بالبصرة وقصصت عليها أنباء رحلتي:

ـ يا عبيد الله.. إن أمير المؤمنين معاوية يرعى فيك وفي إخوتك، حق أبيكم زياد رحمه الله، وأخشى أن يخلفه ابنه يزيد فلا يرى فيك وفي إخوتك إلا ما يراه في الأمراء والولاة الآخرين الذين تعج بهم دولته، من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، وإني أعرفه خفيفاً طياشاً لا صبر له على تبعات السلطان وأعباء الدولة، وأخشى إن هو تولى الخلافة أن يرهقكم من أمركم عسراً ويستعين بكم فيما يضر الناس!..

قلت لها:

ـ يا أماه.. لا تظلمي يزيد بن معاوية كما يظلمه أعداؤه وحساده من بني هاشم وبني أمية وغيرهم، فوالله إنني لأرجو منه خيراً لنا وللناس أجمعين!..

ما أتممت كلمتي هذه حتى سمعت ضجة في القصر، ودخل أحد رجال الأخبار على عجل، فقال:

ـ أصلح الله الأمير.. قد ورد إلى الديوان نبأ عاجل من دمشق!..

حدست النبأ، فقلت للرجل جازعاً:

ـ أمات أمير المؤمنين؟!..

أطرق الرجل صامتاً ثم انصرف، وبقيت جالساً إلى أمي لا أدري ما أقول، حتى قطعت هي الصمت قائلة ببلاغتها التي عرفها أهلونا عنها برغم أصلها الفارسي:

ـ يا بني.. أحسن الله عزاءك في عمك أمير المؤمنين، وجعل عوضك منه في أمير المؤمنين فيما يستقبله من عظائم الأمور، فإن الله ينظر إلى عمل العاملين!..

انصرفت أمي والحزن في عينيها، فإن ولاءها لأمير المؤمنين معاوية ـ رحمه الله ـ امتداد وثيق لولاء أبي له، ولقد كان إحسان أمير المؤمنين إلى أبي إحساناً عظيماً، إذ جعل له مع الولاية الكبرى نسباً شريفاً في قريش، وفتح لنا نحن أبناء زياد أبواب الكرامة والسعادة، ولم يتركنا أمير المؤمنين إلا ونحن ولاة على الأمصار.. فأنا على البصرة وما يليها من أعمال العراق، وعلى كرمان في العجم وال أقمته نيابة عني!.. أما أخي عبد الرحمن فيتولى خراسان، وأما سجستان فيتولاها أخي عباد.. ثلاثة من بني زياد هم ملوك الشرق كله من العراق إلى تخوم السند وأقصى بلاد التركمان!..

جلست أفكر فيما عسى أن تأتي به الأيام بعد رحيل أمير المؤمنين!.. لقد بذل ـ رحمه الله ـ غاية جهده لتمهيد الأمر لابنه يزيد، حتى بايع له الناس بالخلافة طوعاً أو كرهاً، ولكن بقيت عقدة خطيرة مستعصية لم يتمكن ـ رحمه الله ـ من حلها قبل وفاته، وتحدث عنها إلى ابنه في كلمات وداعه الأخيرة:

ـ يا بني.. لا أخاف أن ينازعك الخلافة إلا أربعة نفر من قريش: الحسين بن علي، وعبد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن الزبير.. وإن أهل العراق لن يتركوا الحسين حتى يخرجوه لينازعك الخلافة، فإن خرج عليك وظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحماً ماسة، وحقاً عظيماً.. وإن هذه هي العقدة التي إن حللتها ظفرت بالسعادة في الدنيا والآخرة!..

لقد جلس يزيد بن معاوية على سرير الخلافة في دمشق، فماذا يضمر هؤلاء السادة القرشيون الأربعة من خير أو شر لهذا الجالس الجديد في دمشق على سرير الخلافة؟!.. وماذا يكون من أمر تلك العقدة التي عقدها الخليفة الراحل، وأناط حلها بالخليفة الجديد؟!..

٣

رجل الدولة

اليوم الأول:

عدت إلى البصرة قادماً من دمشق متعجلاً، فقد بلغني وأنا أشهد مأتم أمير المؤمنين معاوية هناك، أن شيعة الحسين بن علي قد أخذوا يتحركون بين الناس في البصرة، سراً وجهراً، يريدون أخذ البيعة بالخلافة للحسين، رافضين خلافة يزيد بن معاوية التي نودي بها في دمشق!..

وما أنا بالمحب المشفق على يزيد بن معاوية وخلافته التي ورثها عن أبيه.. فلو جازيته نكراناً بنكران لخلعت طاعته وبايعت الحسين، فإن يزيد بن معاوية لم يكد يتولى الخلافة بعد أبيه حتى تجهمني وقطع رحمي وشاور أصحابه في عزلي عن إمارة البصرة!..

لم أكن من أصحاب يزيد في عهد عمي أمير المؤمنين معاوية، بل كنت ـ وما زلت ـ أنكر عليه جهله بسياسة الدولة، وفراغه للهو والصيد والشعر والنساء.. وقد أعلنت رأيي فيه فأبغضني وقال: لئن توليت الخلافة لأعزلن ابن مرجانة!

فلما تولاها أشاح عني ولم يخاطبني في كبيرة ولا صغيرة من شؤون الدولة وشجونها وقد انتفض الناس في أطرافها ثائرين عليه، منادين بخلعه، مبايعين للحسين بن علي جهاراً نهاراً، في الحجاز والعراق وخراسان!..

مكثت في دمشق أياماً كثيرة أنتظر أن يستدعيني ويستشيرني ويمد رقعة ولايتي شرقاً وغرباً حتى أبسط له الأمن على الأطراف القريبة والبعيدة من دولته، فما زداد إلا تباعداً وتكبراً وتصعيراً لخده كأنني أستجديه، ولو لم يكن أحمق لما فاته أنني أنا الرجل الأوحد في دولته القادر أن يصد عنه غائلة الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير وسادة قريش الآخرين الذين تنفسوا الصعداء بموت معاوية، ووثب كل منهم يطلب الخلافة لنفسه!..

لقد تجاهلني يزيد واستدعى أخي سلم بن زياد، ليشاركه سمره وسهره وقال له ذات ليلة وهما بين المغنين والندامى:

ـ يا سلم.. ألا أوليك خراسان؟؟

فرد عليه أخي «سلم» كلمح البرق منتهزاً الفرصة:

ـ بلى يا أمير المؤمنين.. وسجستان أيضاً!..

فلم يبزغ فجر تلك الليلة حتى كان يزيد قد كتب له عهداً بولاية خراسان ومعها ولاية سجستان!..

وإن أخي سلم بن زياد لمن الأجواد الذين يضرب المثل بجودهم، وإنه لمن أعظم قادة الجيوش الأموية، ولكني أنا أكبر منه سناً، وأقدم ولاية، وأعظم تجربة، وأقدر على خدمة الدولة.. فكيف يتجاهلني هذا الخليفة الجديد، وما قامت خلافة بني أمية إلا على سيف أبي ـ رحمه الله ـ وسيفي أنا من بعده؟!..

اليوم الثاني:

هرب الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير من المدينة إلى مكة ولم يبايعا ليزيد مع أن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان - والي المدينة وابن عم الخليفة الجديد - قد اشتد عليهما في طلب البيعة!..

ولو كنت والياً على المدينة لما هرب مني الحسين وابن الزبير، ولأرغمتهما على البيعة ليزيد، ولكن ولاة يزيد ضعفاء عاجزون، وهونفسه أشد منهم ضعفاً وعجزاً.

وقد أبلغني رجال الأخبار في ديواني تفاصيل قصة الحسين وابن الزبير مع والي المدينة، وكيف خدعاه وأفلتا منه إلى مكة ولم يبايعا ليزيد..

فلم يكد نعي معاوية بن أبي سفيان يجيء إلى الوليد بن عتبة في المدينة حتى بادر فدعا الحسين إلى ديوان الإمارة وأمره أن يبايع ليزيد، وأقرأه كتاباً أرسله يزيد إليه بطلب البيعة، فقال الحسين لعتبة:

- رحم الله معاوية وعظم لك الأجر فيه.. أما البيعة فإذا أنت خرجت إلى أهل المدينة فدعوتهم للبيعة دعوتني معهم فكان أمري معهم أمراً واحداً.

فانخدع الوليد بن عتبة بكلام الحسين وقال له موافقاً:

- انصرف إذن على اسم الله حتى تأتينا غداً مع جماعة الناس..

فقال مروان بن الحكم - والي المدينة السابق وكان حاضراً هذا اللقاء - يحرض عتبة على الحسين:

- احبس هذا الرجل فلا يخرج من عندك حتى يبايع أو تضرب عنقه!..

فوثب الحسين غاضباً يرد على مروان:

ـ يا ابن الزرقاء.. أنت تقتلني أم هو؟! كذبت والله وأثمت!..

وخرج الحسين..

فلما رآه مروان قد ابتعد، قال للوليد بن عقبة مؤنباً:

ـ عصيتني يا وليد ولن تقتل هذا الرجل، فوالله لن تستطيع أن تأخذ منه البيعة ليزيد أبداً، وستجري الدماء بينكم وبينه!..

قال الوليد بن عتبة لمروان مستنكراً:

ـ أتحرضني على قتل الحسين، فتلك التي فيها هلاك ديني!.. والله ما أحب أن لي ما طلعت عليه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها وأني قتلت حسينا!..

قال مروان مستهزئاً:

ـ والله إنك لضعيف!..

فاغتاظ الوليد وقطع عليه قائلاً:

ـ سبحان الله!.. أأقتل حسيناً إن قال: لا أبايع؟؟.. فما أظن ـ والله ـ رجلاً يؤخذ بدم الحسين يوم القيامة إلا كان خفيف الميزان عند الله!..

اليوم الثالث:

طارت قصة فرار الحسين إلى المدينة إلى يزيد بن معاوية في دمشق، فجمع حاشيته وسألهم المشورة، فقال له سرجون الرومي خادم أبيه:

ـ إن الحسين لن يقيم بمكة، بل سيشد الرحال إلى الكوفة مستنصراً بشيعة أبيه، وسيجد فيها والياً ضعيفاً أو متصنعاً الضعف، هو النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي الذي يقول في خطب الصلاة: «لأن أكون من المستضعفين في طاعة الله خير من أن أكون من الأعزين في معصية الله».. ومثل هذا الرجل لا يصلح لمواجهة الحسين وشيعته..

فاعزله ـ أمير المؤمنين ـ وأرسل إلى الكوفة رجلاً قوياً غاشماً، ليس من الأنصار، ولا من أصحاب رسول الله!..

قال يزيد: ومن يكون ذلك الرجل يا سرجون؟!..

ـ هو ابن عمك عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان الذي تسميه «ابن مرجانة» والذي طويت عنه كشحاً، ولم تبسط له وجهك، مع كونه أقدر أمراء دولتك وأكثرهم جرأة وإخلاصاً.

فدعا يزيد بالدواة والقرطاس وكتب لي عهداً بإمارة الكوفة مع إمارة البصرة، فاجتمع لي ما كان قد اجتمع لوالدي ـ رحمه الله ـ من هاتين الإمارتين في سالف الزمان، وعلم القاصي والداني أن يزيد بن معاوية قد علمته الخطوب المتفاقمة أن كهفه الذي يأوي إليه هو عبيد الله بن زياد!..

اليوم الرابع:

استقبلت اليوم في ديوان ولايتي بالبصرة رسولاً جاء من دمشق بكتاب أمير المؤمنين يزيد بن معاوية.

إن أمير المؤمنين إذ جعلني على الكوفة مع البصرة، قد فوضني في القضاء على حركة الحسين بن علي وشيعته في العراق كله.. وقد جاء في كتابه: «.. إن شيعتنا من أهل الكوفة يخبروننا بأن مسلم بن عقيل ـ ابن عم الحسين ـ يجمع الجموع لشق عصا المسلمين.. فسر حين تقرأ كتابي هذا حتى تأتي أهل الكوفة فتطلب ابن عقيل فتوثقه أو تقتله أو تنفيه».

أمرت الجند والأتباع بالتهيؤ والمسير إلى الكوفة من الغد.

ونحن في ذلك، إذ جاءني أصحاب الأخبار في ديوان الولاية برجل أنفذه الحسين بن علي دسيسة إلى البصرة بكتاب إلى الأعيان

والكبراء فيها، يدعوهم إلى بيعته قائلاً لهم: «.. قد بعثت رسولي إليكم ـ يا أهل البصرة ـ بهذا الكتاب، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا وتطيعوا أمري أهدكم سبل الرشاد»!

كتم أعيان البصرة وكبراؤها عني هذا الكتاب، إلا واحداً منهم أخبرني به، فقبضت على الرجل الذي أرسله الحسين وضربت عنقه، ثم صعدت منبر مسجد البصرة، فحمدت الله وأثنيت عليه ثم قلت:

ـ «يا أهل البصرة.. إن أمير المؤمنين ولاني الكوفة، وأنا غاد إليها الغداة، وقد استخلفت عليكم أخي عثمان بن زياد، فإياكم والخلاف والإرجاف، فوالذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى تستمعوا لي ولا يكون بينكم مخالف ولا مشاق!.. أنا ابن زياد، أشبهه من بين من وطىء الحصا.. ولم ينتزعني شبه خال ولا ابن عم»!

ثم خرجت من البصرة مع طائفة من جندي وحاشيتي حتى جئت الكوفة على رأسي عمامة سوداء وأنا متلثم، والناس قد بلغهم قبل أن أجيء إليهم إقبال الحسين لآخذ بيعتهم، فهم ينتظرون قدومه، فظنوا حين قدمت عليهم متلثماً أنني الحسين، فأخذت لا أمر بجماعة منهم إلا قالوا: مرحباً يا ابن رسول الله، قدمت خير مقدم!.. فرأيت أن استبشارهم بقدوم الحسين ـ فيما توهموا ـ دليل على ما خامر قلوبهم من العصيان، فعزمت لأقتلن العصاة حتى أقطع دابرهم!..

دخلت قصر الإمارة فعلم أهل الكوفة عندئذ أنني عبيد الله بن زياد، ولست الحسين بن علي، فعمهم الخوف والحزن والغيظ!..

اليوم الخامس:

أمرت فنودي: «الصلاة جامعة»..

فاجتمع الناس في مسجد الكوفة، فخرجت إليهم، فصعدت المنبر، فحمدت الله وأثنيت عليه، ثم قلت:

«.. أما بعد فإن أمير المؤمنين ولاني مصركم هذا، وأمرني بإنصاف مظلومكم، وإعطاء محرومكم، وبالإحسان إلى سامعكم ومطيعكم، وبالشدة على مريبكم وعاصيكم، وأنا متبع فيكم أمره، ومنفذ فيكم عهده، فأنا لمحسنكم ومطيعكم كالوالد البر.. سوطي وسيفي على من ترك أمري، وخالف عهدي، فليبق امرؤ على نفسه»!

ونزلت من على المنبر فأخذت الناس أخذاً شديداً، وأمرت رؤساءهم أن يكتبوا لي أسماء الغرباء الذين يستترون في بيوت الكوفة، من الحرورية وأهل الريب الذين رأيهم الخلاف والشقاق، فمن لم يفعل برئت منه الذمة، وحل لنا دمه، وماله.. وأيما رجل وجدنا عنده أحداً من بغية أمير المؤمنين، صلبناه على باب داره!..

وأمرت العسس وأصحاب الخبر والشرطة فتفرقوا في أنحاء الكوفة يبحثون عن مسلم بن عقيل للقبض عليه، حتى اهتدى إليه بعضهم متوارياً في بيت رجل من شيعة الحسين، فجاءني بهذا الرجل فأمرته أن يأتيني بابن عقيل قابضاً عليه بيده، فقال الرجل:

ـ هل يجمل بي أن أسلم ضيفي للقتل؟!.. والله لا أفعل ذلك أبداً!..

فغضبت، فقمت، فاعترضت هذا الرجل بخيزرانة ثقيلة في يدي، فضربت وجهه، وهشمت أنفه، وكسرت حاجبه، وأمرت به فأدخلوه السجن!..

ثارت عشيرة هذا الرجل، وجاؤوا إلى بابي يرفعون أصواتهم، فأمرت الجند فضربوا عنقه ورموا برأسه إلى عشيرته!..

فلما علم مسلم بن عقيل بمقتل هذا الرجل الذي كان يخفيه في داره، خرج من مخبئه ومعه طائفة من شيعته يريدون الهجوم على قصري، فصمدت لهم حتى فتروا وبردت عزائمهم وتفرقوا فلم يبق مع مسلم بن عقيل إلا ثلاثون رجلاً، فقبضت عليه الشرطة بعد أن رمته بالنشاب فكسرت بعض أسنانه، وقطعت شفتيه!..

ولما جيء به إلى مجلسي في القصر، التفت ابن عقيل إلى قائد من قواد جندي هو عمر بن سعد بن أبي وقاص فقال له:

ـ يا عمر.. إذا قتلوني فاستوهبهم جثتي لكيلا يمثلوا بها.. وابعث إلى الحسين بن علي رسولاً قاصداً يخبره بحالي وما صرت إليه من غدر هؤلاء الذين يظنهم شيعته، لكي ينصرف إلى مكة فيقيم بها ولا يغتر بأهل الكوفة!..

أمرت بمسلم بن عقيل فأصعده الجنود إلى سطح القصر، وأشرفوا به على الناس المحتشدين في ساحته حتى إذا ملأوا منه عيونهم ضرب الجلاد عنقه بالسيف، فسقط رأسه إلى ساحة القصر، ثم دحرج الجند الجسد فرموه عند أقدام الناس وهم ينظرون إليه متمزقاً أغرقته الدماء!..

بعثت الرأسين: رأس ابن عقيل ورأس صاحبه الذي كان يخفيه في داره، إلى أمير المؤمنين في دمشق، مع اثنين من رجالي وكتبت إليه بالنبأ، فرد أمير المؤمنين مستحسناً عملي: «لم نعد الظن الحسن بك، وأنك فعلت فعل الحازم الجليد، وقد سألت رسوليك عن الأمر ففرشاه لي، وهما كما ذكرت عنهما في النصح وفضل الرأي، فاستوص بهما».

نعم.. لقد فرش هذان الرجلان الحصيفان ـ وهما من أخلص أتباعي ـ حقيقة الأمر بين يدي أمير المؤمنين، فعرف ـ حفظه الله ـ أنني رجل دولته، وأن خلافته معلقة في حمائل سيفي!..

٤

الزحف إلى السراب

اليوم الأول:

عاد الرجلان اللذان كنت بعثتهما إلى أمير المؤمنين في دمشق يحملان إليه رأس مسلم بن عقيل - ابن عم الحسين - ورأس صاحب لمسلم كان يخبئه في داره بالكوفة..

رأيت أن أبعث السرور في قلب أمير المؤمنين بمصرع عدويه هذين، فأرسلت إليه رأسيهما، وهما قائدا الفتنة التي أراد الحسين ابن علي أن يوقظها في الكوفة الهادئة الوادعة!..

عاد الرجلان بعد تسليم الرأسين، فأخبراني أن أمير المؤمنين انبسطت أساريره عندما رأى الرأسين بين يديه، وأثنى أطيب الثناء على شدتي في قمع الفتنة وقطع رؤوس أصحابها، والتفت إلى من كان في مجلسه من رجالات الدولة فشكر لي حزمي في ضبط ولاية الكوفة شكراناً جزيلاً، وقال: هكذا فليكن حزم الولاة!..

وأمرت الرجلين فجلسا بين يدي ساعة يحدثانني عما لقياه من كرم أمير المؤمنين ورعايته.. ثم أمرتهما فانصرفا، وجلست وحيدا

في ديوان الولاية، أستعيد ذكر اللقاء الأخير في هذا الديوان بيني وبين مسلم بن عقيل قبل أن أطيح برأسه!..

إن هذا الرجل المسكين كان ضحية ابن عمه الحسين بن علي، فقد بعثه الحسين برسائل يستثير فيها أهل الكوفة لخلع طاعة أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، ظناً من الحسين أن مملكة معاوية قد انهارت بموته، وأن يزيد لا يلبث أن ينهزم ويستسلم، وتنتقل الخلافة من بني أمية إلى بني هاشم!..

صدق مسلم بن عقيل هذه الأحدوثة التي اخترعها الحسين، فسعى إلى حتفه في هذا البلد الذي شددت وثاقه بقبضتي في طاعة أمير المؤمنين، فلا يزيغ عن طاعته زائغ إلا ضربت عنقه وأعناق أوليائه جميعاً!..

ولما وقع ابن عقيل بما يحمله من كتب الحسين في قبضتي، وجيء به إلى ديوان الولاية، أدهشني جهله بحقائق الأمور!..

لقد كان ظن الجهلاء أن الناس سيلتفون حوله ويدافعون عنه ولا يسلمونه إلى جنودي. ولكني زعقت في الناس زعقة واحدة فانفضوا من حوله وسلموه لي.. لم تنتطح فيه عنزان، ولافاه أحد بكلمة دفاعاً عنه، إلا الرجل الذي كان يخبئه في داره.. وقد كان من حق هذا الرجل عندي أن أبعث رأسه مع رأس مسلم بن عقيل إلى أمير المؤمنين!..

إن ابن عقيل ما زال ماثلاً في ذاكرتي إذ وقف أمامي مكتوفاً جريحاً ينزف دماً من وجهه وفمه.. وما زلت أذكره عندما قلت له في غضب وازدراء:

ـ ايه يا ابن عقيل.. أتيت أهل الكوفة وهم وادعون مطيعون، وكلمتهم

واحدة، فقمت فيهم تؤلبهم على أمير المؤمنين، وتفرق كلمتهم، وتحمل بعضهم على بعض!..

قال مسلم بن عقيل:

ـ كلا!.. أنا ما جئت إليهم، ولكنهم بعثوا إلينا وزعموا أن أباك قتل سادتهم، وعمل فيهم أعمال كسرى وقيصر، فأتيناهم لنأمر بالعدل فيهم، وندعو إلى حكم كتاب الله!..

استفزني كلام هذا الجاهل الأحمق، فصحت في وجهه:

ـ أنت جئتهم لتأمر بالعدل؟!.. وما أنت وذاك يا فاسق؟!.. ومن أنت، ومن أعطاك هذا الحق؟!..

صمت مسلم بن عقيل كأنه لا يحير جواباً، فوصلت كلامي بهذا السؤال، إهانة له وتحقيراً:

ـ ألم يكن أبي، ثم أنا من بعده، نعمل في الناس بكتاب الله، إذ أنت ـ يا فاسق ـ مقيم في «المدينة» تشرب الخمر؟!..

قال ابن عقيل:

ـ أنا أشرب الخمر؟!.. الله يعلم أنك غير صادق، وأنك قلت بغير علم!.. وإن أحق الناس بشرب الخمر، من يلغ في دماء المسلمين، ويقتل النفس التي حرم الله قتلها، ويسفك دماء الناس على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأن لم يصنع شيئاً يغضب الله!..

غاظتني كلمات هذا الرجل الواقف في انتظار الموت، فصرفت الكلام وجهة أخرى وقلت:

ـ يا فاسق.. إن نفسك تمنيك ما حال الله دونه، ولم يترك أهلاً له وأنت ولا أحداً من آل أبي طالب.. لقد طلبتم الخلافة ظلماً وعدواناً، ونازعتموها عمي أمير المؤمنين معاوية قبل عشرين عاماً، وها أنتم أولاء

تركبون رؤوسكم في طلبها مرة أخرى وتنازعون أمير المؤمنين يزيد.. كأنكم تظنون أنكم أهل لها، أو أن لكم من الأمر شيئاً..

قال الرجل في ثبات اليائس من الحياة:

ـ والله ما نظن ظناً.. ولكنه اليقين، ومن هو أهلها يا ابن زياد إن لم نكن نحن؟!

قطعت هذا الحوار العقيم صارخاً:

ـ قتلني الله إن لم أقتلك قتلة لم يقتلها أحد في الإسلام!..

عاد الرجل المجنون يستفزني فقال:

ـ إنك يا ابن زياد أحق من أحدث في الإسلام ما لم يكن فيه!.. أما أنك لن تدع سوء القتلة، وقبح المثلة بالقتلى، وخبث السيرة، ولؤم الغلبة، ولا أحد من الناس أحق بهذا كله منك!..

هممت أن أستل سيفي فأقتله بيدي، ولكني أمسكت، وأقبلت عليه أشتمه وأشتم الحسين وعلي بن أبي طالب وأخاه عقيلاً ـ والد مسلم هذا ـ حتى شفيت صدري بشتمهم جميعاً، فلم يزد مسلم ابن عقيل أن قال لي بأشد ما يحمله من احتقار:

ـ يابن زياد.. إن أباك كان يزعم أنه ابن أبي سفيان، وحفيد عبد مناف جد بني أمية وجدنا نحن بني هاشم!.. فكأنه يزعم أن بيننا وبينه قرابة!.. ووالله لو كنت يا ابن زياد تحس حقاً أن بيني وبينك قرابة في عبد مناف ما قتلتني، ولكنك تعلم يقيناً زيف دعواك وأن عبد مناف بريء منك ومن أبيك!..

اليوم الثاني:

زايلني شبح مسلم بن عقيل بعد أن تراءى لي أياماً وليالي!.. نسيت شتائمه الجارحة وإنكاره لنسبي في بني عبد مناف، واعتباره إياي دعيًا من الأدعياء لا نسب لي في قريش ولا في العرب!..

وما يكون النسب وما يتشدق به الناس من مفاخر آبائهم وأجدادهم؟!.. إن هذا كله تحت قدمي، فأنا ابن زياد قاهر العرب، وأنا مثله لا نسب لي في الحقيقة إلا سيفي.. وما خضعت فيما مضى إلا لأمير المؤمنين معاوية، ولا أخضع الآن إلا لأمير المؤمنين يزيد!..

وإني لأرجو أن يكون المجد قد فتح لي صفحة جديدة تضاف إلى ما سلف لي عنده من صفحات، فهذا هو كبير بني هاشم بن عبد مناف في زماننا، الحسين بن علي بن أبي طالب، قد دنا من الكوفة في عدد قليل من أهله وشيعته، يريد أن يدخل الكوفة ويتلقى بيعة أهلها له بالخلافة، فيسوقهم إلى حرب ضروس كما ساقهم أبوه من قبل..

وقد كنت أظن الحسين رجلاً عاقلاً رشيداً، واسع الحيلة، محكم التدبير، لا يرمي بنفسه في المهالك.. أما الآن وقد زحف بجيشه المضحك هذا حتى صار على غلوة سهم من الكوفة، فقد صرت أراه على حقيقته: رجلاً خفيف الفكر، فاسد التدبير، يروح مع الأماني ويجيء، عاجزاً في كل حال عن فهم معنى السلطان ومعنى الدولة، ومعنى منازعة الملوك في ممالكهم!..

لقد ظن الحسين ـ في غروره بنسبه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ أنه إذا هرب من مبايعة يزيد، سقط يزيد من فوق سرير الخلافة في دمشق، وجلس عليه هو في الكوفة!..

وإن رجال الأخبار في ديواني ليسردون على مسامعي ما يدهشني من خفة تفكير الحسين وعجزه عن التدبير، فقد رفض أن يستمع إلى نصائح أقاربه العقلاء المحنكين كعبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر.. وأصم أذنيه عن نصائح المشفقين عليه الذين يعرفون

عاقبة حركته هذه الهوجاء التي خرج بها على أمير المؤمنين، والتي انطلق فيها يزحف إلى السراب!..

وقد جنى الحسين علي رسله الذين بعثهم إلى البصرة والكوفة برسائله التي تنضح جهلاً بحقائق الأمور في دولة الخلافة الأموية الراسخة.. أما رسوله إلى البصرة فقتلناه، وكذلك رسوله إلى الكوفة ومن شايع الرسولين من حمقى العامة وصغار الناس.. وأما الحسين نفسه، فلعله يظن أنه ما إن يقترب من الكوفة حتى أسارع فأخلي له قصر الإمارة، فيدخله بين التهليل والتكبير، ثم تأتيه الخلافة تجرر أذيالها!..

وأنى يكون له ذلك وقد عجز أبوه، أبو تراب، عن بلوغه يوم كان له جيش عرمرم وأنصار يسدون الفضاء؟!.. وما لهذا العاجز - الحسين - اليوم إلا بضع عشرات من ضعاف الصبيان والخدم يحيطون به وهو قادم إلى الكوفة في غفلة لا مثيل لها بين غفلات طلاب الملك والسلطان!..

لقد كان والي مكة ناصحاً له حين اعترضه وأمره ألا يمضي من مكة إلى الكوفة وقال له: يا حسين... ألا تتقي الله؟!.. أتخرج من الجماعة، وتفرق هذه الأمة؟!..

ولكن الحسين ركب رأسه ومضى في طريق الكوفة وهو يتأول قول الله عز وجل: «لي عملي ولكم عملكم، أنتم بريؤون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون»..

نعم والله.. إن له عمله ولنا عملنا.. ونحن بريؤون مما يعمل، ونبرأ إلى الله منه ونسأله سبحانه وتعالى أن يحق الحق ويزهق الباطل!..

اليوم الثالث:

وصل الحسين بن علي في حركته إلى أرباض الكوفة غير عابىء بنصائح من قابلوه في الطريق وأخبروه بمقتل ابن عمه مسلم بن عقيل وانفضاض أهل الكوفة عن بيعته التي نسجها أولياؤه نسج بيوت العنكبوت!..

كل الناس يعرفون عاقبة حركته هذه، وأنها الموت لا محالة، إلا هو فإنه يرى أن أهل الكوفة قد بايعوه وأنهم لن يتخلوا عنه أبداً..

وبلغ من غفلته أنه بعث إلى أهل الكوفة رسالة جديدة وقد صار على مقربة منهم، فوقعت الرسالة والرسول في يدي.. ويقول فيها: «من الحسين بن علي إلى إخوانه من المؤمنين.. سلام عليكم.. أما بعد فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءني يخبرني فيه بحسن رأيكم، واجتماع ملئكم على نصرنا، والطلب بحقنا، فسألت الله أن يحسن لنا الصنع، وأن يثيبكم على ذلك أعظم الأجر، وقد شخصت إليكم من مكة فإذا قدم عليكم رسولي فاكمشوا أمركم وجدوا، فإني قادم عليكم في أيامي هذه إن شاء الله»..

كتب الحسين هذه الرسالة وبعث بها أخاه في الرضاعة عبد الله ابن بقطر..

فلما قرأت الرسالة، قلت لابن بقطر هذا وقد وقف أسيراً بين يدي:

ـ إن لم تمتثل لأمري قتلتك!..

قال وقد هزه الخوف:

ـ وما أمرك؟!..

ـ أمري أن تصعد فوق قصري فتلعن الحسين الكذاب.. ابن علي

الكذاب.. فإذا فرغت من ذلك فأنزل حتى أرى فيك رأيي..

أدهشني أن الرجل امتثل لأمري في هدوء وصعد إلى سطح القصر ليسب الحسين وأباه على الملأ...

خرجت من القصر إلى الساحة ووقفت مع الناس أستمع إلى ابن بقطر.. أذهلتني جرأة الفاسق اللئيم، فإنه لم يكد يشرف على الناس من عل حتى قال: «أيها الناس، إني رسول الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتنصروه على ابن مرجانة وابن سمية الدعي»!

أمرت الجند فأسرعوا إلى سطح القصر فأمسكوا به وألقوه بكل قوتهم، فهوى على الأرض وتكسرت عظامه ولكن بقي به رمق، فأسرع إليه أحد رجالنا فذبحه.. فقلت للرجل: لماذا أسرعت بذبحه؟!.. قال أردت أن أريحه!..

ولكن.. لماذا أردت أن تريحه أيها الغبي؟!..

٥

اليوم قبل الأخير

اليوم الأول:

هذه هي الحرب يعلنها علينا الحسين بن علي، وإن كانت - لحسن حظنا - حرباً صغيرة على قد همته المحدودة، وتدبيره القاصر.. فقد صار يقطع الطريق على قوافلنا، قوافل الدولة، ويأخذها غنيمة له.. فهل يقدم على هذه الفعلة إلا خارج على الدولة قد شهر سيفه وأعلنها حرباً صريحة؟!..

إن الحسين بن علي قد قطع الطريق على إحدى قوافل الدولة، واعتبرها غنيمة له.. يأكلها ويشكر الله عليها، وليس يفعل ذلك إلا رجل شق العصا، وأصر على حربه الخاصة الصغيرة المحكوم عليها بالخسران، فاستوى وقطاع الطرق المفسدين في الأرض، الذين جزاؤهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وأن يصلبوا على جذوع النخيل!..

جاءني عمال البريد والأخبار بتفاصيل هذه الحادثة.. فقد لقي الحسين في الطريق بين مكة والكوفة قافلة مقبلة من صنعاء، بعث

بها والي اليمن إلى أمير المؤمنين يزيد بن معاوية في دمشق، محملة بالنفائس من الثياب والعطور والأصباغ والطرائف.. فأخذها الحسين اغتصاباً بعد أن روع حراسها وشهر عليهم السيوف!..

لم يكن يحرس القافلة إلا بضعة جنود، لأن الأمن مستتب في أنحاء الدولة كلها، والناس يسلكون السبل والفجاج ليلاً ونهاراً، لا يتعرضهم لص ولا قاطع طريق، حتى وثب الحسين وثبته هذه على القافلة الآمنة، يشق جماعة المسلمين، ويملأ البلاد خوفاً بعد أن ملئت أمناً، ويقطع الطريق على القوافل كأنه بعض صعاليك الجاهلية الأولى!..

فأين يهرب الحسين مما أعددناه له من العقاب العادل؟!..

اليوم الثاني:

إن هذا الخارج على الدولة يشعوذ على الناس برؤى يزعم أنه يراها في نومه!.. فقد بلغني أن الأمير عمرو بن سعيد والي مكة أوفد إليه رسولاً بكتاب يسأله فيه الرجوع إلى مكة آمناً مطمئناً وله من الرغائب ما شاء.. فلما وصل إليه الكتاب قال لرسول الأمير:

انصرف إلى الأمير، فإني غير عائد إلى مكة؟..

فجهد به رسول الأمير توسلاً وتضرعاً، فما ازداد إلا تشبثاً بشق عصا المسلمين، حتى قال له رسول الأمير بعد أن يئس منه:

- مالك ـ والله ـ يا حسين حجة عند الله في شق جماعة المسلمين!..

قال الحسين وكأنه يدلي بحجته الدامغة:

- إني رأيت رؤيا، فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرت فيها بأمر أنا ماض له.. لا أبالي ما تكون عاقبته!..

سأله رسول الأمير متعجباً:

ـ فما تلك الرؤيا؟!..

أجاب الحسين كأنه يتكتم سراً خطيراً:

ـ ما حدثت أحداً بها، وما أنا محدث بها أحداً حتى ألقى ربي!..

قال رسول الأمير ساخراً:

ـ أتدعو المسلمين إلى حرب خليفة قد بايعوا له وسمعوا وأطاعوا، لرؤيا تزعم أنك رأيتها في نومك، ثم تكتم ما فيها عن الناس الذين تدعوهم إلى مبايعتك ومحاربة الخليفة؟!.. أليس من حق هؤلاء الناس أن تقص عليهم رؤياك؟!..

لزم الحسين الصمت، فمضى رسول الأمير يخاطبه حزيناً آسفاً:

ـ اسأل الله تعالى أن يصرفك عما يوبقك، وأن يهديك لما يرشدك، وإني أعيذك من الشقاق، وأخاف عليك فيه الهلاك!..

استفز هذا الكلام الحسين فصاح في الرجل:

ـ إني لم أشاقق الله ورسوله، وإنما دعوت إلى الله عز وجل، وعملت صالحاً وقلت إنني من المسلمين!..

اليوم الثالث:

تمادى الحسين في تأويل أحلامه، وأبى إلا أن يجيء إلى الكوفة ليتلقى بيعة أهلها، زاعماً أنهم مقيمون على بيعة لا يخلعونها من أعناقهم أبداً!.. ولم يستمع لمن قالوا له: إن أهل الكوفة ليسوا معك، بل عليك!..

وأراني أتفكر الآن ملياً في أمر الحسين.. فياله من رجل يبحث عن حتفه بظلفه!.. وأن كل تفكير في أمره ليزيدني تعجباً منه!..

إن هذا الرجل يسير إلينا في خمسة وأربعين من أتباعه يركبون

الخيل، ومائة آخرين على أقدامهم.. ولست أدري، أيظن حقاً أنه سيقوض الدولة الأموية الباذخة الراسخة بمائة وخمسة وأربعين من أصحابه، فرساناً وراجلين؟!..

استدعيت الحر بن يزيد اليربوعي قائد الشرطة، وأصدرت إليه أمري محدداً:

- خذ ألف جندي من أشد الفرسان، وامض أسرع ما تستطيع بالخيل إلى مكان الحسين بن علي قبل أن يطرق الكوفة، فاكفني إياه، فإني لا أريد أن أقتله، ولا آمرك أن تقاتله، ولكن جئني به ومن معه أجمعين!..

التقى الحر بن يزيد في جندنا بالحسين بن علي في أصحابه.. فلما حضرت صلاة الظهر وقف الحسين يخطب أصحابه وجنودنا معهم فقال:

- «أيها الناس.. إنها معذرة إلى الله عز وجل إليكم.. إني لم آتكم حتى أتتني كتبكم: أن أقدم علينا فإنه ليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى، فإن كنتم أيها الناس على ذلك، فهأنذا قد جئتكم، وإن تعطوني ما أطمئن إليه من مواثيقكم وعهودكم، دخلت بكم الكوفة.. وإن كنتم لمقدمي كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه عليكم»..

سكت الحر بن يزيد وجنودنا فلم يردوا على هذا الرجل الذي لا يرى ولا يسمع ولا يعرف شيئاً من الحقائق الجلية التي تحيط به.. فهو يخطب في جنودنا - جنود الخليفة - طالباً تأييدهم ومبايعتهم!.. فما أبعده من طالب للدولة وللسلطان، عما يجري حوله وتحت سمعه وبصره، وما أشد غفلته وهو قادم إلينا يظن أننا نحن الغافلون!..

اليوم الرابع:

لم أنم البارحة إلا غراراً!.. شغلني لقاء جنودنا بالحسين

وأصحابه على مقربة من الكوفة.. تتابعت رسلي إلى الحر بن يزيد بأوامري الصارمة.. جاءني أصحاب الأخبار بآخر ما وقع هناك بين الحسين ورجالنا..

لقد جمع الحسين أصحابه وصاح فيهم:

ـ الرحيل.. الرحيل.. العودة إلى مكة!..

سمع قائد جندنا صيحة الحسين، فقال له مترفقاً:

ـ نشدتك الله لا ترحل، فإن الأمير عبيد الله بن زياد أمرني ألا أدعك ترحل قبل أن تقدم عليه في الكوفة فتبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية أنت وجميع من معك..

رد الحسين غاضباً:

ـ الموت أدنى إليك من ذلك!..

ثم وقف يخطب فقال:

ـ «أيها الناس.. إنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله يكن أرضى لله!.. ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء المدعين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجور والعدوان.. وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا وكان رأيكم غير ما أتتني كتبكم وقدمت به على رسلكم، انصرفت عنكم»!..

قال له الحر بن يزيد:

ـ إننا والله ما ندري يا حسين ما هذه الكتب التي تذكرها!..

فأخرج الحسين خرجين مملوءين صحفاً ورسائل فنشرها بين أيدي جنودنا، وأكثرهم من أهل الكوفة، فقال قائدهم الحر بن يزيد للحسين:

ـ يا هذا.. لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك.. فقم معنا حتى تقدم

على الأمير عبيد الله بن زياد، فذلك أمره الذي لا مناص من تنفيذه..

تجاهل الحسين كلام القائد، وقال لأصحابه:

ـ قوموا فاركبوا ننصرف راجعين إلى مكة..

ركب القوم وتحركوا منصرفين، فحال جندنا بينهم وبين الانصراف، فغضب الحسين غضباً شديداً، كأنه فوجىء بأمر لم يكن يتوقعه، وصاح في الحر بن يزيد:

ـ ثكلتك أمك.. ماذا تريد؟!..

كظم الحر بن يزيد غيظه ولم يرد على الإهانة بمثلها وقال للحسين في حلم ووقار:

ـ أما والله لو غيرك من العرب يقولها لي ما تركت ثكل أمه بالثكل، ولكن ـ والله ـ ما إلى ذكر أمك من سبيل إلا بأحسن ما يقدر عليه امرؤ مسلم!..

هدأت ثائرة الحسين وقال بصوت خفيض:

ـ فما تريد؟!..

ـ أريد والله أن أنطلق بك إلى الأمير عبيد الله بن زياد..

قال الحسين محتداً:

ـ إذن والله لا أتبعك!..

قال الحر:

ـ إذن والله لا أدعك تعود إلى مكة..

فلما كثر الكلام بينهما قال له الحر:

ـ يا حسين.. إني لم أومر بقتالك، وإنما أمرت ألا أفارقك حتى أقدمك الكوفة، ولا أريد أن أبتلي من أمرك، وأخاف الله في دمك!..

زاد الحسين حدة، فوقف يخطب في جنودنا مرة أخرى، فقال:

ـ «أيها الناس.. قد أتتني كتبكم، وقدمت على رسلكم ببيعتكم: أنكم لا تسلموني ولا تخذلوني.. فإن أقمتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم.. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدتكم، وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري لقد فعلتموها بأبي وأخي وابن عمي مسلم.. والمغرور من اغتر بكم!.. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه»!..

هكذا يبقى الحسين إلى هذا اليوم وكأنه لا يفهم الموقف الذي يجد نفسه فيه، حتى إنه ليطلب لنفسه البيعة بالخلافة من جنود الخليفة!..

وإني لأسأل نفسي: أيبلغ عجز هذا الرجل عن معرفة الحقائق هذا الحد الباعث للدهشة البالغة عند كل رجل عاقل لا تخفى عليه الشمس في رائعة النهار؟!..

إن الحسين الذي تحركه الرؤى والأحلام، يظن أن رجالنا الثابتين على ظهور خيولهم، ما إن ترن كلماته في أسماعهم، حتى ينكثوا بيعتهم لأمير المؤمنين، ويقدموا دماءهم فداء تلك الأحلام والرؤى!..

يريد الحسين ـ وقد حبط سعيه في دخول الكوفة ـ أن يعود إلى مكة موفوراً لم ينله مني حساب ولا عقاب على خروجه وقطعه الطريق..

ولو لم يكن هذا الرجل ضعيف التدبير، لعلم أن طريق العودة إلى مكة قد انقطع منذ أن ألقى رحاله وضرب فسطاطه في أرباض الكوفة.. وقد مد له الغرور حبل الأمل الكاذب، فخيل إليه أنه متى أراد العودة إلى مكة عاد إليها، لا عليه ولا له.. لم يفز بالخلافة.. لكنه لم يخسر حياته!..

تلك كانت خطته القصيرة النظر التي تحرك بها من مكة إلى الكوفة وهو يتوقع السلامة والكرامة في حال فوزه، وفي حال خسرانه، لا يمتد إليه حساب ولا عقاب!.. ولو كان حصيفاً ثبيتاً محنكاً بصيراً بالأمور، قليل الخيلاء والغرور، لاتخذ للعودة أهبة لا تقل عن أهبة الخروج، ولما ألقى بيديه إلى التهلكة كما يلقى إليها بيديه الطفل الغرير!..

وأظن أن موعدنامعه قد دنا.. وأنه لن يفلت من الفخ الذي أوقع نفسه فيه!.. وأن هذا اليوم هو يومه قبل الأخير!..

٦
الطريق إلى كربلاء

اليوم الأول:

قالت لي والدتي وقد رأتني أجلس وحيداً مستغرقاً في التفكير:

ـ ما أظنك يا عبيد الله مشغولاً إلا بأمر الحسين بن علي وقد حصره جنودك في ذلك الموضع الجديب، حيث لا ظل ولا ماء.. فهل تعتزم يا بني أن تقتل الحسين ومن معه عطشاً؟!..

قلت لأمي كأنما استفزتني كلماتها:

ـ بل هو قتل نفسه إذ رمى بها في مأزق حرج موصد الأبواب، لا مخرج له منه، ولا طاقة له على البقاء فيه.. وليس في مقدوره إلا أن يموت أو يستسلم ويجيء إلى مجلسي هذا فيبايع لأميرالمؤمنين، ثم أرى فيه رأيي، فإن شئت أطلقته، وإلا قتلته غير ظالم، فإنه موسوم بالخطأ، موصوم بالعصيان وشق جماعة المسلمين!..

صاحت أمي مرتاعة:

ـ ويلك!.. أتقتل الحسين وهو ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لكي يتمطى يزيد ابن معاوية فوق سرير الخلافة في دمشق، وتبوء أنت بغضب الله؟!..

قلت أهدئها:

- ما أريد قتله يا أماه، ولكني أمرت جندي إن حاربهم أن يحاربوه، فهذا رجل أراد غرضاً بعيداً فخذله الله فيه، كما خذل أباه وأخاه من قبل، وجاء آخر دعوته نقضاً على أولها، وكذلك كانت دعوة أبيه وأخيه في بدئها ومنتهاها!!..

قالت أمي في لهجة تحذير:

- يا بني.. إن رجالك جميعاً لن يستطيعوا قتل الحسين ولو اجتمعوا عليه بسيوفهم ورماحهم، فلا تعرض لهذا الرجل ودعه يرحل حيث يشاء..

سألت أمي متعجباً مترفقاً بها:

- ما هذا الذي تقولين يا أماه!.. أليس الحسين بشراً من لحم ودم، يموت كسائر الناس، وهل يبقى حياً إذا ضربت السيوف عنقه، ونهشت الرماح صدره؟!..

قالت والثقة ملء نبراتها:

- يا بني.. إن الحسين يضع فوق صدره تعويذة ترد عنه السيوف والرماح!..

- ومن أين لتعويذة الحسين هذه القوة الخارقة التي تتحدثين عنها يا أماه؟!..

- من جبريل عليه السلام!..

- يا للعجب يا أماه.. وكيف ذلك؟!..

- ألا تعلم يا بني أن حشو هذه التعويذة من زغب جناح جبريل الذي نزل بالوحي على رسول الله؟!..

فاجأني قولها، فلم أحر جواباً، ومضت تشرح لي:

- يا بني.. إن أباك - رحمه الله - حدثني يوماً أنه سمع عبد الله بن عمر بن الخطاب يقول: إن على صدر الحسن وصدر الحسين تعويذتين

حشوهما من زغب جناح جبريل عليه السلام...

ـ ما أكثر الأحاديث الموضوعة يا أماه!!.. لقد مات الحسن قبل عشر سنوات مسموماً في شربة عسل، فأين كانت تعويذته؟!.. أم تراها لا تصد إلا السيوف والرماح؟!..

غضبت أمي لتكذيبي حديثها، وقامت عني وهي تستغفر لي ربي، وعدت أجلس وحيداً، أفكر في أمر الحسين وتعوذيته التي حشوها من زغب جناح جبريل!!..

دخلت جاريتي المغنية البارعة «محبوبة» وفي يدها العود، وجلست قبالتي تبتسم متوددة لي، وتجس أوتار عودها..

قلت لها بفتور:

ـ ما جاء بك في هذه الساعة يا محبوبة؟!..

ـ ظننت أنك في حاجة إلى من يرفه عنك ويسليك يا سيدي..

سرني جوابها وأعجبني ذكاؤها، فأحسست نشاطاً وجلست بين يديها أقلب طرفي.. في حسنها، وإنها والله لحسناء، وإن صوتها لقرين وجهها في الحسن والبهاء، أما فنها في الغناء فيطربني، ويستطير قلبي، ويستلب لبي، ويحملني، فوق سحابة أطوف بها الدنيا..

قلت لها:

ـ أصبت يا محبوبة، فوالله إني لفي حاجة إلى ما يسليني في هذا البلاء الذي رمانا به الحسين بن علي، فهل من لحن جديد لديك نتطرب به بعض ساعة؟!..

ضحكت شفتاها وعيناها وقالت لي:

ـ عندي يا مولاي صوت جديد في شعر للحسين!!..

هتفت بها متعجباً:

- ويحك يا محبوبة، ما أظرفك وأرق دعابتك، وأي شعر للحسين يصلح للغناء؟!..

- شعر في امرأته الرباب وابنته سكينة..

- سكينة؟!.. ليست للحسين ابنة اسمها سكينة!..

- إنها يا سيدي ابنته أميمة أو آمنة المسماة سكينة!..

أصلحت محبوبة أوتار عودها، وانطلقت تغني من شعر الحسين:

لعمرك إنني لأحب دارا ... تكون بها سكينة والرباب

أحبهما وأبذل جل مالي ... وليس لعاتب عندي عتاب

طربت وشربت على غناء محبوبة رطلاً من النبيذ المعتق، ثم رطلاً.. حتى انتشيت وقلت لها:

- يا محبوبه.. بحياتي إلا ما أخبرتني من كان ذلك العاتب الذي عاتب الحسين في حبه لزوجته الرباب وابنته سكينة!..

قالت محبوبة وقد شربت رطلين مثلي وانتشت:

- كان ذلك العاتب يا سيدي ـ أخاه الحسن ـ رحمه الله ـ إذ وجده مشغولاً بالرباب وسكينة لا يريم البيت الذي تقيمان فيه، كأنه نسي زوجاته الأخريات وجواريه وهن كثيرات!..

زايلني الطرب، وطارت النشوة، وعدت أفكر فيما صنعه الحسين!..

ألم يكن أخلق بهذا الرجل أن يجلس في أحد بيوته في «المدينة» أو «مكة» يقول الشعر في امرأته وابنته، وهو في راحة وعافية، بدلاً من أن يخرج على الدولة، ويطلب الخلافة، ويعكر صفوي وصفو أمير المؤمنين؟!.. أم تراه قد صدق أن تعويذته محشوة بزغب من جناح جبريل عليه السلام؟!..

اليوم الثاني:

جاءني أصحاب الأخبار بما عندهم عن الحسين وأصحابه المحصورين في «كربلاء»..

لا مناص للحسين من التسليم أو القتال، ولكن ماذا حدث في موضع كربلاء حتى اليوم، ومتى يلقي هذا الرجل السلاح، أو يموت تحت سنابك الخيل؟!..

دعوت رجلاً من أصحاب الأخبار.. قلت له:

ـ إيه.. ما وراءك؟!..

قال:

ـ نعم.. أصلح الله الأمير.. إن قائد جندك الحر بن يزيد، ساير الحسين بضع خطوات، وقال له: إني أذكرك الله في نفسك يا حسين، فإني أشهد لئن قاتلت لتقتلن، ولئن قوتلت لتهلكن!.. فقال له الحسين: أبالموت تخوفني، وهل يعدو بكم الخطب أن تقتلوني؟!.. فلما سمع ذلك منه الحر بن يزيد علم أنه مقيم على عصيانه فتنحى عنه، وحاول الحسين غير مرة أن يأخذ طريق مكة، فكان الحر وجنوده يصدونه ويعيدونه إلى موضعه البعيد عن الظل والماء في ثبج الصحراء..

وقال له الحر: أنزل بهذا المكان ولا تتحول عنه، فبذلك جاء الأمر الصارم من الأمير عبيد الله بن زياد..

اليوم الثالث:

نعم.. كان آخر كتبي إلى الحر بن يزيد قائد جندنا، أن يحصر الحسين وأصحابه فوق أرض غليظة قفر، وأن يخلعه بالعراء على غير شجر ولا ماء، ولكنني أظن أن الحسين لن يستسلم ولو أحمينا الأرض تحت قدميه كالتنور، فلا بد من قتاله إذن، لأنه ما زال يأمل

أن ينتهز غفلة منا فينسحب بأصحابه عائداً إلى مكة، ولكن هذا هو الانسحاب المستحيل، ولو حدث لعزلني أمير المؤمنين!..

يظن بعض الناس أنني أضيق على الحسين الخناق كراهية له، ولكني إنما أفعل ذلك إنفاذاً لأمر أمير المؤمنين، فهو يعلم أن نجاة الحسين من حصار كربلاء، يجمع حوله الناس من كل الأمصار، فيشق جماعة المسلمين، ويعيد الحرب في الحجاز والعراق والشام، أشد مما كانت بين معاوية وعليٍّ قبل عشرين عاماً!..

عاودني الوسواس، وخفت أن يفلت الحسين، فدعوت عمر بن سعد بن أبي وقاص ـ وهو من أحسن قواد جندنا ـ ووليته إمارة الري ودستبى، وأمرته أن يسير في جيشه لقتال الحسين فإذا فرغ منه مضى إلى إمارتها الجديدة..

قال لي عمر بن سعد:

ـ اعفني من قتال الحسين!..

قلت غاضباً:

ـ نعم.. على أن أعفيك أيضاً من ولاية الري ودستبي..

تراجع عمر بن سعد وقال:

ـ إذن أمضي إلى الحسين، فلعلي أقنعه بأن يجيء إليك فيضع يده في يدك ويبايع لأمير المؤمنين، فإن في هذا صلاح الأمة، ولعل الله أن يحقن به الدماء!..

اليوم الرابع:

أرسلت مع جيش عمر بن سعد بن أبي وقاص عدداً كبيراً من أصحاب الأخبار، لأنني لا أطمئن إلى ابن سعد، ولا أراه يميل إلى مقاتلة الحسين فإن بينهما رحماً ماسة وقرابة قريبة، وما أنا عند عمر

ابن سعد إلا كما أنا عند الحسين بن علي، مجرد دعيٍّ من أدعياء بني أمية.. جدتي سمية، وأمي مرجانة!..

ولكنهما سينزلان على حكمي، وهما صاغران ولست ابن زياد، إن أفلت مني الحسين إلا أن يبايع لأمير المؤمنين، أو أفلت عمر ابن سعد إلا أن يأتيني برأس الحسين إن أبى البيعة لأمير المؤمنين!..

بلغ عمر بن سعد كربلاء وبعث إلى الحسين يسأله عما جاء به من مكة، ثم كتب إليّ كتاباً يقول فيه:

ـ «... أما بعد، فإني حيث نزلت بالحسين بعثت إليه رسول فسألته عما أقدمه، وماذا يطلب ويسأل، فقال: كتب إلي أهل هذه البلاد وأتتني رسلهم، فسألوني القدوم إليهم ففعلت، فأما إذ كرهوني فأنا منصرف عنهم»..

فلما قرأت هذه الرسالة تمثلت قول الشاعر:

الآن إذ علقت مخالبنا به   يرجو النجاة ولات حين مناص

إن الحسين يرجو أن نسمح له بالانسحاب، عائداً إلى مكة بعد أن خذل الله مسعاه، وأظهرنا عليه، ولكن لا بد له من البيعة لأمير المؤمنين ويده في يدي، وهو يرى أن وضع يده في يدي عار عليه، فهو رأس بني هاشم، وأنا دعي بني أمية،!..

كتبت إلى عمر بن سعد:

ـ «... أما بعد.. فقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت، فأعرض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه، فإن فعل ذلك رأينا رأينا، والسلام»..

لم يستجب الحسين لما عرضه عليه عمر بن سعد، وقال:

ـ «لا أجيب ابن زياد إلى ذلك أبداً»..

هكذا حكم الحسين على نفسه وحدد مصيره!..

كتبت إلى عمر بن سعد:

ـ «... أما بعد، فحل بين الحسين وأصحابه، وبين الماء، حتى لا يذوقوا منه قطرة، كما صنع بالتقي الزكي المظلوم أمير المؤمنين عثمان ابن عفان»..

تتوالى رسائل أصحاب الأخبار إلى ديوان الولاية، وأنا أقرأ كل رسالة منها وأتابع ما يجري في ساحة كربلاء ساعة بساعة، وقد أيقنت أن عمر بن سعد يشفق على الحسين ويمد له حبل النجاة، ويمنيه الأماني، ولو استمر الحال على هذا المنوال لأفلت الحسين ناجياً بنفسه وصحبه إلى مكة..

دعوت شمر بن ذي الجوشن، فقلت له:

ـ أخرج إلى عمر بن سعد، فليعرض على الحسين وأصحابه النزول على حكمي، فإن أبوا فليقاتلهم، فإن فعل فاسمع له وأطع، وإن هو أبى فقاتلهم وأنت أمير الجند، واضرب عنق ابن سعد وابعث إليّ برأسه!.. وإن قتلتم الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره، فإنه عاق مشاق، قاطع ظلوم، وقد زعم أنه يخدعني بعد أن وطىء أرضي، فيكر راجعاً من حيث أتى.. ولات حين رجوع!..

٧

رأس الحسين

اليوم الأول:

جاءت إلينا الأخبار تترى من ساحة كربلاء، فبلغني أنَّ الحسين لمَّا ضيِّق عليه رجالنا الخناق، عَبَّأَ أصحابه وهم اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً، وجعل خيامه وأثقاله في ظهر الساحة، وأمر بحطب وقصب يحْرق هناك بالنار لكيلا يهجم عليهم رجالنا من الوراء..

ثم دخل الحسين فسطاطاً فتطَلَّى بالدهون والروائح الزكية، وخرج فتتابع أصحابه على بقية هذه الدهون والروائح يتطيبون بها..

وركض جُنْدِيُّنَا المخلص في طاعتنا شمر بن ذي الجوشن خلف معسكر الحسين فوجد النار مشتعلة تمنع الاقتراب منه، فنادى بأعلى صوته يخاطب الحسين:

ـ يا حسين.. استعجلت النار في الدنيا قبل يوم القيامة؟!..

فسأل الحسين رجاله:

- من هذا الفاسق؟!..

قالوا:

- رجل من البُرْصَانِ يدعى شمر بن ذي الجوشن الضبابي، يتجنبه الناس لوقاحته وبرصٍ ينتشر في جلده من وجهه إلى قدميه!..

قال الحسين:

- قولوا له: يا بن راعية المعزى.. أنت أولى بالنار صِلِيّاً في الدنيا والآخرة..

قال أحد أصحاب الحسين:

- يا ابن رسول الله.. ألا أرميه بسهم، فإنه قد أمكنني، وليس يسقط مني سهم، وهذا الفاسق من أخبث الجبارين، وقد استحق القتل!..

قال الحسين:

- لا ترمه، فإني أكره أن أبدأهم بالقتال!..

وارتفع بكاء النساء والأطفال في معسكر الحسين خوفاً عليه وعلى أصحابه من القتل، فأرسل إليهن من أسكتهن، ثم وقف على مرتفع من الأرض بحيث يسمعه معسكره ومعسكرنا، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

- أما بعد.. أيها الناس، فانسبوني، فانظروا من أنا، ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعاتبوها فانظروا هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتي؟!.. ألست ابن بنت نبيكم؟ أو لم يبلغكم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة؟!.. أفما في هذا حاجز لكم عن سفك دمي؟!..

ثم قال يخاطب رجالنا:

- أخبروني.. أتطلبونني بقتيل منكم قتلته، أو مال لكم استهلكته؟!..

فأخذ رجالنا لا يكلمونه ولا يردون عليه بحرف وكأنهم لا

يسمعونه، فمضى يخاطبهم بأسمائهم واحداً بعد واحد، قائلاً:

ـ ألم تكتبوا هذه الكتب تطلبون أن أقدم عليكم، قائلين قد أينعت الثمار، واخضر الجناب، وصرتم لي جنداً مجنداً؟!..

فصاحوا:

ـ لا.. لم نفعل

قال:

ـ سبحان الله.. لقد فعلتم، أما إذ كرهتموني فدعوني أنصرف عنكم إلى مأمني من الأرض.

فلما رأى الحسين أن جندنا معرضون عنه، مكذبون لمقالته، قطع كلامه وعاد إلى أصحابه.. هذا ما بلغني حتى يومي هذا من رجال الخبر في معسكرنا بكربلاء..

اليوم الثاني:

يزحف جنودنا لقتال الحسين.. ولا يبدو أن الحسين ورجاله يفكرون في الاستسلام، بل إنهم يتحركون ويتكلمون كأنهم الغالبون وهم قلة قليلة لا تصمد ساعة واحدة إذا حمي القتال..

خرج أحد رجال الحسين فنادى في جنودنا:

ـ يا أهل الكوفة.. إنَّ حقاً على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن إخوة، وعلى دين واحد، وملة واحدة، ما لم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة، وكنا أمة، وأنتم أمة..

قال له بعض رجالنا:

ـ فما تريد؟!..

قال يستدر عطفهم على الحسين وأهله:

ـ إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية محمد صلى الله عليه وسلم، لينظر

ما نحن وأنتم عاملون.. إننا ندعوكم إلى نصرهم وخذلان الطاغية عبيد الله بن مرجانة!..

فارتفعت أصوات رجالنا بسبب هذا الرجل والثناء علينا نحن آل زياد، ودعوا لنا بخير، وقالوا: والله لا نبرح حتى نقتل الحسين بن علي ومن معه إن لم يستسلم ويسر معنا صاغراً إلى قصر الأمير عبيد الله بن زياد في الكوفة ليبايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية..

فعاد ذلك الرجل الملحاح من أتباع الحسين يناشدهم الله ويقول:

- عباد الله.. إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن مرجانة، فإن لم تنصروا ابن فاطمة الزهراء فلا تقتلوه، وخلّوا بينه وبين ابن عمه يزيد بن معاوية، فلعمري إن يزيد ليرضى من طاعتكم له بدون قتل الحسين!..

فانتفض رجلنا الشجاع شمر بن ذي الجوشن غاضباً ورمى الرجل بسهم وهو يقول له:

- اسكت.. أسكت الله نأمتك، قد سئمنا كثرة كلامك!..

لم يصب السهم الرجل، فصاح يخاطب شمر بن ذي الجوشن:

- يا شمر.. ما إياك أخاطب.. إنما أنت بهيمة!.. والله ما أظنك تحفظ من كتاب الله آيتين، فأبشر بالخزي يوم القيامة والعذاب الأليم!..

قال له شمر هازئاً منذراً إياه بسوء المصير:

- إن الله قاتلك وصاحبك الساعة!..

فصاح ذاك الرجل المتعصب يقول لرجالنا:

- عباد الله لا يغرنكم عن دينكم هذا الجلف الجافي البوال على عقبيه، فوالله لا تنال شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم قوماً أراقوا دماء ذريته وأهل بيته، وقتلوا من نصرهم وذب عن حريمهم.. ولعمري لقد

نصحت لكم وأبلغت لو نفع النصح والإبلاغ!..

اليوم الثالث:

وقع اليوم حادث خيانة في معسكرنا..

حادث جلل أوشك أن يفسد أمرنا كله، لأن الخائن هو الرجل الذي كنت أرسلته أول مرة أميراً على الجند.

لم يكد عمر بن سعد بن أبي وقاص أمير الأمراء في جندنا يأمر بالزحف على معسكر الحسين، حتى دنا الحر بن يزيد ـ قائد الفوج الأول من جنودنا ـ فقال لعمر:

ـ أصلحك الله أيها الأمير.. أمقاتل أنت الحسين بن علي حقاً؟!..

قال له عمر بن سعد:

ـ إي والله قتالاً يحز الرؤوس ويقطع الأيدي!..

قال له الحر بن يزيد:

ـ أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرضها عليكم رضا؟!..

قال عمر بن سعد:

ـ الأمير عبيد الله بن زياد يأباها!..

فانطلق هذا الخائن الحر بن يزيد، فأخذ يدنو من معسكر الحسين قليلاً.. قليلاً.. حتى لحق به، وقال للحسين:

ـ إني والله خيرت نفسي بين الجنة والنار، ووالله لا أختار على الجنة شيئاً ولو قُطِّعتُ وحُرِقْتُ، فهل لي ـ جُعِلْتُ فِداكَ يا ابن رسول الله ـ توبة يقبلها الله تعالى، فإني أنا الذي حبستك عن الرجوع إلى مكة، وحصرتك في هذا المكان، ووالله الذي لا إله إلا هو ما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم أبداً، والله لو ظننت أنهم لا يقبلونها منك ما منعتك أن تعود إلى مأمنك، وإني قد جئتك تائباً إلى الله، ومواسياً لك بنفسي، حتى أموت بين يديك، أفترى ذلك لي

توبة؟!..

قال له الحسين وقد اعتنقه إليه فرحاً بانضمامه إلى معسكره:

- نعم.. يتوب الله عليك، ويغفر لك.. أنت الحر كما سمتك أمك.. أنت الحر إن شاء الله في الدنيا والآخرة!..

- ثم وقف الحر بن يزيد يعلن خيانته البلقاء على جنودنا ويصيح فيهم:

- يا أهل الكوفة.. لأمكم الثكل.. إذ دعوتم ابن بنت رسول الله، حتى إذا أتاكم أسلمتموه وعدوتم عليه لتقتلوه، ومنعتموه التوجه في بلاد الله العريضة حتى يأمن ويأمن أهل بيته، وأصبح في يدكم أسيراً لا يملك لنفسه نفعاً، وأبعدتموه عن ماء الفرات الجاري الذي يشربه اليهودي والمجوسي وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه، وها هو وأصحابه قد صرعهم العطش!.. لبئسما خلفتم محمداً في ذريته!.. لا سقاكم الله يوم الظمأ إن لم تتوبوا وتنزعوا عما أنتم عليه!..

ثارت جنودنا غضباً فرموا معسكر الحسين كله بالنبال..

ثم إن رجلاً من جندنا جاء حتى وقف أمام الحسين فقال: يا حسين.. يا حسين فقال الحسين: ما تشاء؟.. قال له الرجل: أبشر بالنار!.. قال الحسين: كلا.. إني أقدم على رب رحيم!..

فاضطرب الرجل ونفر به فرسه، وتعلقت رجله في الركاب، فصار رأسه إلى الأرض، فأخذ يمر به الفرس على الأحجار فيضرب كل حجر رأسه حتى انفلق رأسه ومات!..

هذه الحادثة أفزعت رجالنا.. وكأنهم ظنوا أن للحسين قوة سحرية تؤثر فيهم..

كتبت إلى عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن: عزلتكما ووليت من هو أقدر منكما على حسمها، ولا تدعا الحسين بن علي يسحر الناس بكلامه وأفعاله!..

اليوم الرابع:

انتهت معركة كربلاء بعد خطوب طوال!..

وما ظننت أن رجالنا وهم بضعة ألوف يضطربون في معركة كهذه لا يواجههم فيها إلا سبعون رجلاً!..

كانت آخر ساعة للحسين في الدنيا أن طلب هدنة من رجالنا ليصلي، فقال له أحدهم:

ـ إن صلاتك لا يقبلها الله!..

فقال له أحد أصحاب الحسين:

ـ تزعم أن الصلاة من آل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تُقبل.. فهل تُقبل منك أنت يا حمار؟!..

وقد سرني أن رجالنا قتلوا الخائن الحر بن يزيد وغيره من الخونة الذي تركوا صفوفنا وانضموا إلى الحسين..

تكاثر رجالنا على الحسين وأهل بيته وأصحابه، وقاتل عنه هؤلاء جميعاً فقتلناهم واحداً بعد واحد، فلم يبق منهم أحد، ومكث الحسين النهار لا يجرؤ أحد على قتله، حتى أتاه رجل فضربه على رأسه بالسيف فلم يقتله، فقال الحسين يدعو ربه:

ـ رب إنْ تَكُ حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من هؤلاء الظالمين!..

ورماه أحد جنودنا بسهم فوقع في فمه فانتزعه وتلقى الدم من فمه بيده، ثم قال:

ـ اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تذر على الأرض منهم أحداً..

وأقبل شمر بن ذي الجوشن في جمع من رجالنا إلى خيام

الحسين وليس فيها إلا نساؤه وعياله، فقال لهم الحسين بصوت واهن:

ـ ويلكم!..إن لم يكن لكم دين وكنتم لا تخافون الله، فكونوا في أمر دنياكم ذوي أحساب، امنعوا أهلي من طغامكم وجهالكم!..

وقال له شمر:

ـ ذالك لك يا بن فاطمة!..

ومكث الحسين طويلاً من النهار ولو شاء جنودنا أن يقتلوه لفعلوا، ولكنهم تقاعسوا عنه، وأراد كل منهم أن يتقي عاقبة قتله.. فنادى فيهم شمر بن ذي الجوشن:

ـ ويلكم!.. ماذا تنتظرون بالرجل.. اقتلوه.. ثكلتكم أمهاتكم!..

فحملوا عليه من كل جانب طعناً بالرماح وضرباً بالسيوف.. وتقدم أحدهم إليه فذبحه واحتز رأسه، وسلبه الجند ما كان عليه من الملابس والسراويل، حتى نعليه.. وتكاثروا على أثقاله فنهبوا حلي نسائه وثيابهن حتى لم يبق على أجسادهن إلا الخرق البالية!..

هكذا انتهت أحدوثة الحسين والطالبيين جميعاً في كربلاء، وجاء الجند يحملون إلى مجلسي في قصر الكوفة رأس الحسين مرفوعة على سنان رمح طويل!..

٨

الجريمة والفتنة

اليوم الأول:

أتأمل الآن ما حدث في كربلاء وبعد كربلاء..

لقد كانت الضربة الأخيرة في الحسين نفسه، لأن أصحابه وأولاده وبني قومه قُتلوا جميعاً.. لم يبق إلا غلام صغير كان مريضاً يوم المعركة فلم يشترك فيها فجيء به إلى مجلسي مع بنات الحسين ونسائه وجواريه، وتأملته طويلاً، وقلت في نفسي: هل رأى هذا الغلام أباه الحسين والخيل تدوس ظهره وبطنه وهوعاري الظهر والبطن ملقى على الرمال مجرداً من كل رداء؟!..

هل اتعظ هذا الغلام الطالبيُّ من منظر أبيه، وعرف أن الخروج على أمير المؤمنين عاقبته الهلاك والخسران المبين؟!..

إن شيعة الطالبيين يزعمون أن بني الحسن والحسين لن يزالوا يقاتلون في سبيل الخلافة حتى يملكوها، فليت شعري ماذا يصنع بنو الحسن والحسين الآن وقد هلكوا جميعاً في كربلاء إلا هذا الولد الصغير للحسين وولد آخر للحسين، وكلاهما أهون من أن

يرفع رأسه في معصية أمير المؤمنين؟!..

إن نسوة الحسين قد أثرن مشاعر بعض الناس بنواحهن على قتلاهن، حتى ليتناقل أهل الكوفة ـ وهم قتلة الحسين وأصحابه ـ كلام أخته زينب بنت فاطمة لمّا مرت مع أخواتها وجواريهن بالحسين وأصحابه صرعى في العراء، فصرخت تقول: يا محمداه!.. يا محمداه!.. صلى عليك ملائكة السماء.. هذا الحسين بالعراء، مزمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه!.. وبناتك سبايا، وذريتك مُقَتَّلة تَسْفي عليها الرياح!..

لقد أبكت هذه الكلمات وغيرها بعض رجالنا فوبختهم وزجرتهم، وقلت لشيخ منهم: أبكى الله عينيك أبد الدهر.. فوالله لولا أنك شيخ كبير قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك!..

وقد غاظني بقاء أحد أولاد الحسين حياً.. فدعوت بعض رجال الخبر في جيشنا فسألته:

ـ كيف نجا هذا الغلام ولماذا لم تقتلوه؟!..

قال الرجل:

ـ أصلح الله الأمير.. إننا وجدناه في خيمة للنسوة طريحاً على فراش لا يقوى على الحركة من شدة المرض، فلما أراد شمر بن ذي الجوشن أن يقتله، قال له بعض رؤساء الجند: سبحان الله.. أتقتل الصبيان المرضى؟!.. ثم جاء أمير الجيش عمر بن سعد بن أبي وقاص، فقال للجند: دعوا هذا الغلام المريض لا تمسوه فإنه غير مقاتل!..

نظرت إلى الغلام واقفاً وسط نساء الحسين، وقلت له:

ـ ما اسمك؟!..

فسكت الغلام ولم ينطق بكلمة!..

قلت له:

ـ ما لك لا تتكلم؟!.. أأنت علي ابن الحسين؟!.. فمن يكون علي بن الحسين الذي قتله رجالنا في كربلاء؟!..

أنطقه هذا السؤال فقال:

ـ قد كان لي أخ يقال له أيضاً «علي».. قتله الناس!..

قطعت عليه قائلاً:

ـ بل قتله الله بسوء عمله!..

قال الغلام وكأنه يستفزني ويتحداني مستشهداً بالقرآن:

ـ ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾.. ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله﴾..

ـ ويلك.. إنك منهم!..نعم من بني علي بن أبي طالب، لا يخدعني عن حقيقتك هذ المرض البادي عليك، ولا يحجب عني عداوتك صغر سنك!..

ثم هتف بالجند:

ـ ويلكم.. انظروا هل أدرك هذا الغلام؟!.. هل بلغ الحلم؟!.. إني لأحسبه رجلاً!..

فسارع بعض الجند فكشط إزاره، وكشف عنه فوجده قد بلغ مبلغ الرجال، فصرخت في الجند:

ـ اقتلوه إذن.. انطلقوا به فاضربوا عنقه!..

فتعلقت به عمته زينب بنت علي، وقالت لي: يا ابن زياد.. حسبك منا، أما رويت من دمائنا؟!.. وهل أبقيت منا أحداً!..

نظرت ملياً إلى المرأة وقد اعتنقت ابن أخيها لا تفلته، حتى ظننت أنني لا بد أن أقتلها إن أردت قتله، فورد على قلبي من الرحمة لهما شيء غير قليل، وتعجبت للرحم وصلة القربى، ثم قلت للغلام، انطلق مع نساء بيتك إلى أمير المؤمنين في دمشق!..

اليوم الثاني:

اجتمع نساء الحسين ومعهم ابنه علي هذا المسمى زين العابدين استعداداً للرحيل فأمرت بالمناداة «على الصلاة جامعة» فاجتمع الناس في المسجد، فصعدت المنبر، وحمدت الله وأثنيت عليه، وقلت: «إن الله قد أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب، الحسين بن علي وشيعته»..

لم أفرغ من خطبتي حتى وثب شيخ ضرير من قدماء أتباع علي ابن أبي طالب في الكوفة فقال لي: «يا ابن مرجانة.. إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي وَلاَّكَ ـ يزيد ـ وأبوه ـ معاوية ـ.. يا ابن مرجانة.. أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين»؟!..

وثب الجلاوزة على هذا الشيخ الأحمق الجاهل فقتلوه، وأمرتهم فسحبوا جثته وصلبوها لتكون عبرة لمن يتطاول علينا بلسانه!..

ثم إنني أخرجت رأس الحسين من دار الإمارة وأمرت الجند فطافوا به الكوفة وهو مثبت على سن رمح، ومع رؤوس أصحابه وفيهم الشيوخ والرجال والغلمان والأطفال.. فلما شبعت عيون الناس من مشاهدتها، أمرت بها فأنزلت ودفنت ما عدا رأس الحسين فإني أخرجته مع القافلة المسافرة إلى دمشق، لعرضه على أمير المؤمنين!..

وأمرت بأن يُغَلَّ علي بن الحسين ـ الغلام المريض ـ بغل إلى عنقه، ثم سرحته مع نسوة بيته في موكب حاشد يقوده شمر بن ذي الجوشن إلى دمشق، وأمرت ابن ذي الجوشن ألا يفوته شيء يراه هناك..

اليوم الثالث:

عجباً لأمير المؤمنين كل العجب!..

لقد قاتلت أعداءه الخارجين عليه فلم أظفر منه إلا باللوم والتنديد!..

فقد حدثني شمر بن ذي الجوشن وغيره من قوادنا عند عودتهم من دمشق أن أمير المؤمنين لما رأى رأس الحسين، دمعت عيناه وقال: لعن الله ابن مرجانة.. أما والله لو أنني كنت صاحب الحسين في كربلاء لعفوت عنه، فرحم الله الحسين!..

ثم قال لجنودي:

ـ قد كنت أرضى منكم بدون قتل الحسين،فما دعاكم إلى قتله؟!..

ثم جلس مع أشراف الشام، ودعا بعلي بن الحسين ونسائه، فقال يزيد لعلي:

ـ يا علي.. أبوك قطع رحمي، وجهل حقي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما قد رأيت ولكني والله ما أمرت أحداً بقتله!..

ثم أمر يزيد بنسوة الحسين فأُنزلن في دار أنيقة وأعطاهن ما يصلحهن، وذهبت إليهن بنات أمية فأقمن المناحة على الحسين ثلاثة أيام بلياليها، وظل يزيد لا يتغدى ولا يتعشى إلا دعا علي بن الحسين إليه!.. وأعطى نسوة الحسين أضعاف ما سلبه جندنا من حليهن وثيابهن، وحرص على إظهار كراهيته لما فعلتُ بالحسين وأهله في كربلاء، وأوشك أن يبكي حين قالت له فاطمة بنت الحسين: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟..

ولما أراد آل الحسين أن يخرجوا من دمشق قاصدين المدينة، دعا يزيد علي بن الحسين فقال له: لعن الله ابن مرجانة.. لو كنت مع

اليوم الثاني:

اجتمع نساء الحسين ومعهم ابنه علي هذا المسمى زين العابدين استعداداً للرحيل فأمرت بالمناداة «على الصلاة جامعة» فاجتمع الناس في المسجد، فصعدت المنبر، وحمدت الله وأثنيت عليه، وقلت: «إن الله قد أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب ابن الكذاب، الحسين بن علي وشيعته»..

لم أفرغ من خطبتي حتى وثب شيخ ضرير من قدماء أتباع علي ابن أبي طالب في الكوفة فقال لي: «يا ابن مرجانة.. إن الكذاب ابن الكذاب أنت وأبوك، والذي وَلاَّكَ ـ يزيد ـ وأبوه ـ معاوية ـ.. يا ابن مرجانة.. أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بكلام الصديقين»؟!..

وثب الجلاوزة على هذا الشيخ الأحمق الجاهل فقتلوه، وأمرتهم فسحبوا جثته وصلبوها لتكون عبرة لمن يتطاول علينا بلسانه!..

ثم إنني أخرجت رأس الحسين من دار الإمارة وأمرت الجند فطافوا به الكوفة وهو مثبت على سن رمح، ومع رؤوس أصحابه وفيهم الشيوخ والرجال والغلمان والأطفال.. فلما شبعت عيون الناس من مشاهدتها، أمرت بها فأنزلت ودفنت ما عدا رأس الحسين فإني أخرجته مع القافلة المسافرة إلى دمشق، لعرضه على أمير المؤمنين!..

وأمرت بأن يُغَلَّ علي بن الحسين ـ الغلام المريض ـ بغل إلى عنقه، ثم سرحته مع نسوة بيته في موكب حاشد يقوده شمر بن ذي الجوشن إلى دمشق، وأمرت ابن ذي الجوشن ألا يفوته شيء يراه هناك..

الحسين لدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدي، ولكن الله قضى ما رأيت يا بني!..

وأشد ما حز في نفسي قول يزيد لعلي بن الحسين: لو كان ابن مرجانة يشعر بقرابة بينه وبينكم ما قتلكم، ولاستجاب إلى ما دعاه أبوك إليه من خصال..

كأنما يريد يزيد بن معاوية أن يسلخني من نسبي في بني أمية، وهو النسب الذي شهد به أبوه لنا قديماً، فصار اسم أبي زياد بن أبي سفيان، وأصبح أبي أخاً لمعاوية من أبيه..

فهل نسي هذا كله، بعد خدمتي إياه، وهل يكافئني على إخلاصي بسلخ النسب الأموي عني، فلا ينسبني إلا إلى أمي، ويرفض حتى أن ينسبني إلى أبي، ويصر أمام أشراف الشام على تسميتي ابن مرجانة، وإنما أنا عبيد الله بن زياد بن أبي سفيان ولو كره ذلك يزيد!..

اليوم الرابع:

جاءني رسول من يزيد بن معاوية يقول لي إن «المدينة» و«مكة» قد ثارتا، وإن أمير المؤمنين ينتدبني لإخماد ثورة المدينة، فإن فرغت منها انصرفت إلى مكة فأخمدت ثورتها كذلك!..

أدهشني هذا التكليف العجيب المريب، فهل شكر لي يزيد على ما صنعته له من قتل الحسين وشيعته حتى أنهض من جديد فأقتل له أهل مدينة رسول الله، ثم أهل حرم الله؟!..

عرضت الأمر على أمي، وهي أعقل الناس، فقالت لي:

ـ لا تجمع للفاسق قتل الحسين وقتل المهاجرين والأنصار، واعتذر إليه بعذر يعلم منه غضبك من سوء صنيعه لك بعد بلائك في طاعته!..

صرفت رسول يزيد بن معاوية بلا رد شاف، وجلست أفكر فيما يحاوله يزيد بن معاوية من تبرئة نفسه من قتل الحسين واتهامي به وحدي، وكأنه لم يأمرني به!..

اليوم الخامس:

هلك يزيد بن معاوية بعد قليل من غزوه مدينة رسول الله وتدميرها..

تولى الخلافة بعده ابنه المسمى معاوية، ويكنى أبا ليلى.. وأظن أنه لن يبقى في الخلافة إلا قليلاً، ثم يصبح الأمر لمن يتغلب على سائر الطامعين في الخلافة، مصداقاً لقول الشاعر:

إني أرى فتنة قد حان أولها والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

إن جيوش الخلافة الأموية محتشدة الآن في أرباض مكة تقاتل عبد الله بن الزبير الذي أعلن نفسه خليفة على المسلمين وأخذ بيعة أهل الحجاز واليمن، وستمتد دعوته قريباً إلى العراق.. ولم يبق لي إلا أن أجمع أمري وأفر بعيالي وأموالي من العراق إلى الشام، ريثما تنجلي الأمور، فقد انفرط العقد في البلاد، وكشفت الفتنة برقعها بعد طول خفاء!..

الجزء الثاني

الدولة المروانية

يوميات المختار
بن عبيد الله

١

عين الوردة(*)

اليوم الأول:

في سجن الكوفة الكبيرة يتسع لي مجال التفكير والتأمل في خمسة وستين عاماً عشتها حتى اليوم، فلا أجدني بلغت شيئاً من غاياتي طيلة هذا العمر المديد..ولدت في قبيلة ثقيف بالطائف في السنة الأولى للهجرة، وكان أبي من رؤسائها، وشهدت جيش المسلمين يحاصر أسوار الطائف في السنة الثامنة للهجرة بعد أن انهزمت ثقيف وحلفاؤها في معركة «حنين» التي نزلت فيها آيات من القرآن.

ثم رأيت بني ثقيف يدخلون الإسلام، أفواجاً، وصحبت أبي والكثيرين من رجال قبيلتنا في فتوح العراق على عهد عمر بن الخطاب.

وانغمست في الحرب والسياسة طوال عمري. وهأنذا في نهاية

(*) تشرح هذه القصة وتتضمن تاريخ أبطالها وأعمالهم، وهذا ما يجده القارىء في جميع قصص هذا الكتاب، بحيث يجد كل صورة تشرح نفسها في ثنايا القصة.

المطاف أقع في يد والي الكوفة ليزج بي في السجن لموالاتي آل البيت النبوي، وإصراري على الطلب بثارات كربلاء.

الكوفة الآن ـ في سنة ٦٥ للهجرة ـ تابعة لحكومة عبد الله بن الزبير التي أقامها في مكة ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين في صحن المسجد الحرام..

ولقد ناصرت هذا الرجل حيناً، وقاتلت معه العسكر الذي أرسله يزيد بن معاوية من الشام لغزو مكة، ولكنني بعد اختباري لابن الزبير مرة بعد مرة، رأيته لا يصلح للخلافة، فلا تدبير له ولا همة في مقاتلة الأمويين، ولهذا تركته وتقدمت إلى المسلمين داعياً إياهم بأن يتبعوني ويبايعوني على مقاتلة الأمويين والطلب بدماء بيت النبي، ورد حقهم في الخلافة إليهم، فأنا المختار الثقفي الذي ينصر الله به آل البيت..

ولن يطيب لي طعام ولا شراب ولا راحة حتى أقتل عبيد الله ابن مرجانة وجميع من شاركوه في سفك دم الحسين وأصحابه في كربلاء..

وقد جئت الكوفة أدعو شيعة آل البيت من العرب والموالي إلى مبايعتي على الطلب بدم الحسين. فوجدت أن غيري قد سبقني إلى هذه الدعوة. فقلت لهم: إني أنا صاحبكم الذي به ينصركم الله، وإني أنا الأمير المأمور، والأمين المأمون. وقاتل الجبارين: أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وإلى الطلب بدماء أهل البيت، والدفع عن الضعفاء، وجهاد المحلين.

لم يستجب إلى دعوتي إلاّ قليل من أهل الكوفة، والتف الأكثرون حول شيخ اسمه سليمان بن صرد الخزاعي، كانت له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ ستين سنة، وعاش

حتى قارب الثمانين من عمره، وقد نفض يديه من الدنيا ولم يبق له فيها من غاية إلاّ الطلب بدم الحسين.

أخبار هذا الرجل الطيب تصلني في السجن فبلغني أنه حين اجتمع مع كبار أنصاره قال:

أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر. والتعرض لأنواع الفتن، فنرغب إلى ربنا ألا يجعلنا ممن يقول لهم غدا:

«أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من يتذكر، وجاءكم النذير»؟!

ثم قال ابن صرب لأصحابه:

«سمعت يوماً أمير المؤمنين علي بي أبي طالب يقول إن العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة.. وقد مات أمير المؤمنين ولم يبلغ الستين. وأما نحن فجاوزناها وعشنا حتى ابتلانا الله فوجدنا كاذبين في الانتصار لابن بنت نبيّه. وقد سألنا نصره على ابن مرجانة عوداً وبدءاً، وعلانية وسراً، فبخلنا عنه بأنفسنا حتى قتل إلى جانبنا، لا نحن نصرناه بأيدينا، ولا جادلنا عنه بألسنتنا، ولا قويناه بأموالنا. فما عذرنا إلى ربنا، وعند لقاء نبيّنا وقد قتل فينا ولده وحبيبه وذريته ونسله؟! لا والله. لا عذر دون أن تقتلوا قاتله والموالين عليه، أو تموتوا في طلب ذلك، فعسى الله أن يرضى عنا.. ولسنا بعد لقائه لعقوبته بآمنين»!

اليوم الثاني:

جاءني اليوم في السجن من أخبرني أن ستة عشر ألف مقاتل قد بايعوا سليمان بن صرد الخزاعي على القتال حتى الموت، في الطلب بدم الحسين. فلما ناداهم إلى الخروج للقتال، لم يستجب منهم إلاّ أربعة آلاف، فقال له أحد أصحابه: إن المختار الثقفي من وراء

جدران سجنه يثبط عنك الناس ويقول لهم إنه القائد الموعود بالنصر، ولن ينصرهم الله إلاّ به!

وقد قلت ذلك حقاً قبل دخولي السجن إذ كنت أدعو الناس إلى الخروج معي، ولكنني لم أثبطهم عن الخروج مع سليمان بن صرد أو غيره من الثائرين على بني أمية والمطالبين بدم سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كنت أرى الخارجين مع سليمان بن صرد قلة لا تغني شيئاً في مقاتلة الجند الكثير الذي سوف يلقاهم وعلى رأسه عبيد الله بن مرجانة أو أحد قواده الذين تمرسوا بالحروب.

اليوم الثالث:

تملأ الكوفة أخبار الجيش الصغير الذي خرج به سليمان بن صرد لقتال عبيد الله بن مرجانة، فحدثني بعض من زارني في السجن أن سليمان بن صرد وأصحابه لما وصلوا في زحفهم إلى كربلاء.. ووقعت أعينهم على قبر الحسين ـ رحمه الله ـ صاحوا جميعاً وبكوا. وقال سليمان بن صرد: اللهم ارحم حسيناً الشهيد ابن الشهيد، المهدي بن المهدي، اللهم إنا نشهدك أننا على دينهم وسبيلهم، وأعداء قاتليهم، وأولياء محبيهم!

وسمع الناس مقالة ابن صرد فصاحوا صيحة واحدة: يا رب إنّا قد خذلنا ابن بنت نبينا، فاغفر لنا ما مضى منا، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين!

وأقام الناس عند قبر الحسين وقبور الشهداء يوماً وليلة يصلون ويبكون ويتضرعون، ثم ركبوا خيلهم وقد ملأهم الحنق على ابن مرجانة، واقسموا أن يقتلوه ولو كان في بروج مشيدة، عند مغرب الشمس أو في منقطع التراب!

وبلغني أن جيشاً لابن مرجانة قد خرج من مدينة الرقة على الفرات في الشام، قاصداً بلدة، عين الوردة، وأن جيش ابن صرد يسرع لدخول عين الوردة قبل أن يدخلها جند ابن مرجانة.

فلما بلغوا عين الوردة، قام ابن صرد في عسكره، فحمد الله فأطال. وأثنى عليه فأطنب. ثم ذكر السماء والأرض، والجبال والبحار وما فيهن من آيات، وذكر آلاء الله ونعمه، وذكر الدنيا فذمّها ودعا إلى الزهد فيها، وذكر الآخرة فدعا إلى طلب الجنة. ثم قال وهو يشير بيمناه إلى المعسكر الذي نزل فيه جيش ابن مرجانة: إن الله قد أتاكم بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل وأطراف النهار، تريدون التوبة النصوح.. أيها التوابون، فإذا لقيتموهم فاصبروا على قتالهم، إن الله مع الصابرين..

ثم قال: إن قتلت أنا فولوا عليكم أميراً غيري. فإن قتل، فولوا غيره، ورحم الله امرأ صدق ما عاهد الله عليه!!

اليوم الرابع:

بدأت ملامح القتال في «عين الوردة» تبدو شيئاً فشيئاً.. فقد تبين أن الجيش الذي أرسله ابن مرجانة يبلغ اثني عشر ألفاً، بينما ينقص جيش ابن صرد عن أربعة آلاف..

ويقود جيش ابن مرجانة قائد أموي معروف هو الحصين بن نمير الذي اشترك في اقتحام المدينة النبوية بعد معركة «الحرة» المشهورة.. ثم كان قائد جيش يزيد بن معاوية في حصار مكة وقتال عبد الله ابن الزبير.. وقد كنت أنا حينذاك في صف ابن الزبير، وعجز الحصين عن اقتحام مكة كما اقتحم المدينة النبوية من قبل، ولا ريب في أن هذا الحصين الماكر أبصر بالحرب وفنونها من سليمان بن صرد الفدائي الطيب، ومع الحصين فرسان الشام، وهو أكثر

عدداً وعدة وزاداً، وفي جعبته الأموال يشتري بها ولاء الناس. ولو استطاع لأعطى من هذا المال كل رجل في جيش ابن صرد. ولكن أصحاب ابن صرد قد خرجوا في طلب الآخرة لا في طلب الدنيا. وتابوا إلى الله حتى سماهم الناس «التوابين».

وحدثني زواري في السجن أنه لما التقى الجمعان، برز من جيش الحصين منادٍ جهير الصوت فدعا جيش التوابين إلى الجماعة والدخول في طاعة الخليفة الأموي الجديد: عبد الملك بن مروان.

فبرز منادٍ من جيش التوابين.. فقال ادفعوا إلينا عبيد الله بن مرجانة فنقتله ببعض من قتل من اخوتنا. واخلعوا عبد الملك بن مروان، وردوا أمر الخلافة إلى أهل بيت نبيّنا.

فأبى القوم على الجانبين أن يسمعوا هذا النداء أو ذاك.

اليوم الخامس:

دارت الحرب في «عين الوردة» فظفر جيش التوابين الصغير في البداية.. وقاتل رجاله قتالاً لم ير أحد مثله قط، وكثرت فيهم الجراح الثخينة. كما كثرت في عدوهم. ثم حجز بينهم الليل. وقام القاصّون والخطباء يشدون من عزائم جيش التوابين ويقولون: أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه، فحق والله لمن ليس بينه وبين لقاء الأحبة ودخول الجنة إلاّ ساعة، أن يكون بفراق الدنيا سخياً. وبلقاء ربه مسروراً..

فمكثوا كذلك حتى الصباح، وسار إليهم الحصين في عشرة آلاف، فاقتتل الجمعان أشد قتال إلى ارتفاع الضحى، ثم إن جند الشام أحاطوا بجند التوابين من كل جانب، وطوقوهم وضيقوا عليهم..

ورأى قائد التوابين ما لقي أصحابه من الهول، فكسر غمد سيفه ورماه، وتبعه جنوده فكسروا أغمادهم، وترجلوا عن خيلهم، وهجموا على الأمويين بالسيوف مصلتة في أيديهم. فقتلوا منهم مقتلة عظيمة. فلما رأى قائد جيش الشام بأس القوم واستماتتهم، أشار إلى رماة النبال فشدوا أقواسهم ورموا بها التوابين كأنها الأمطار. ثم جاءت خيل الشام والرجالة فأطبقوا على القلة الباقية من التوابين، فقتلوا قائدهم، وقتلوا ألفين من رجاله أو أكثر، وقال منادٍ فيمن بقي من التوابين فصاح:

«عباد الله ... روحوا إلى ربكم .. فوالله ما في الدنيا شيء.. أفضل من التوبة إلى الله.. وإنه قد بلغني أن طائفة منكم يريدون أن يرجعوا إلى ما فارقوه من أمر دنياهم، فأما أنا فوالله لا أولي هذا العدو ظهري حتى أشرب من كأس شرب منها إخواني الشهداء»..

فلما أمسى الناس. حجز الظلام بينهم، فسار أحد أصحاب سليمان بن صرد ـ رحمه الله ـ بمن بقي من جنده طوال الليل، وأصبح الحسين بن نمير قائد جند الشام، فإذا التوابون قد رحلوا، فلم يبعث في آثارهم أحداً، وأقبلوا إلى الكوفة، وطارت البشائر إلى دمشق تحمل إلى الخليفة الأموي الجديد نبأ النصر!

هكذا انكسر جيش التوابين الذين خرجوا ينشدون التوبة من تخاذلهم عن نصرة ابن بنت رسول الله.

ورحم الله قائدهم سليمان بن صرد.. لقد أدى الأمانة، ولكنه لم يكن الرجل الذي اختاره الله لقتل ابن مرجانة والانتقام من أعوانه المجرمين.. وقد قلت له آنفاً إنني ذلك الرجل المختار فلم يصدقني. وسيرى الناس منذ اليوم أنني أنا ذلك الرجل بإذن الله!

٢

زين العابدين وابن الحنفية(*)

اليوم الأول:

أخيراً فتح لي حاكم «الكوفة» باب سجنه الكبير، فخرجت منه بعد أن تعهدت لهذا الحاكم الأحمق بأني لن أخرج أبداً على حكومة عبد الله بن الزبير الذي نادى بنفسه خليفة للمسلمين، وجعل «مكة» عاصمة لخلافته، وامتد سلطانه إلى الكوفة والبصرة والموصل، وأرمينيا والمشرق واليمن، ولم يبق خارج سلطانه إلاَّ الشام ومصر، ولهما خليفة آخر هو عبد الملك بن مروان الذي يجلس على سرير دمشق.. وكلا الخليفتين يرى نفسه أحق بالخلافة من الآخر، ويحكم عليه بالإلحاد والفسق والخروج على الجماعة!

أما أنا وجماعة المسلمين في كل مكان، فلا نرى لهذين الغاصبين حقاً في الخلافة، ونراها حقاً خالصاً لآل بيت رسول الله

(*) زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الذي نجا من مذبحة كربلاء، وأما ابن الحنفية فهو عمه محمد بن علي بن أبي طالب، وأمه من بني حنيفة ولهذا يسمى ابن الحنفية.

صلى الله عليه وسلم.. وقد وجب علينا أن نقاتل الخليفتين الزبيري والأموي، وننتزع منهما ما اغتصباه، ونثأر ممن سفكوا دم الحسين في كربلاء، لا نفلت منهم أحداً، بادئين بقائدهم الطاغية عبيد الله ابن مرجانة!

وقد حان الوقت الذي يجتمع فيه الناس حولي للطلب بدم الحسين، فأنا المأمور بمقاتلة الطغاة، وأنا سافك دم الجبارين، وأنا داعية زين العابدين «علي بن الحسين» الذي نجاه الله من السيف في كربلاء ليكون خليفة هذا الزمان!

ولأكتبن إليه رسالة يحملها إليه في «المدينة» أحد أنصاري، مقترحاً عليه أن يأمرني بأخذ البيعة له في الكوفة والبصرة وسائر بلاد العراق.. ومتى تلقيت موافقة زين العابدين ومباركته بدأت من فوري أدعو إليه الناس!!

اليوم الثاني:

عادت فلول جيش سليمان بن صرد ـ رحمه الله ـ إلى الكوفة بعد هزيمته في معركة «عين الوردة» الدامية واستشهاد ابن صرد وكبار قادة جيشه وأكثر من ألفي مقاتل من جيشه الذي لم يكن يزيد على أربعة آلاف، بل لعله لم يزد على ثلاثة آلاف!

عادت أول جماعة قاتلت في سبيل الطلب بدم الحسين، فرحم الله قتلاهم، وآثابهم الجنة، يتبوأون منها حيث يشاءون، فقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. وحيا الله هؤلاء التوابين، شهداء وأحياء. فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر..

لقد عادت فلولهم من ـ عين الوردة ـ تنزف دماً، فرضي الله عن قائدهم الشهيد سليمان بن صرد، وألحقه بالصديقين والشهداء

والصالحين. وإن الجهاد الذي يرتقب التوابين لأكبر من جهادهم الذي مضى!

وهاأنذا أدعوهم أن يلتفوا حولي ويتخذوني قائداً لهم. لأن الأقدار اختارتني دون الناس جميعاً قائداً وزعيماً للطلب بدم الحسين، وإقامة سلطان آل البيت، والأخذ بناصر المستضعفين، والضرب على أيدي المستبدين!

والآن .. يجتمع الناس حولي، جماعة بعد جماعة، ولكن فريقاً منهم ما زالوا يتخوفون من الخروج على حكومة ابن الزبير. وإن كان الأشراف والسادة يتحدثون عن رغبتهم في الثأر من قتلة الحسين، والقيام في نصرة آل البيت..

ويبدو أنني سأنتظر وقتاً غير قصير حتى أجمع الناس حولي، فها هو ذا زين العابدين علي بن الحسين الذي أرسلت إليه أسأله أن يبارك مبايعتنا له بالخلافة، يرد طلبي رداً عنيفاً مخيباً للآمال. ويرفضه جملة وتفصيلاً. كأنه يتنصل منه ويبرأ إلى الله!

وإن زين العابدين لمعذور بلا مراء. فقد شاهد بعينيه أباه وأخاه الأكبر وجميع إخوته وأبناء عمومته وأنصار أبيه. يقتلهم جنود عبيد الله بن مرجانة في كربلاء. ويمثلون بجثثهم تمثيلاً شنيعاً!

ولسوف يبقى زين العابدين طوال حياته لا يجرؤ على التفكير في الخروج على خليفة، أو أمير أو وزير، أو حاكم بلدة، أو عامل قرية صغيرة.

ولا بد لي من التحول عنه إلى عمه محمد بن علي الملقب بابن الحنفية، وهو الوحيد الباقي من ولد أمير المؤمنين علي. من غير أبناء فاطمة الزهراء.

والناس ينسبونه إلى والدته من بني حنيفة. تفرقة بينه وبين ولد فاطمة. ولكن محمداً هذا لا يبالي هذه التفرقة، وقد عرفناه بجرأة الفؤاد، وحب الرياسة، والصبر على المكاره..

وهو لم يشهد كربلاء، فلا يشعر بالخوف من سيوف بني أمية ورماحهم كما يشعر زين العابدين.

وهاأنذا أكتب إلى ابن الحنفية. وأرسل إليه مع كتابي من الأموال أكثر مما أرسلت من قبل إلى زين العابدين.. فهذا المال من الفيء الذي هو حق خالص لآل البيت، وهم يقبلونه مني ولا يردونه. ؟؟

اليوم الثالث:

تلقيت موافقة محمد بن الحنفية على الطلب بثارات أهل البيت. والدعوة إلى مبايعتهم بالخلافة.

أعلنت لمن لاذ بي من بقايا التوابين وأنصار أهل البيت رسالة ابن الحنفية. فزاد التفافهم حولي، وجاء غيرهم من الناس فدخلوا في دعوتي، إلاّ أن أكبر زعماء الكوفة إبراهيم بن الأشتر النخعي قعد عن مناصرتي اليوم، ظناً منه أني أتكلم باسم ابن الحنفية بلا إذن منه ولا رضا، فمشيت إلى دار ابن الأشتر، فأطلعته على الكتاب الذي جاءني ومعه كتاب آخر إلى ابن الأشتر نفسه، يطلب فيه ابن الحنفية إليه مناصرتي.

قمت في صحن دار ابن الأشتر فتكلمت داعياً الحاضرين إلي مجاهدة الظالمين. وقلت موجهاً كلامي إلى ابن الأشتر:

«إن الله قد أكرمك، وأكرم أباك من قبل بموالاة بني هاشم ونصرتهم. ومعرفة فضلهم، وما أوجب الله من حقهم، وقد كتب إليك محمد

ابن علي بن أبي أطالب هذا الكتاب بحضرة هؤلاء النفر الذين معي».

فقال القوم جميعاً:

نشهد أن هذا كتابه، رأيناه حين كتبه على هذا الكاغد بخط يده!

ووقف ابن الأشتر فقال لي:

سمعاً وطاعة لمحمد بن علي، فقل أيها المختار ما بدا لك، وادع إلى ما شئت، فنحن معك في نصرة آل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بعد هذا التأييد من ابن الأشتر، أتوقع أن نستولي سريعاً على الكوفة، وأن تدين لنا العراق وسائر البلاد، وأن نبعث عمالنا إلى أذربيجان وهمذان وأصبهان وغيرها..

اليوم الرابع:

يبدو أن اللهفة إلى مقاتلة الطغاة والمحلين من بني أمية قد أوقعتنا في شيء كثير من التسرع الضار. فقد حشدت عشرين ألف مقاتل وأمرتهم بالزحف إلى الجزيرة ثم إلى الشام معقل بني أمية. وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان خليفة الأمويين في دمشق. فخرج بجيش كبير فلاقى جيشنا في «نصيبين» فانهزم جيشنا واستشهد عدد كبير من رجاله، وعادت فلوله تروي المأساة!

قلت لإبراهيم بن الأشتر:

ألا ترى يا إبراهيم أننا تعجلنا فوقعنا في الندامة، ولو أعددنا للأمر عدته كما كان يجب أن نعدها لما تفرقت أشلاء جنودنا فوق تلك الأرض التي يستميت في حمايتها عبد الملك بن مروان؟

قال ابن الأشتر:

إنما هو أنا أو أنت، فسر إليهم إن شئت، أو أسير أنا، فوالله لنقتلن الفاسق عبيد الله بن مرجانة، ولنهزمن جيش بني أمية.. وما أحسبك

أيها الأمير ـ أصلحك الله ـ بأحرص على قتال أهل الشام مني. ولا أحسن مني بصيرة في ذلك، على ما أنت عليه من حنكة ودراية بالحروب!

تبسمت لابن الأشتر وقلت:

إذن فسر أنت على بركة الله، فلن يجد جنودنا قائداً أبصر منك بالحرب. ولا أثبت فيها قلباً منك.. وإني انتخبت لك عشرين ألف رجل من أبناء الفرس في الكوفة مع من تنتخبهم من العرب ومن بقية جنودنا العائدين من معركتهم على تخوم الشام.

قال ابن الأشتر:

فأرى أن تفرق الأموال في الجند حتى تشتد قلوبهم. وأن تخص أشراف الكوفة وزعماءها بمال كثير فإن ذلك أجلب لولائهم. ولعل ما تركه عمال ابن الزبير في بيت مال الكوفة يفي بحاجتنا من المال.

قلت موافقاً:

نعم.. هذا هو الرأي، وقد ترك لنا عمال ابن الزبير في بيت المال تسعة آلاف ألف درهم. فقد كانوا يكتنزون المال ولا ينفقونه إسوة بخليفتهم البخيل الجالس في مكة، يأبى أن ينفق ديناراً أو درهماً!!

اليوم الخامس:

ثارت فتنة طائشة في الكوفة بتحريض الأمويين وأنصارهم، ومنهم قتلة الحسين. وخرج هؤلاء القتلة من مخابئهم التي كانوا قد لجأوا إليها بعد انتصار دعوتنا في الكوفة.. وظهر فجأة شمر بن ذي الجوشن وعمر بن سعد بن أبي وقّاص وقيس بن الأشعث وهم قادة كربلاء ورؤساء المذبحة فيها.

وفي الوقت نفسه سار عبيد الله بن مرجانة إلى ناحية الموصل فانتزعها من رجالنا. وأخذ يستجمع قواه للزحف نحو الكوفة

ومداهمتنا فيها.. وتحالف ضدنا المضريون واليمانيون. وكانوا دائماً على خلاف وعداء، إلاّ أنهم اتحدوا ضدنا!

ناديت في رجالي:

لا يهولنكم كثرة أعدائكم. واطلبوا بينهم قتلة الحسين فاقتلوهم أو اقبضوا عليهم وأئتوني بهم أحياء.

صاح جندنا: يا لثارات الحسين. فرد عليهم بعض أعدائنا: يا لثارات عثمان. ودارت بيننا وبينهم معركة طاحنة هزمناهم فيها وأسرنا منهم مئات، بحثت بينهم عمن اشتركوا في قتل الحسين. فوجدت منهم أكثر من مائتي رجل، قتلتهم جميعاً، وبينهم خولي ابن يزيد الذي احتز رأس الحسين وذهب به في كربلاء إلى أمير الجيش عمر بن سعد بن أبي وقاص يطلب الجائزة!

قبضت أيضاً على أمير الجيش عمر بن سعد وضربت عنقه.. وحضر ابنه حفص. فأمرت بضرب عنقه. ووضعت رأسه ورأس أبيه معاً في وعاء واحد. كما وضع أبوه رأس الحسين ورأس ابن الحسين في كربلاء.

هرب نحو خمسمائة رجل ممن قاتلوا الحسين في كربلاء، والتحقوا بمصعب بن الزبير في البصرة، وهو يحكم هناك باسم أخيه عبد الله بن الزبير.

وممن لجأوا إلى البصرة شمر بن ذي الجوشن الذي لن يطيب لي طعام ولا شراب حتى أشفي غليلي منه بسفك دمه جزاء ما صنعه بالحسين وأصحابه في كربلاء.

وأما قيس بن الأشعث ـ وهو من أكبر سفاحي كربلاء ـ فإنه استجار بأحد رجالنا في الكوفة فأجاره، ولكني رددت عليه هذا

الجوار، وأمرت الجند فأحضروه إلى مجلسي، فقمت فانتصبت سيفي، فضربت عنقه، وأخذت رأسه!

غضب صديقنا الذي كان قد أجاره وقال لي:

أيها الأمير.. لقد قتلت رجلاً استجار بي!

قلت له:

اسكت! أتستحل أن تجير رجلاً قتل ابن بنت نبيك؟!

ثم إنني دعوت ببقية الأسرى، فجعلت أضرب أعناقهم، حتى انتهيت إلى رجل منهم قال لي:

أيها الأمير .. لستم أنتم الذين قاتلونا وهزمونا..

قلت له:

فمن إذن قاتلكم وهزمكم؟!

قال:

قتلنا قوم بيض الوجوه على خيل شهب!

قلت وقد تملكني السرور:

نعم .. تلك الملائكة! ويلك، أما إذ رأيتهم فقد وهبتك لهم!

ثم خليت سبيل هذا الرجل الذي زعم أنه رأى الملائكة يحاربون في صفوفنا!

ولما تتبعت قتلة الحسين من أهل الكوفة. جعل عظماؤهم يتسللون هاربين إلى البصرة، لائذين بمصعب بن الزبير، حتى اجتمع هناك عشرة آلاف هارب.. ولكني لن أدعهم هاربين ولو تعلقوا بالسحب. أو طاروا في الفضاء..

لقد انتصرنا على هؤلاء، ولكن بقيت أمامنا معركتان لا بد أن ننتصر فيهما، أولاهما معركتنا مع الجيش الذي يقوده عبيد الله بن

مرجانة، وقد بلغني أنه يتحرك زاحفاً إلينا في الكوفة، ليقتحم علينا عقر دارنا!

٣

رأس ابن مرجانة(*)

اليوم الأول:

أراني قد مكثت طويلاً أطارد المجرمين الذين قتلوا الحسين، فأمسك بهم واحداً بعد واحد، وأقتلهم، وابعث برؤوس قادتهم إلى «المهدي» محمد بن الحنفية حيث يقيم في مكة أو في المدينة.

وقد جبيت الأموال من سواد العراق والجبال والري وأصبهان وأذربيجان والجزيرة، وقربت مني أبناء العجم. وفرضت لهم ولأولادهم الأعطيات، وباعدت العرب وأقصيت كبراءهم وحرمتهم. فغضبوا من ذلك، وعاتبني أشرافهم فقالوا لي:

أصلحك الله أيها الأمير، نراك قربت إليك العجم وأبعدتنا وحرمتنا ونحن أشراف العرب!

قلت لهم هازئاً بهم:

أبعدكم الله فإني أكرمتكم فشمختم، ووليتكم الخراج فكسرتموه

(*) هو عبيد الله بن زياد بن أبيه، حكم العراق بعد وفاة والده زياد الذي كان اليد اليمنى لمعاوية بن أبي سفيان حتى إن معاوية اعترف به أخاً له من أبيه.

وهؤلاء العجم أطوع منكم وأوفى، وأسرع إلى ما أريد، لا يشمخون بأنوفهم، ولا يفخرون بأنسابهم وأحسابهم!

خرج هؤلاء الأشراف من مجلسي. فدنا بعضهم من بعض، وقالوا: إن هذا المختار كذاب، يزعم أنه ينصر بني هاشم، ويثأر للحسين، وإنما هو يطلب الدنيا، ولا يبتغي إلاّ أن يكون أميراً يجلس على السرير، ويطوف الناس من حوله قائلين: السلام عليك أيها الأمير!

ولست بالكذاب كما زعم هؤلاء الحاقدون، وقد تجردت لكل مـن شرَكَ في دم الحسين وأهل بيت النبي، وقلت من فوق المنبر:

«ما من ديننا أن نترك قتلة الحسين أحياء في الدنيا آمنين. بئس ناصر محمد والله أنا إذن.. إن تركتهم.. وأنا إذن الكذاب كما زعم أعدائي، وإني أستعين بالله عليهم»!

وقد علمت أخيراً أن عمرو بن الحجاج الذي شهد مقتل الحسين. والذي بحثت عنه لأقتله، ركب راحلته وذهب إلى الصحراء فأوغل فيها، حتى مات عطشاً وجوعاً فقلت: الحمد لله الذي قتله وكفانا التعب في طلبه!

وأما الأبرص اللئيم، سفاح كربلاء، شمر بن ذي الجوشن، فوقع في أيدي رجالنا فقتلوه، وقطعوا لحمه قطعاً للكلاب!

واليوم جاءني رجالنا بجماعة من الأسرى، وجدت بينهم رجلين من قتلة الحسين، فلما رأيتهما قلت لهما:

يا أعداء الله، أين الحسين؟! أدوا إلي الحسين؟

سكت الرجلان فقلت لهما وقد تملكني الغضب:

يا أعداء الله قتلتم من أمركم الله بالصلاة عليهم؟!

قال أحد الرجلين متوسلاً:

رحمك الله أيها الأمير، إنما رحنا إلى القتال كارهين. فامنن علينا بعفوك.

صرخت فيهما:

هلا مننتم على الحسين، ابن بنت نبيكم، فاستبقيتموه وسقيتموه؟!

وأشرت إلى جنودنا. فامسكوا بالرجلين وقطعوا رأسيهما!

وجيء بأسرى آخرين. فلما مثلوا بين يدي تأملتهم فوجدتهم مذعورين من القتل، فقلت لهم:

يا أعداء الله ورسوله.. يا قتلة الصالحين، وقتلة سيد شباب أهل الجنة الحسين.. قد ثأر الله منكم اليوم!

وكرهت أن أقتلهم في مجلسي بدار الإمارة فأمرت بهم فأخرجهم الجند إلى السوق وقطعوا رؤوسهم هناك!

وبعثت إلى المهدي محمد بن الحنفية برأس عمر بن سعد بن أبي وقاص ورأس ابنه حفص، وكان عمر بن سعد قائد جيش ابن مرجانة في كربلاء. ومع الرأسين كتبت رسالة قلت فيها:

«إلى المهدي محمد بن علي بن أبي طالب. من المختار بن أبي عبيد.. أما بعد.. فإن الله قد بعثني نقمة على أعدائكم آل البيت، فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد، فالحمد لله الذي قتل قاتليكم. ونصر مؤازريكم، وقد بعثت إليك رسولي هذا برأس عمر بن سعد وابنه، وقد قتلنا ممن شَرَكَ في دم الحسين وأهل بيته رحمة الله عليهم، كل من قدرنا عليه، ولن يُعجز الله من بقي منهم. حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم أحد».

اليوم الثاني:

عاد إلينا اليوم رسولنا الذي كنا بعثناه إلى محمد بن الحنفية في مكة يحمل إليه رأس عمر بن سعد ورأس ابنه، فحدثني الرجل قال:

أصلح الله الأمير.. إن المهدي محمد بن الحنفية كان يعتب عليك تأخيرك قتل عمر بن سعد وهو قائد جيش القتلة في كربلاء، وسألني في ذلك فأجبته بأن ابن سعد كان هارباً فتأخر قتله لذلك!

قلت للرجل أستزيد من حديثه:

وكيف صنع المهدي حين دخلت عليه تحمل رأس ابن سعد ورأس ابنه؟!

قال الرجل:

لم يكد يراهما ويعرفهما حتى خر ساجداً لله شكراً، ثم رفع رأسه وبسط كفيه وقال: اللهم لا تنسَ هذا اليوم للمختار. واجزه عن بيت نبيك خير الجزاء، فوالله ما على المختار بعد هذا عتب!

حمدت الله على الرضا الذي ظفرت به من المهدي محمد بن الحنفية، وقلت في نفسي: لم يبق من رؤوس مجرمي كربلاء إلاّ رأس عبيد الله بن مرجانة!

وأين عبيد الله بن مرجانة الآن؟! إنه يربض بجيشه الضخم في الموصل. ويحدث نفسه بالزحف على الكوفة، وانتزاعها منا وقتلنا جميعاً كما قتل الحسين وأصحابه في كربلاء وأن ابن مرجانة لمغرور جهول. تحدثه نفسه بما لا سبيل إليه.

اليوم الثالث:

اكتمل جيشنا فعقدت لواءه لإبراهيم بن الأشتر القائد الشجاع البصير بالحروب..

ثلاثون ألفاً من أكثر رجالنا حماسة، وأشدهم رغبة في الثأر لدماء أهل البيت في كربلاء.

ولكن هل تكفي ثلاثون ألفاً لمقاتلة جيش عبيد الله بن مرجانة الذي زحف على العراق فاستولى على الموصل، وجاني من رجال

الأخبار الذين بعثتهم للتجسس عليه، أن ابن مرجانة يقود جيشاً كثيفاً لا يقل عن سبعين ألفاً من جند الشام الأشداء الذين ران الجهل على قلوبهم فلا يعرفون من الدنيا غير الولاء الأعمى لبني أمية، ولا يروننا إلاّ مارقين خرجوا على الجماعة. ونبذوا الطاعة!

وضعت نظاماً محكماً للاستخبار بحيث تصلني أخبار المعركة المرتقبة بين جيشنا وجيش الأمويين، مرتين في اليوم، أو مرة في الأقل..

يعسكر جيشنا الآن بالقرب من الموصل في مكان على نهر الخازر من فروع دجلة، وأخذ إبراهيم بن الأشتر يُعبّىء كتائبه. وهو يرى غير بعيد غباراً كثيفاً تثيره سنابك خيل الأمويين، قادمة إلى نهر الخازر، كأنهم ـ وعلى رأسهم ابن مرجانة ـ يتعجلون المعركة، واثقين بالنصر الحاسم.

إن عبد الملك بن مروان خليفة الأمويين الجديد. لم يدخر وسعاً في تزويد بن مرجانة بالرجال والعتاد والمال، ولكن جيشنا لن يتمزق أشلاء على الرمال كما تمزق جيش التوابين من قبل. وسيذوق الظالمون وبال أمرهم.

اليوم الرابع:

جاءت الأخبار تترى من ميدان المعركة على نهر الخازر..

التقى الجمعان هناك، ولكن السيوف ما زالت في أغمادها، وقد تراءت لنا وجوه أهل الشام وعلى رأسهم عبيد الله بن مرجانة والحصين بن نمير، وعدد من قتلة الحسين، في جمع غفير لا يحصيه إلاّ الله، حتى ليقدر رجال استخباراتنا عددهم بمائة ألف!

وصل إلى معسكرنا في الليل اثنان من أكبر قواد جيش ابن مرجانة، فالتقيا بقائدنا إبراهيم بن الأشتر وزعما له أنهما سينضمان إليه بعسكرهما إذا نشبت المعركة فيكون في ذلك خذلان الأمويين.

هذان الرجلان من القيسيين المضريين الذين اضطهدهم مروان ابن الحكم وابنه عبد الملك. وفضلا عليهم الجنود القحطانية اليمانية، حتى صار المثل يضرب في الشام بالعداوة بين القيسي واليماني!

قال لهما إبراهيم بن الأشتر:

ما جاء بكما إلينا في هذه الساعة من الليل؟!

أجاب أحدهما وكأنه لا يريد أن يكشف سبب مجيئه:

لقد اشتد غمي ـ أيها الأمير ـ منذ دخلت عسكرك، وذلك أني لم أسمع فيه كلاماً عربياً حتى انتهيت إليك.. وإنما معك هؤلاء الأعاجم وقليل من العرب. وقد جاءك صناديد أهل الشام وأبطالهم. فكيف تلقاهم بمن معك م من هذه الحمراء الأعجمية؟!

قال ابن الأشتر:

والله لو لم أجد إلاّ الحصا لقاتلت به الأمويين، فكيف وما من قوم أشد بصيرة في القتال من هؤلاء الأعْجام الذين تراهم معي، وإنما هم أولاد الأساورة من أهل فارس. والمرازبة. وسأضرب الخيل بالخيل، والرجال بالرجال، والنصر من الله!

اليوم الخامس:

عبأ إبراهيم بن الأشتر جيشه بعد صلاة الفجر، وأخذ يمر على أصحاب الرايات ويقول:

«يا أنصار الدين، وشيعة الحق، وشرطة الله.. هذا عبيد الله بن مرجانة قاتل الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله، الذي حال بينه وبين ماء الفرات وهو ينظر إليه، ومنعه أن ينصرف بأهله ويذهب في الأرض العريضة، ثم قتله وقتل أهل بيته، فوالله ما عمل فرعون كما عمل ابن مرجانة، ووالله إني لأرجو ألا يكون الله قد جمع بينكم وبينه في هذا الموطن إلاّ ليشفي صدوركم بسفك دمه على أيديكم. فقد علم الله أنكم خرجتم غضباً لأهل بيت نبيكم».

دارت المعركة، فكانت هولاً هائلاً لم ير العرب والعجم أشد منه قط..

انهزمت ميسرتنا في البداية. فأخذ الراية أحد أمراء جيشنا وصرخ في جنودنا:

لا تتراجعوا يا شرطة الله، فهذا أميركم ابن الأشتر يقتحم قلب جيش ابن مرجانة فاحملوا معه..

وانحاز القيسيون في جيش ابن مرجانة إلى جيشنا، فتضعضع ابن مرجانة وقواده وجنوده، وأعمل فيهم رجالنا سيوفهم فاستأصلوهم. ورمى الكثيرون منهم بأنفسهم في نهر الخازر فغرقوا. فكان الغرقى من جيش الأمويين أكثر من القتلى!

ولم يكد غبار المعركة ينجلي حتى قال ابن الأشتر لبعض جنودنا.

يا قوم. إني قتلت في المعركة رجلاً تفوح منه رائحة المسك، ضربته بسيفي ضربة قسمته نصفين، راح القسم الذي فيه رأسه ويداه شرقاً، وراح القسم الذي فيه رجلاه غرباً فابحثوا عنه!

بحث جنودنا عن هذا القتيل المقسوم نصفين. فإذا به عبيد الله ابن مرجانة، ومعه الحصين بن نمير أكبر قواد جيشه الذي كان قد

اقتحم مكة والمدينة في عهد يزيد بن معاوية ومع هذين عدد من كبار قادة جيش الأمويين!

احتز الجنود رأس عبيد الله بن مرجانة ورؤوس قواده. وأوقدوا ناراً ليحرقوا فيها جثة ابن مرجانة، فاندلعت النار وهي تفوح برائحة المسك الذي ضمخ به جسده وثيابه قبل المعركة، مختلطة برائحة الشواء الكريهة منبثة من جسده المكتنز لحماً وشحماً!

٤

الكرسي والراية

اليوم الأول:

تلقت «الكوفة» اليوم رأس عبيد الله بن مرجانة. يحمله بعض جندنا على سنان رمح طويل.

فلما دخلوا إلى مجلسي في دار الإمارة خررت ساجداً لله عزَّ وجلّ. ففي هذه الدار كان ابن مرجانة يحل الأمور ويبرمها. ويجلس في أبهة الملوك. والناس من حوله متوافرون خاشعون كأنهم في صحن مسجد. يرقبون حركاته وسكناته، ويتلقفون كلماته وإشاراته!

وفي هذه الدار ـ منذ سنوات قلائل ـ جلس ابن مرجانة ينتظر رأس الحسين. فلما دخلوا به، أمر فوضعوا الرأس على الأرض. وأمسك بقضيب. وجعل ينكت أسنان الحسين مُتلهّياً، ويعبث بشعر رأسه ويقول ساخراً: لقد وخط الشيب رأس هذا الرجل!

وها هم أولاء رجالنا قد ثأروا لله من ابن مرجانة. وجاءوا إلى مجلسي في قصر الكوفة برأسه ورؤوس كبراء جيشه الذين

حصدتهم سيوفنا في معركة نهر الخازر، فلله درّ قائد جندنا إبراهيم ابن الأشتر. ما أعظم بلاءه في الثأر لدم الحسين المهراق في كربلاء. والثأر لله من هذه الطغمة التي كفرت ملء قلوبها وعقولها!

سبعون ألفاً من جنود عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي الجديد في الشام، لم يبق منهم أحد. فهم بين ذبيح بالسيف، وطعين بالرمح. وغريق في النهر. وجريح هارب لم يبلغ مأمنه إلاّ في رمقه الأخير.

لقد كنا الفئة القليلة فنصرنا الله على الفئة الكثيرة، مصداقاً لما بشّرنا به الكتاب العزيز، واحتوينا معسكر ابن مرجانة بما احتوى من مال وسلاح وعتاد ومؤن وطرائف لا تحصى، كانت في حوزة هؤلاء القوم الذين ألهاهم الشيطان بحظوظ نفوسهم، وملأ صدورهم بالأماني.

نظرت إلى رأس ابن مرجانة ورؤوس أصحابه مرصوصة قبالتي، فحمدت الله وأثنيت عليه وقلت: هذا يوم له ما بعده. ولن يتم الأمر على ما يُرضي الله ورسوله إلاّ بقتل ذينك الفاسقين الملحدين اللذين يدعيان الخلافة: عبد الملك بن مروان في دمشق، وعبد الله ابن الزبير في مكة.

أمرت الجند فأزاحوا رؤوس القتلى جانباً. وقلت لأحدهم:

إنك شهدت معركة نهر الخازر، فحدثني. ما صنعت أنت فيها لله أبوك. فإنه ليقال إنك من أفرس الناس وأشجعهم وأضربهم بالسيف.

قال الرجل وقد أعجبه ثنائي:

أصلح الله الأمير.. إن قائدنا إبراهيم بن أشتر اختارني في أول الزحف

لأستطلع الأمر في عسكر ابن مرجانة، فلقيني رجل من عسكره فصاح في وجهي شاتماً. «يا شيعة أبي تراب.. يا شيعة المختار الكذاب».. فما رددت على قبح هذا الشتم، وقلت له: يا هذا.. إن ما بيننا وبينكم أعظم شأناً من الشتم! فقال لي: يا عدو الله.. إنكم تقاتلون مع غير إمام!

صَمَت رجلنا هذا الشجاع عند هذه الكلمة، وكأنه ارتجَّ عليه، فصرفته وجلست أفكر.

نعم.. إن هذا الرجل الشجاع لعلى حق في صمته عن ذلك الأموي السليط اللسان، فإن الأمويين يروننا على الباطل لأننا نقاتل وليس لنا إمام، ويقاتلون هم، وعليهم إمام، هو عبد الملك بن مروان الذي يقال له عندهم: أمير المؤمنين!

وحتى حزب الزبيريين يقاتلنا ويقاتل الأمويين، وله إمام وأمير للمؤمنين..

ولقد بيّنت لابن الحنفية أن أمرنا لا يستقيم حتى يكون لنا إمام نقاتل تحت رايته، ورجوته غير مرة أن يأذن لي بمبايعته أميراً للمؤمنين، فلم يأذن، لأنه ـ مثل زين العابدين بن الحسين ـ يخشى عاقبة هذا الأمر.. وها نحن أولاء نقاتل وليس لنا إلاّ هتاف نقذف به وجوه أعدائنا في كل لقاء: يا لثارات الحسين!

فكيف نهزم عدوين جبارين. لكل منهما إمام، ونحن نجوب الأرض من الشام إلى العراق إلى الحجاز وليس لنا إمام؟!

وكيف تبلغ النصر المنشود ونحن مشغولون بعملين جسيمين: عمل مع أنصارنا نثبتهم به على الطاعة ولزوم الجماعة برغم افتقارنا إلى إمام.. وعمل آخر ضد أعدائنا نزحزحهم به عن مواضعهم، ونثأر به من طغاتهم؟!

اليوم الثاني:

ما زال رأس ابن مرجانة ورؤوس أصحابه قابعة في دار الإمارة، ولا بد من إرسالها إلى محمد بن الحنفية وزين العابدين وبني هاشم في مدينة رسول الله.

جاء الجند بسلة كبيرة فوضعوا فيها هذه الرؤوس التي كان الشياطين تحوم على خواطر أصحابها، وتركب وساوسهم طوال حياتهم الشريرة.

جلست فكتبت رسالة إلى محمد بن الحنفية أقول فيها:

«إن شرطة الله، أنصاركم وشيعتكم، قد خرجوا إلى عدوكم، فنصرهم الله، وأدركوا ثأركم، وشفى الله صدور قوم مؤمنين».

وأمرت بثلاثين ألف دينار فوضعت في صرة كبيرة، ومعها طرائف وهدايا كثيرة، وقلت لرئيس الجند:

خذ هذه السلة الملأى برؤوس أعداء الله، فادفعها إلى المهدي محمد ابن الحنفية، وادفع إليه هذه الصرة من المال، وافتح هناك أذنيك وعينيك لما تسمع وترى.. وعد إلينا متعجلاً من أقصر طريق!

مضى الجند بما يحملون، ولا أدري ما تأتي به الأيام، فإن انتصارنا على بني أمية في معركة الخازر، قد فتح علينا باب معركة جديدة مهولة يستعد لها مصعب بن الزبير وقد ولاّه أخوه عبد الله، البصرة، وبلاد فارس وكرمان وما وراءها، فجمع المال والرجال، وأخذ يشن الغارات على أطراف أرضنا، كأنه ينذرنا بالموقعة الفاصلة التي يتوهم أنه يقتلعنا بها من الكوفة، فيصفو له ولأخيه العراق كله.

اليوم الثالث:

عاد الجنود الذين بعثناهم إلى المدينة بعد أن سلموا الرؤوس والأموال هناك، فسألت كبيرهم عما سمع ورأى، فقال:

أصلحك الله أيها الأمير.. لقد شفي النصر في موقعة الخازر قلوب أهل البيت، فلم يكد المهدي، ابن الحنفية، يرى رأس ابن مرجانة ورؤوس قادة جيشه، حتى خرّ ساجداً لله، ودعا لك بكل خير، وقال: جزى الله المختار أحسن الجزاء وأوفاه، فقد أدرك لنا ثأرنا.. اللهم احفظ المختار، وإبراهيم بن الأشتر، وانصرهما على الأعداء. ووفق المختار لما تحبه وترضاه. واغفر له في الآخرة والأولى.

قلت للرجل مستزيداً:

وكيف وجدتم بني هاشم حين دخلتم عليهم بالرؤوس؟

قال:

وجدناهم جالسين على الغداء فقاموا عنه فرحين مهللين وأشار زين العابدين بن الحسين إلى رأس ابن مرجانة وقال: إن الله لا يُفلت الطغاة الظالمين.. هذا رأس ابن مرجانة نتلقاه ونحن على الغداء. ولقد تلقى ابن مرجانة رأس الحسين في دار الإمارة بالكوفة منذ سنوات وهو يومئذٍ جالس يتغدَّى، فوضع رأس الحسين إلى جانبه، ومضى يكمل غداءه.

وما فعل بنو هاشم الآخرون؟

لم يبق منهم أحد إلاّ قام فتكلم بالثناء عليك أيها الأمير.. وقال عبد الله بن عباس: «إن المختار قد أدرك ثأر بني هاشم».. ودعا لك دعاء جميلاً.

ثم قال الرجل وكأنه تذكر شيئاً:

أصلحك الله أيها الأمير.. إن عقيلات بني هاشم أيضاً يشكرن لك مسعاك في الطلب بدم الحسين والثأر له. وعلمتُ من إحدى عجائز المدينة أن الهاشميات قد عدن إلى الاكتحال والاختضاب بالحناء، إذ شفى الله صدورهن بثأرك لهن مما جرى عليهن في كربلاء. وكن قد امتنعن خمس سنوات عن الاكتحال والاختضاب منذ سَفَكَ ابن مرجانة دم الحسين، حتى قتل الله ابن مرجانة.

اليوم الرابع:

يضطهد عبد الله بن الزبير بني هاشم في مكة والمدينة ويطالبهم بمبايعته أميراً للمؤمنين.. رفض المهدي محمد بن الحنفية وزين العابدين بن الحسين وعبد الله بن عباس وغيرهم مبايعة ابن الزبير، فأخذ يسب علي بن أبي طالب فوق المنابر كما يفعل الأمويون، فما ترك هذا الأحمق لنفسه فضلاً يراه الناس له على بني أمية!

إن ابن الزبير ينتزع بالسيف بيعة أهل الحجاز، فأي فرق بينه وبين المغتصبين المتغلبين، خلفاء بني أمية، من معاوية إلى يزيد إلى مروان بن الحكم، إلى ابنه عبد الملك هذا الذي يسمي نفسه الآن أميراً للمؤمنين في الشام؟!

زجَّ ابن الزبير بعض أولاد محمد بن الحنفية في السجن، وقبض على ابن الحنفية وأنذره لئن لم يبايعه ليقتلنه أو ليحرقنه بالنار، فاستعصم ابن الحنفية بالدين والإباء والشمم، وقال له: لئن اضطهدتنا وجهلت حقنا، لقد اضطهدنا بنوا أمية من قبلك وجهلوا حقنا.. فوالله لا نبايعك حتى تجتمع الأمة كلها على مبايعيك.

جاءني اليوم رسول من ابن الحنفية قطع الطريق من مكة إلى الكوفة، وثباً وثباً في يومين وليلتين.. قال لي:

أيها الأمير.. البدار، البدار إلى انقاذ سيدنا المهدي وبني هاشم، فإن أبا خبيب ابن الزبير ـ قد سجنهم وسامهم الخسف والعذاب... وقد أظلمت أيامهم كأنما تطلع عليهم بحلكة الليل لا بغُرّة النهار!

دعوت إلى الصلاة جامعة، ووقفت على المنبر أستصرخ الناس:

يا شرطة الله... هذا مهديكم، وصريح أهل بيت نبيكم قد بات ومن معه في مكة محصوراً عليهم. كما يُحصر على الغنم.. ينتظرون

التقتيل والتحريق في الليل والنهار. لست المختار إن لم أنصرهم نصراً مؤزراً، وإن لم أبعث الخيل في أثر الخيل، كالسيل يتلوه السيل، حتى يحل بابن الزبير الدمار والويل!

بكى أهل الكوفة، ولطموا خدودهم، إشفاقاً على بني هاشم، ونظراً لهم، وتحرقاً إلى نجدتهم وضجوا هاتفين: ابعثنا أيها الأمير نبذل نفوسنا في نجدة المهدي وآل البيت!

اليوم الخامس:

أخبرني اليوم أحد رجالنا أنه عثر على الكرسي الذي كان يجلس عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رحمه الله فقلت للرجل:

سبحان الله! وكيف أخرته عني حتى اليوم؟! أسرع فجئني به، ولك الجائزة!

جاء الرجل وقومه بالكرسي وقد عصبوه بالديباج والحرير، فأمرت له باثني عشر ألف درهم، واجتمع الناس يتطلعون إلى الكرسي فقلت لهم:

إنه لم يكن في الأمم الخالية أمر إلاّ وهو كائن في هذه الأمة مثله.. وإنه كان في بني إسرائيل التابوت، وفيه بقية مما ترك موسى وهارون، وإن هذا الكرسي فينا مثل التابوت!

كشفت عن الكرسي أثوابه وكبّرت ثلاثاً فكبر الناس. ولكن رجلاً قام فقال يا معشر المسلمين لا تكفروا، فطردت هذا الرجل وناله الأذى من الناس!

ثم خرجت بالكرسي على بغل.. يمسكه عن يمينه سبعة، وعن يساره سبعة، ويحف به الناس، وقلت في نفسي: لقد فسد الزمان، ونافق الناس، وكذبوا وضلوا ضلالاً بعيداً، فلا يجمعهم حولي إلاّ

هذا الكرسي، فهو ملاذي وقد أبى ابن الحنفية أن أبايع له بالخلافة وأقاتل بإسمه وتحت رايته.. فليكن هذا الكرسي المبارك هو الراية التي أتفيّأ ظلالها، وأقاتل تحتها وليقل من شاء ما شاء.

٥

الخوف والدعاء

اليوم الأول:

انتشرت قصة «الكرسي» في الآفاق، حتى بلغت عبد الله بن الزبير في مكة، حيث يرفع رايات دولته المزعومة ويسمي نفسه «أمير المؤمنين».. فسخر ابن الزبير من الكرسي المبارك، وقال لأتباعه: ما كان لعلي بن أبي طالب كرسي يجلس عليه قط، وما عرفناه إلاّ رجلاً متقشفاً يجلس مع الناس على الأرض، وما أظن المختار الذي أخرج للناس هذا الكرسي، إلاّ مشعوذاً كذاباً يجمع الناس حوله بالأكاذيب والشعوذة.

وغضب بعض رجالنا، وقالوا لي:

> إن الذي زعم لك أن هذا كرسي علي بن أبي طالب قد خدعك، فاحجب هذا الكرسي عن الناس حتى لا يفتنهم. فقد نصرك الله على ابن مرجانة بعد أن رفعت لهم هذا الكرسي مُعَصَّباً بالحرير والديباج. فظلنوا أن فيه سراً خفياً يجلب لك النصر على أعدائك وأعداء آل رسول الله، ولو تركت الناس في عمايتهم هذه لارتفعوا بأمر هذا الكرسي حتى يتعاطوا الكفر.

قلت لأصحابنا أهدئهم:

فإني لا أحجب هذا الكرسي حتى أفحص عن أمره، وأعرف سره، فإن كان كرسي الإمام علي حفظته وتبركت به، وإلاّ حجبته أو حطمته وكشفت حقيقته للناس، فإني أنا رائدهم في طلب الحق، وإن الرائد لا يكذب أهله.

لم أكد أقول ذلك حتى أقبل الرجل الذي كان قد حمل إلينا الكرسي، فقمت فأخذت بتلابيبه وقلت له مهدداً:

إن لم تصدقني في أمر هذا الكرسي قتلتك، فماذا هو، ومن أين جئت به؟

ارتعد الرجل خوفاً وقال:

لا والله أيها الأمير ـ أصلحك الله ـ ما هو بكرسي علي بن أبي طالب!

صرخت فيه:

ويلك .. فمن صاحبه؟

صاحبه رجل مسكين يبيع الزيت والبقول، اشترى هذا الكرسي من رجل فارسي ووضع عليه أواني الزيت، وطال عليه الأمد عنده، فوجده قد صار قديماً ملطخاً بالزيت والتراب فأعطانيه بدرهمين، وظننت أني أنتفع بخشبه، ثم بدا لي أن أهديه إليك، فنظّفته من التراب والزيت وكسوته بالحرير والديباج، وزعمت فيه ما زعمت طمعاً في جائزة أنالها منك!

صرفت الرجل وقد كدت أن أقتله، واستغفرت الله عزَّ وجلّ، وندمت على ما صنعت، وقلت في نفسي: إن الناس يكذبون علينا بأمثال هذه القصة وليزدلفوا إلينا ويأخذوا جوائزنا فليت كذبهم علينا لا يتعدى هذه القصة وأمثالها!

اليوم الثاني:

لم يكن الكرسي الذي حجبناه عن الناس إلاّ راية نحاول أن نرفعها فوق رؤوسنا، بعد أن ضنّ علينا محمد بن الحنفية براية تحمل اسمه. فهذا الرجل يخاف من عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين في مكة، كما يخاف من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين في الشام، فليت شعري أين يذهب به الخوف الآن وقد صار في الخوارج أيضاً أمير للمؤمنين.. فهؤلاء ثلاثة أمراء للمؤمنين قد توزعوا أرض الإسلام، ورفع كل منهم رايته فوق بقعة منها، وأنا منذ سنتين أكتب إلى محمد بن الحنفية أن يأذن لي في مبايعته أميراً للمؤمنين فلا يأذن، مع كونه صاحب الحق، والحق لا ينتصر بالاستحقاق وحده، وإنما بالعمل لإحقاقه وانتزاعه من غاصبيه.

لقد تفرقت الأمة شذر مذر. وفي موسم الحج هذا العام ـ ٦٨ للهجرة ـ وقف على جبل عرفات بمكة لواء لعبد الله بن الزبير، ولواء لعبد الملك بن مروان، ولواء لنجدة الحروري الذي بايعه الخوارج بالخلافة.. فهؤلاء ثلاثة خلفاء وقف أشياعهم تحت ثلاث رايات في موسم الحج، ولو كان محمد بن الحنفية قد أذن لي بالمناداة به أميراً للمؤمنين، لوقف تحت راية وارفة الظلال إلى جانب رايات هؤلاء الأمراء. ولكنه وقف مع جماعته بغير راية وهو أحق أهل زماننا بالراية والصولجان.

إلاّ أنني لم أتركه وحيداً بين هذه الرايات الثلاث، فوجهت إليه مائة وخمسين مقاتلاً، دخلوا المسجد الحرام وهم ينادون: يا لثارات الحسين، حتى انتهوا إلى زمزم، وأظهروا بأسهم، وقالوا لابن الزبير: لتخلين سبيل ابن الحنفية والهاشميين أو لنجلدنّك بأسيافنا! فخافهم ابن الزبير، وكفّ عن ابن الحنفية وآل رسول الله ومن والاهم..

أرسلت مع الجند إلى ابن الحنفية أربعمائة ألف درهم، فقسم المال بين الهاشميين حتى شعروا بالعزة والمنعة، وتركهم ابن الزبير وشأنهم.

اليوم الثالث:

لا أجد الآن سياسة أفضل من مهادنة ابن الزبير، فإن مهادنته تتيح لي تثبيت أقدامي في العراق والحجاز، وما زلت أرجو أن ينضو ابن الحنفية ثياب الخوف ويأذن لي في المناداة به أميراً للمؤمنين، لأنني لا أستطيع أن أجمع الناس حولي أمداً طويلاً بغير إمام يبايعونه ويقاتلون تحت رايته..

وقد كثر الأئمة من حولنا، ووثب أتباعهم يقاتلون من أجل الدنيا أو من أجل الآخرة، ونحن نقاتل في طلب الثأر للحسين وآل البيت.

فماذا بعد الثأر وقد أدركناه، ولم يبق من قتلة الحسين أحد؟

لقد أوشك جنودي أن يملوا وينفضوا من حولي، ويقولوا لي: لن نقاتل بغير إمام!

وإن خالِصَتي وثقاتي وصفوة رجالي ليحثونني على متابعة الكتابة إلى ابن الحنفية أسأله مرة بعد مرة أن يقبل البيعة له بالخلافة ليكون لجنودنا إمام يقفون تحت رايته.. وما أشد خيبة أملي من رده على آخر رسائلي إليه، إذ كتب يقول:

«أما بعد، فقد قرأت كتابك وعرفت تعظيمك لحقي، وما تحبه من سروري، وإن أحب الأمور إلينا ما أطعت الله فيه، فأطع الله ما استطعت، وإني لو أردت القتال لوجدت الناس إلينا سراعاً، والأعوان لنا كثيراً، ولكني أعتذر اليكم، واصبر حتى يحكم الله، وهو خير الحاكمين».

هذا هو الرجل الذي نقاتل باسمه، ونبعث إليه برؤوس أعدائه، ويضن علينا أن نسميه أميراً للمؤمنين، لأن مصير أخيه الحسين يفزّعه وينزع منه الثقة بأن النصر سيتم لنا في هذا الصراع القائم على الخلافة الآن بين الأمويين والزبيريين والخوارج، وبيننا نحن أنصار البيت النبوي.

فماذا بعد هذا اليأس والعجز والفزع، إلاّ إنحلال قوتنا واضمحلالها، ثم فشلنا وذهاب ريحنا، وإن كنا على الحق، وأعداؤنا على الباطل؟

لقد ثرنا على بني أمية طلباً بدم الحسين، وعلى بني الزبير لادعائهم الخلافة، وعلى الخوارج لانقطاع صلتهم بالخلافة أصلاً، فهم ـ وإن كانوا عرباً ـ ليسوا من قريش، فكيف وليس لأحد من قريش حق في الخلافة، إلاّ المهدي محمد بن الحنفية رئيس آل البيت عليهم السلام؟!

هل أبايع نفسي بالخلافة؟! إذن ينفض الناس من حولي ولا أجد لي نصيراً، ثم يقتلني من كان يقول لي: فداك أبي وأمي!

لقد أدركت ثأر أبناء النبيين، وشفيت صدور المؤمنين، ولست أحفل بالموت إذا أتى ويسميني أعدائي بالكذاب، ولكنهم سيعلمون صدقي في حربهم، وما حاربتهم حتى يومي هذا إلاّ أهون حروبي، وليعلمن نبئي بعد حين.

اليوم الرابع:

فشلت مهادنتي لابن الزبير لأنه أدرك أني أريد مخادعته لا مهادنته، والحرب خدعة وليس علينا من بأس في مخادعة عدونا!

كتبت إلى ابن الزبير:

«إني اتخذت الكوفة داراً، فإن سوغتني ذلك، وأمرت لي بألف ألف درهم، سِرت إلى الشام فقاتلت عدوك وعدوي عبد الملك بن مروان»!

ثم توالت عليه كتبي، وجاءتني كتبه أماكره ويماكرني، حتى بعث عبد الملك بن مروان جيشاً صغيراً يريد به الاستيلاء على مدينة رسول الله وانتزاعها من ابن الزبير، فكتبت إلى ابن الزبير:

«قد بلغني أن ابن مروان بعث إليك جيشاً فإن أحببت أمددتك بجيش يؤازر جيشك».

فجاءني من ابن الزبير كتاب يقول:

«إن كنت على طاعتي، فبايع لي الناس في الكوفة، وادخلهم في طاعتي، ثم أنفذ الجيش ليقاتل ابن مروان قبل دخوله المدينة».

دعوت أحد قوادي فسيّرته في ثلاثة آلاف، أكثرهم من الموالي، وليس فيهم من العرب إلاّ سبعمائة رجل، وقلت له:

«سر حتى تدخل المدينة، فإذا دخلتها فاكتب لي بذلك حتى يأتيك أمري».

كان مقصودي أن يدخل جنودي المدينة ويثبتوا فيها أقدامهم، ثم أعززهم بجند آخرين، فإذا كثروا بعثتهم لمحاصرة ابن الزبير في مكة، وضرب أحدوثته هناك، فإذا تمّ ذلك، سرت إلى أخيه «مصعب» في البصرة فقاتلته وطردته من العراق أو قتلته في مكانه!

فطن ابن الزبير للخديعة، فأمر جنوده في المدينة فهجموا بغتة على رجالنا، فلم يبق حياً من رجالنا إلاّ نحو مائة عادوا إلينا وقد أثخنتهم الجراح، وأوشكوا أن يموتوا جوعاً.

نبهتني هذه الوقعة إلى الخطر الداهم الذي يحيط بنا من جميع الجهات، مع أننا متحصنون متحرزون من أعدائنا جميعاً، نسد

عليهم السبل حتى لا تدهمنا خيلهم ليلاً أو نهاراً، وإن هزيمتنا في «المدينة» خطبها هين إن لم تستثر علينا أطماع أعدائنا.

اليوم الخامس:

عقد مصعب بن الزبير حاكم البصرة هدنة طويلة مع الخوارج، وغايته أن يتفرغ لحربي، وقد أعدَّ جيشاً بقيادة المهلب بن أبي صفرة ذي الشهرة الواسعة في قيادة الجيوش. فهل يظن مصعب أنني أخشاه وأنا أبو اسحاق المختار. أجمع الناس على الحق، وألقى بهم كتائب الباطل، وأهلك بهم كل جبار عنيد؟

أفكر الآن في إبراهيم بن الأشتر قائد جيشنا الذي هزم ابن مرجانة وقتله في معركة نهر الخازر العظيمة، وبعد أن هزم رجالنا ابن مرجانة وقتلهم في معركة عين الوردة.

ومن لي الآن بابن الأشتر! لقد أقام في الموصل منذ انتصاره في تلك المعركة، واقررناه على ولايتها وما حولها من أعمال واسعة، ولو كان معنا الآن في الكوفة لوليته قيادة هذا الجيش الذي أعددته للقاء جيش ابن الزبير بقيادة ابن أبي صفرة.

دعوت القائد أحمر بن شميط فعهدت إليه بقيادة جيشنا، وأمرته بالمسير من فوره لملاقاة جند ابن الزبير الزاحفين على الكوفة!

ولكني متخوف من الغد، وقد تجمعت فوق رأسي سحائب سُود، تضمر لي البروق والرعود والصواعق، ولا أجد موئلاً إلاّ الدعاء إلى الله، والاستنجاد بآل البيت لعلهم يذكرونني في دعائهم المستجاب.

يا آل محمد.. يا آل بيت رسول الله.. ألوذ بدعائكم في كربي، وأبثكم همومي ومخاوفي من ظلم الناس وخيانتهم.

أنكرني الناس وسموني «الكذاب».. فقولوا يا آل محمد إني الصادق في حبكم.. يا آل محمد!

اخترطت سيفي أطلب ثأركم، يا آل محمد، فاتهمني الناس بطلب الدنيا، ولو طلبتها لبقي دم الحسين مطلولاً بلا ثأر، يا آل محمد..

من «عين الوردة» انهمرت دموع محبيكم المستشهدين في سبيلكم، حزناً على شهدائكم في كربلاء.. وفي نهر الخازر قتل الماء العذب بحد سيفه أعداءهم غرقاً يا آل محمد.

لكن أعداءكم يا آل محمد يتكاثرون على أنصاركم ليقتلوهم أو ينفوهم من الأرض، وأنتم عنا متباعدون يا آل محمد.. تدعون لنا بالنصر، ولكن لا تعترفون بنا، ولا ترفعون فوق رؤوسنا رايتكم.. يا آل محمد؟

أسبابي عاجزة يا آل محمد.. فانتصروا لي!

٦

الكذاب تحت الحصار

اليوم الأول:

جاءني «صاحب الأخبار»، في ديواننا يقول:

أعز الله نصرك أيها الأمير.. إن مصعب بن الزبير قد حرّك جيشه من البصرة وعليه أكبر قواده المهلب بن أبي صفرة، وأمره ألا يتوقف حتى يقتحم علينا الكوفة فيقتلنا ويهدم دولتنا.

صرفت صاحب الأخبار، ودعوت أحمر بن شميط قائد جيشنا وكان قد تأهب وضرب خيامه في أرباض الكوفة ينتظر أمري بالمسير لاستقبال القوم ومناجزتهم: قلت له.

إن جنود مصعب بن الزبير ليسوا أكثر من جنودك عدداً ولا عدة، فإن معك ستين ألف مقاتل من العرب والعجم، أنضجتهم الحروب. وأحمت قلوبهم الحماسة لآل رسول الله. فإذا لقيت ابن الزبير وجنوده فلا تبدأهم بالقتال، بل أخرج إليهم وقل لهم: إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنّة رسوله، وإلى مبايعة المختار، وإلى أن نجعل الخلافة شورى بين المسلمين. يولونها من يختارون من آل رسول الله.

وأوصيت ابن شميط بمن في جيشه من الجند العجم، فإنهم

عدته إذا حمي الوطيس، ثم ودعته وجيشه، وسرت معهم بعض ساعة أغبر قدمي في سبيل الله تعالى حتى خرجوا من أرباض الكوفة!

وإن ابن شميط لشجاع مخلص لنا، ولكنه امرؤ خالص النية لا يعرف مكر الحروب، ولولا أني مريض بداء في البطن لا أعرف له دواء، لخرجت إلى هذه المعركة بنفسي، لأني أعرف غدر مصعب ابن الزبير ومكر قائده المهلب ابن أبي صفرة، ولا أرى بن شميط نداً لهما في المكر والغدر، ومكيدة الحرب، وإن كان نداً لهما في الضرب بالسيف والرمح. والصبر والشدة في رهج القتال!

اليوم الثاني:

جاءني أصحاب الأخبار، في ديواننا بما كنت أخشى أن يقع فيه قائدنا ابن شميط من مكر أعدائنا وكيدهم.

فإن مصعب بن الزبير بعث إليه دسيساً خبيثاً زين له أن يجعل جنوده العرب وحدهم على الخيل، ويجعل جنوده العجم مشاة، وقال له:

> يا ابن شميط .. إن هؤلاء الأعجام عبيد خوارون عند المنازلة، فإذا صدمهم مصعب ابن الزبير بكتائبه أصابهم الهلع فطاروا على الخيل وتركك وجندك العرب مأكلة لسيوفه.

انخدع ابن شميط بما نفثه في روعه جاسوس ابن الزبير، وأنزل جندنا الأعاجم عن الخيل، وأركب العرب وحدهم، ثم نادى بالزحف وهو على هذه التعبية التي رسمها له جاسوس ابن الزبير.. فاللهم دبر لابن شميط فإنه لا يحسن التدبير لنفسه. ورد كيد ابن الزبير إلى نحره، وانصرنا على أعداء آل رسول الله.

إن أخبار المعركة تتوالى، فقد هجم جيش ابن الزبير بخيله

ورجله. واستقبلهم جنودنا بسيل من السهام. وثبتوا لهم ثباتاً عظيماً، واستحر القتل في أعدائنا، ولكنهم لم يتراجعوا بل دفعوا إلى المعركة بمجموع لا يحصيها إلاّ الله، وصاح قائدهم ابن أبي صفرة يثبط عزائم جنودنا العرب:

الفرار اليوم أنجى لكم! علامَ تقتلون أنفسكم أيها العرب مع هؤلاء العبيد من العجم؟

اليوم الثالث:

تجيء الأنباء تترى من ميدان القتال.. فلا الشجاعة ولا الثبات ولا اليقين بالهدف، مما يغني شيئاً عن الخطة المحكمة، والتدبير الماكر في الحرب.

وقد تفوق علينا عدونا بخطته وتدبيره، وحمل علينا حملة منكرة، ومالت خيله على العجم الراجلين في جيشنا فانهزموا، وقال قادة ابن الزبير لجنودهم الذين أسكرتهم خمرة الدماء: أيما أسير أخذتموه من جيش المختار فاضربوا عنقه، فإننا لا نريد أحداً منهم حياً، فخذوا منهم ثأركم واستأصلوهم..

وجنّ جنون الزبيريين فصاروا يقتلون المستسلمين من رجالنا، وقال قاضي البصرة وهو من الزبيريين المتعصبين إن دماء عسكر المختار أحلّ عندنا من دماء كفار الترك والديلم.

وبلغني أن هذا القاضي الذي يحكم بالشرع يفخر قائلاً لأصحابه:

انتهيت إلى رجل من جند الكذاب ـ المختار ـ فأدخلت سنان رمحي في عينه فأخذت أخضخض عينه بالسنان حتى وقع ميتاً.

فقيل له: أفعلتَ هذا ورأيته حلالاً؟ قال: نعم.. إنهم عندنا أحلّ دماءً من سائر أهل الكفر.

لم يفلت من رجالنا سالماً إلاّ القليل، واستشهد قائدهم أحمر بن شميط ومن حوله من القادة والفرسان، وأعمل الزبيريون سيوفهم في العجم من جنودنا الذين لم يتمكنوا من سرعة الانسحاب لأن قائدنا ابن شميط أنزلهم عن الخيل وجعلهم مشاة استجابة للنصيحة الماكرة التي دسها إليه ابن الزبير على لسان أحد جواسيسه.

ولم يستطع النجاة والعودة إلى الكوفة إلاّ قلائل من أصحاب الخيل، طرقوا باب قصر الولاية صبحاً، فخرجت إليهم وقد استطارني نبأ الهزيمة، وقال قائلهم:

أيها الأمير .. إن مصعب بن الزبير يسير بجيوشه، وقد عبر دجلة، وأخذ طريقه إليك، وإن طلائعه لقريبة من الكوفة، وما من فارس ولا راجل من جنودك يقف الآن في طريقه، فقد هلك جيشنا إلاّ فلولاً تاهت في البادية، وإن لم تبادر إلى ملاقاة ابن الزبير بمن بقي معك، دخل عليك الكوفة وأنت فيها!

اليوم الرابع:

ناديت في بقية من كان معي من جنودنا، وفتحت لهم خزائن السلاح والأموال، وقلت لهم:

يا شرطة الله .. لا يداخلن اليأس قلوبكم مما جرى على إخوانكم في القتال، فإنهم استشهدوا ولحقوابمن سبقهم من شهدائنا في عين الوردة و«الخازر».. فهم أحياء عند ربهم يرزقون، ونسأله ـ سبحانه ـ أن يكتب لنا النصر أو يلحقنا بهم في عليين..

وقدم علينا من الحجاز أحد الطالبيين فسألته:

هل معك كتاب من محمد بن الحنفية؟

قال:

بل جئت إليك ولا كتاب معي منه!

أشحت عن هذا الرجل وقلت له:

انطلق إذن حيث شئت فلا حاجة بي إلى مثلك.

لقد بلغت في جهادي من أجل بيت النبوة هذا المفترق المخوف من الطرق، ولكن ابن الحنفية ما زال يضن بكتاب يعلن فيه مباركته لجهادي وقبوله مبايعتي له أميراً للمؤمنين.. لقد تملكه الخوف من ابن الزبير وابن مروان والخوارج، وإن مصير أخيه الحسين ليتمثل له في كل سبيل، فلا يزيده إلاّ خوفاً وإحجاماً عن مناصرتي!

وقد أقبل مصعب بن الزبير في البر والبحر، وسار يريد الكوفة. فما من الموت بد،، وما من ميتة، أموتها أحب إليَّ من أن أموت كابن شميط قائد جيشنا الذي خدعه ابن الزبير فلما أحس الخديعة قاتل حتى استشهد.

اليوم الخامس:

خرجت بمن اجتمع حولي من شرطة الله.

التقيت بمقدمة جيش مصعب بن الزبير فألحقت بها هزيمة ساحقة، وسقط قائدها قتيلاً، وتناثرت جثث رجاله في ميدان المعركة الضارية التي استمرت طوال الليل، وسقط حصاني من سهم أصابه في رقبته. فترجلت وقاتلت مترجلاً ساعات طوالاً، لا أجد فرساً يحملني، ولا سيفاً أستبدله بسيفي الذي تكاثرت على حده الفلول من مقارعة الأعداء فوجاً بعد فوج، وهم يتزايدون ونحن نتناقص، وكان إلى جانبي رجل باسل ممن شهدوا معركة صفين مع الإمام علي بن أبي طالب قبل ثلاثين عاماً، فسمعته يقول وهو يخوض في صفوف العدو:

اللهم إني في هذه المعركة على ما كنت عليه في صفين من محاربة أعداء الإمام علي وآل بيته..

ثم جالد هذا البطل حتى تكاثر عليه الزبيريون فقتلوه.

وانقصف أصحابنا بعد هذه الوقفة الباسلة، كأنهم أجمة قصب اندلعت فيها النار، وأخذنا ننسحب سراعاً إلى مشارف الكوفة، وقاتلنا على أفواه السكك عامة ليلتنا تلك أشد قتال، وثبت معي رجال، وتفرق عني آخرون، حتى قال لي بعض ثقاتي:

أيها الأمير .. إن بقينا في مكاننا حاصرنا جنود مصعب وأبادونا، والرأي أن نعود إلى الكوفة فتدخل قصرك فإنه حصين مشحون بالسلاح والطعام، ثم تعتصم به وتقاتل حتى يأذن الله بأمره.

استصوبت هذا الرأي وتراجعت ورجالي فتحصنت بالقصر، واقترب جيش مصعب فضرب علينا الحصار، وأحصيت ما في خزائن القصر من السلاح والزاد فإذا هو قليل، وإذا ماء البئر ملح لا يساغ ولكني وجدت بعض جرار مملوءة عسلاً فأخذت ورجالي نمزج ماء البئر بالعسل ونشربه إذا اشتد بنا العطش..

لم يبق معي من الجموع الغفيرة إلاّ بضع مئات من العرب وألفان من العجم، وهم يخرجون من القصر أحياناً في غفلة من ابن الزبير، فيرميهم الناس من فوق البيوت بالحجارة، ويصبون عليهم الأقذار، وما ظننت أن أهل الكوفة ينقلبون علينا في محنتنا، ولكن هذا ديدنهم فقد خذلوا أهل البيت قديماً، وحاربوا الحسين وقتلوه وها هم أولاء يعاودون غدرهم ونفاقهم، وينكثون بيعتهم لنا، وينحازون إلى عدونا وينصرونه علينا!

اليوم السادس:

مضت أربعة أشهر والحصار مضروب علينا، حتى نفد الزاد، وتكسرت السهام والرماح، وقل عدد الرجال، وخالط اليأس القلوب، فقلت لمن بقي معي:

ويحكم .. إن هذا الحصار لن يزال مضروباً عليكم حتى تستسلموا لعدوكم أو تموتوا جوعاً وعطشاً.. والله ما أنا بيائس من النصر إن خرجنا على القوم فأخذناهم على غرة فقتلناهم!

قالوا لي وقد نكسوا رؤوسهم:

قد ضعفنا عن ذلك، وإن خرجنا من هنا لم نزدد إلاّ ضعفاً وذلاً!

قلت لهم غاضباً:

كأنكم تريدون الاستسلام، ولئن فعلتم ذلك ليقتلنكم ابن الزبير وأنتم مكتوفون بالحبال ينظر بعضكم إلى بعض، ويومئذٍ تقولون نادمين: ليتنا أطعنا المختار فمتنا كراماً..

تركتهم وشأنهم، ودخلت غرفة لي فتطييت وتحنطت ولبست أكفاناً تحت ثيابي، ثم خرجت فإذا بالقصر قد خلا إلاّ من تسعة عشر رجلاً آثروا البقاء معي، أما سائرهم فتدلوا بالحبال من القصر واستأسروا لابن الزبير! ولم يبق بعد إلاّ أن أخرج من القصر مع هؤلاء الرجال التسعة عشر فأقاتل جيش ابن الزبير وقد اجتمع فيه عرب العراق بقضهم وقضيضهم، ولا بد لي أن أفعل ذلك أو أكون كذاباً ـ كما زعموا ـ ولن أكون.

يوميات الأمير الجميل
مصعب ابن الزبير

١

رأس المختار

اليوم الأول:

نحاصر هذا الكذاب المسمى «المختار» منذ أربعة أشهر وهو يعتصم بحصنه هذا المنيع الذي يسد علينا منافذ «الكوفة» ويمنعنا أن نستولي عليها ونرفع فوقها راية أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، الذي لا يفتأ يكتب إلينا من عاصمة خلافته «مكة» يحثنا على طي صفحات هذا الكذاب الذي يزعم أنه يدعو إلى الأخذ بثأر الحسين وإقامة الخلافة في آل البيت.

أجلس الآن في حصن صغير يطل من بعيد على مكمن الكذاب في حصنه الكبير، وأفكر في هذه المعركة التي تحتدم منذ شهور بيننا وبينه وتوشك أن تنتهي في الأيام القلائل القادمة بعد أن أحكمنا الحصار من حوله، فلا سلاح ولا طعام ولا شراب يصل إليه. وقد هرب منه أكثر جنده واستسلموا لنا، ونزلوا على حكمنا، وبلغت عدتهم سبعة آلاف مقاتل، لا أدري بعد ماذا أفعل بهم، فبعض قوادي يشيرون بقتلهم، وبعضهم الآخر ينصح بالعفو عنهم

وضمهم إلى جيشنا، يقاتلون معنا الدعيّ عبد الملك بن مروان في معركتنا القادمة الحاسمة معه بعد أن نفرغ من هذا الكذاب الذي شغلنا طويلاً!

إن عبد الملك بن مروان الذي جلس على سرير الخلافة الأموية في دمشق قد انتهز انشغالنا بالكذاب، فجمع السلاح وحشد الرجال وجبى المال من كور الشام ومصر، وتزلف إلى ملك الروم بالمال والموادعة ليكفه عن الهجوم على الشام.

ومعركتنا مع عبد الملك كذاب الشام، هي معركة المصير، أما معركتنا هذه مع كذاب الكوفة فإلى انتهاء قريب، وقد حسمناها منذ هزمناه وفلوله على أفواه الكوفة وألجأناه إلى قصره هذا المنيف الذي لا يقل منعة عن حصون الروم!

تركت ورائي في البصرة زوجتي سكينة بنت الحسين، وضرتها زوجتي الأخرى عائشة بنت طلحة، وهما أجمل نساء قريش، بل أجمل نساء العرب، بل أجمل نساء العرب والعجم!

والناس يقولون: إن أجمل الرجال مصعب بن الزبير بن العوام، قد تزوج أجمل النساء: سكينة وعائشة ويسميني الناس: «الأمير الجميل».. ويشبهون بهاء وجي بالشهاب الساطع حتى قال شاعرنا عبيد الله بن قيس الرقيات:

إنما مصعب شهاب من الله «م»... تجلت عن وجهه الظلماء

أما عبد الله بن الزبير ـ أخي ـ فإنه، وهو أمير المؤمنين، لا يقدر جهادي في سبيل خلافته حق قدره، ويقول على رؤوس الأشهاد منددا بزواجي من أجمل امرأتين في قريش: إن مصعباً قد حبس عن الناس خيره، فأطلق نفسه على النساء!

وأمير المؤمنين في حفاظه على المال، يدهشه أنني أمهرت عائشة

خمسمائة ألف درهم، وأهديت إليها مثل ذلك، ويقول أمير المؤمنين لجلسائه في مكة:

هذه ألف ألف درهم أضاعها مصعب في زواج عائشة بنت طلحة.
فكم أضاع في زواج سكينة بنت الحسين؟

ثم يلتفت أمير المؤمنين إلى رجل من ثقاته ويسأله:

أرأيت عائشة هذه؟

قال الرجل:

لا - ولكني سمعت أبا هريرة يصفها في بعض كلامه منذ سنوات.

وكيف وصفها؟!

مرت بالمسجد تريد خالتها عائشة أم المؤمنين فرآها أبو هريرة فقال ارتجالاً: سبحان الله كأنها من الحور العين!

إن زوجتي هذه هي ابنة أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق، أنجبتها من زوجها طلحة بن عبيد الله رحمه الله، وأم كلثوم هي أخت أسماء والدة أمير المؤمنين، ولكن أمير المؤمنين لا يبالي أن تكون زوجتي هذه ابنة خالته، ولا يهمه إلاّ المال الذي أنفقته في الزواج منها[١].

اليوم الثاني:

لم يبق مع الكذاب في حصنه إلاّ بضعة عشر رجلاً، ويقول لي «أصحاب الأخبار» في جيشنا إننا قادرون إن شاء الله على أخذ الكذاب قبضاً باليد، بلا حاجة إلى قتله، فإن عرضناه على الناس في الأسواق، وطفنا به في البلاد، ثم ضربنا عنقه وصلبناه حتى تأكل جثته جوارح الطير.

---

(١) مصعب وعبد الله كانا أخوين غير شقيقين.

أما أنا فلا أظن هذا الرجل يؤخذ على غرة، ولن يقع في أيدينا حتى ينكسر قائم سيفه في يده، وكيف يقع في أيدينا حياً وهو منذ أربعة أشهر يأكل الفتات ويشرب الماء الملح الأجاج من بئر الحصن وقد انتفخ بطنه الذي كان يوجعه من قبل المعركة، فهو الآن مريض مدنف لا يقوى على الحركة ولكنه يأبى إلاّ أن يطل علينا من كوة في حصنه صائحاً: إنني أنا المختار، قاهر الجبارين، وهازم أعداء الدين!

اليوم الثالث:

فجأة انفتح باب الحصن الذي يلوذ به الكذاب!

خرج الكذاب ومعه تسعة عشر رجلاً، أحصيناهم واحداً، واحداً، وعلى رأس الكذاب راية، وسيوفهم مشرعة، فبهت رجالنا لحظة، ثم هجموا على الكذاب وأصحابه، فقاتل القوم قتالاً شديداً عندباب الحصن، فلما أحيط بهم تراجعوا إلى الحائط وأسندوا ظهورهم وقاتلوا حتى سقطوا جميعاً مضرجين بالدماء!

وسارع اثنان من خاصة المهلب فاحتزا رأس المختار، وأتيا به إلى موقفي الذي كنت أرقب منه هذه المعركة العجيبة، بين عشرين رجلاً وأضعافهم من رجالنا.

أثنيت على الرجلين اللذين أتيا برأس الكذاب، وأمرت لهما بثلاثين ألف درهم، وجاءني قائد جيشنا المهلب بن أبي صفرة فقال لي وقد تهلل وجهه فرحاً!

يا له فتحاً ما أهنأه لو لم يقتل بعض أصحابنا ممن كنت أحب أن يشهدوا هذا الفتح المبين.

اليوم الرابع:

أمرت برأس المختار الكذاب فسار به بعض جندنا إلى أمير المؤمنين في مكة، وأوصيتهم أن يصفوا له المعركة التي ظلت محتدمة أربعة أشهر ليعلم أننا لم ندخر وسعاً في القتال، وأن حصن الكذاب كان حصيناً، ولو اقتحمناه، منذ اليوم الأول لكثر قتلانا وجرحانا، ثم لا نجد عنهم عوضاً حين نسير إلى ملاقاة عبد الملك بن مروان في جيش بني أمية.

نقلت قيادتي وسكني إلى القصر الكبير الذي كان يتحصن به الكذاب وقبضت على من كان فيه من ولده ونسائه وجواريه، ومن بينهن امرأتاه أم ثابت بنت سمرة، وعمرة بنت النعمان الأنصارية.

دعوت المرأتين إلى لعن زوجهما والبراءة منه.. وبدأت بأم ثابت فسألتها:

ما تقولين في المختار؟

أقول فيه بقولك أيها الأمير!

أطلقت أم ثابت، وتركتها تمضي إلى قومها، ودعوت عمرة الأنصارية فسألتها عن المختار فقالت:

كان ـ رحمه الله ـ عبداً صالحاً.

حبست المرأة وكتبت إلى أمير المؤمنين في مكة بقصتها، وقلت له إنها تزعم أن المختار نبي، وما كذبت والله على أمير المؤمنين فإن هذه المرأة تؤمن بالمختار ودعوته كأنه نبي.

ثم دعوت بالأسرى من جند المختار، وعدتهم سبعة آلاف، فأمرت بإطلاق العرب منهم وقتل العجم، ولكن أصحابنا يرون أن

نقتلهم جميعاً، وأنا لا أرى لنفسي في هذا الأمر بصيرة حتى هذه الساعة!

دعوت أحد كبراء الأسرى أستنطقه فقال لي وهو مكتف بالحبال كبقية أصحابه:

الحمد لله الذي ابتلانا بالأسر، وابتلاك بأن تعفو عنا! إنهما منزلتان: إحداهما رضاء الله والأخرى سخطه، ومن عفا.. عفا الله عنه وزاده عزاً، ومن عاقب لم يأمن القصاص!

قاطعت الرجل محتداً:

ولكنكم قاتلتمونا ونازعتمونا ملكنا، ونصرتم علينا الكذاب، فحق عليكم العذاب!

قال الرجل ثابت الجنان:

يا ابن الزبير، نحن من أهل قبلتكم، وعلى ملتكم، ولسنا تركاً ولا ديلماً، وقد خالفنا إخواننا من أهل العراق، فإما أن نكون أصبنا وأخطأوا، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا فاقتتلنا بيننا، كما اقتتل أهل الشام بينهم ثم تصالحوا واجتمعوا، وقد انتصرتم وملكتم فأسجحوا، وقدرتم فاعفوا.

شعرت برقة شديدة على هؤلاء الأسرى المكتوفين بالحبال، فكدت أطلق سراحهم لولا أن وثب أحد كبار قادتنا من رجال القبائل في غضب صائحاً:

أتخلي سبيلهم يا ابن الزبير؟

قلت للرجل مهدئاً:

فما ترى أنت؟

صرخ في وجهي مهدداً:

اخترنا أو اخترهم!

وقام قادة الجند وأشرافهم فأيدوا هذا الرجل، فلم أجد مناصاً من قتل الأسرى!

وما أكثر الدماء التي تدفقت من أعناق سبعة آلاف أسير، أخذتهم السيوف في ساعة واحدة، وما أشنع أن يفتح المرء مقلتيه على منظر سبعة آلاف رأس إنسان مقطوعة وملقاة في ساحة واحدة!

ولن أنسى ما حييت قول أحد الأسرى لي وقد أخذته السيوف:

يا ابن الزبير .. ما تقول لربك غداً وقد قتلت أمة من المسلمين استسلموا إليك وحكموك في أنفسهم وقد أحسنوا الظن بك؟

لم أفرغ من قتل هؤلاء الناس حتى تلقاني رسول جاء على عجل من البصرة، أوفدته زوجتي عائشة بنت طلحة.. قال لي:

إن السيدة تسألك أن تعفو عن الأسرى وتطلق سراحهم!

ونظر الرسول حوله فإذا هم قد قتلوا.

اليوم الخامس:

عاد من مكة رسولي الذي كنت بعثته إلى أخي أمير المؤمنين برأس المختار الكذاب، وبرسالة أسأله فيها عما يأمرني بشأن عمرة الأنصارية أرملة المختار التي تأبى أن تلعنه أو تبرأ منه. بل وتزعم أنه نبي!

رأيت على الرجل وعثاء السفر، ولم أر في يده صرة مملوءة مالاً كما كنت أرجو له.

وقال لي:

أصلحك الله أيها الأمير.. إنني أتيت المسجد في مكة ولقيت أمير المؤمنين، فناولته كتابك الذي تبشره فيه بالفتح، فقرأه ثم ناوله غلامه، فقلت له: يا أمير المؤمنين.. هذا رأس الكذاب معي! قال لي: فما

تريد؟ قلت: جائزتي: قال ساخراً: خذ الرأس الذي جئت به جائزتك!

هالني ما صنع أخي برجل حمل إليه كتاب الفتح ورأس عدوه، فإن هذا ليس من عمل الملوك، ولا يصح في سياستهم، وإن البخل بالمال في هذا الموطن يهدم الممالك ولا يبنيها.

أرضيت الرجل وأجزلت صلته، وسألته:

وماذا عند أمير المؤمين في شأن امرأة الكذاب؟

أمير المؤمنين يأمرك بقتلها!؟

لم أكد أسمع هذه الكلمة حتى دعوت بعض رجال الشرطة، فسلَّ أحدهم سيفه فضرب عنقها ثلاث ضربات وهي تصرخ: يا أبتاه! يا عثرتاه! فقام رجل فلطم الشرطي وقال له: يا ابن الفاعلة عذبتها.. فضربها الشرطي ضربة قوية فصلت رأسها عن عنقها.

٢

مشكلات الدماء والنساء

اليوم الأول:

قصر الإمارة بالكوفة لا يعجبني.

ولا يصلح لي مستقراً ومقاماً، ولا ترضاه سكينة بنت الحسين، ولا عائشة بنت طلحة، وهما عقيلتا قريش، وربيبتا النعمة والترف، وقد ازدادتا نعمة وترفاً منذ اتخذتهما زوجتين لي، وقالت سكينة لأترابها في صبيحة عرسها: لقد دخلت على مصعب وأنا كالنار الموقدة!

وما أظن هذه النار الموقدة ترضى أن تنطفىء في قصر الكوفة الذي كان من قبل منزلاً لنساء المختار الكذاب.

أما عائشة، فهي شديدة التيه، تنفر مني حتى احتال عليها، فكيف أحتال لاقناعها بالبقاء معي في قصر المختار الكذاب؟

إن العودة إلى البصرة خير لي، فهي رباط العراق، يطل من يتولاها على كرمان وخراسان وما وراءهما، ويتحكم في منافذ البحرين ونجد والحجاز واليمن، إلاّ أن أخي أمير المؤمنين يرى أن

تكون الكوفة هي عاصمة إمارتي، وأن أبعث إلى البصرة والياً من ثقاتي، يتولى حرب الخوارج الذين أفسدوا في تلك النواحي واستفحل أمرهم بعد أن شغلتنا عنهم حرب المختار الكذاب حتى أقاموا من طغاتهم خليفة عليهم يطوفون بسريره خاشعين قائلين: السلام عليك يا أمير المؤمنين!

(استدعيت عبيد الله التيمي والمهلب بن أبي صفرة وقلت لهما):

أما أنا فباقٍ في الكوفة، فإن أمير المؤمنين يراها عاصمة العراق، وأما أنت يا عبيد الله فقد وليتك البصرة، ووليتك يا مهلب حرب الخوارج في العراق وما وراءه من بلاد العجم.. وإني آمركما بتقوى الله، والتعاون على قتال المحلين الناكثين وهذه الجموع الخارجة على الملة، حتى تضربوا أعناقهم، وتأتوني برؤوس قادتهم وكبرائهم.

استتب الأمر لي في الكوفة، فاستعملت العمال وأرسلتهم إلى عمالاتهم في شتى الأنحاء، يحكمونها باسم أخي أمير المؤمنين، ويستخرجون خراجها بلا شطط في الجباية، وينشرون الأمن فيها، ويعودون الناس لزوم الطاعة والجماعة.

ورأيت جثة المختار الكذاب مطروحة في العراء وقد نهشتها جوارح الطير، فأمرت بعض الجلاوزة فقطعوا إحدى كفيه وسمروها في جدار المسجد بمسمار كبير، نكالاً وعبرة للخارجين علينا والمفسدين في الأرض.

اليوم الثاني:

يشغلني الآن أمر إبراهيم بن الأشتر، ذلك المحارب القوي المحنك الذي قاد جند المختار في معركة نهر الخازر وهزم جيش ابن مرجانة وقطع رأسه ورؤوس أصحابه ثأراً للحسين وقتلى كربلاء.

فهذا الرجل لم يبايعني بعد ذهاب دولة المختار الكذاب وسقوط أحدوثته.. وهو يحكم الآن بلاداً واسعة كان قد ولاه عليها صاحبه الكذاب.. وليس في طوقي عزله ولا قتله مواجهة ولا غيلة، وتقتضي السياسة أن أترضاه وأجاذبه المودة، فلهذا أرسلت إليه أدعوه إلى طاعتي وأعرض عليه صفقة رابحة، وقلت له بصراحة:

«إن أطعتني فلك ما تحت يدك من الولايات، وما غلبت عليه بجندك من الأرض المجاورة لك حتى تبلغ الشام، وإني أعطيك على ذلك عهد الله تعالى».

لم أتلق رداً بعد من ابن الأشتر ولكن «أصحاب الأخبار» أبلغوني أنه تلقى من عبد الملك بن مروان خليفة الشام كتاباً يقول له فيه: إن أجبتني إلى الطاعة فلك العراق كله.

وقال لي «أصحاب الأخبار».. إن ابن الأشتر ما زال يستشير أصحابه، وإنهم اختلفوا، فمنهم من يرى الانحياز لي. ومنهم من يرى الدخول في طاعة ابن مروان.

ذلك هو الأمر الذي يشغلني ويؤرقني، لأن ابن الأشتر قوة عظيمة لمن ينضم إليه.. فإلى أي الجانبين يميل هذا الرجل في آخر المطاف؟!

ثمة أمر آخر يشغلني ولا أراه هيناً، فإن الناس في العراق والحجاز قد هالهم قتلي امرأة المختار الكذاب، وقالوا مستنكرين: إن أحداً من الخلفاء لم يقتل قط امرأة في غير حد من حدود الله، حتى جاء عبد الله بن الزبير، وأخوه مصعب فقتلا امرأة مسلمة أبت أن تلعن زوجها وتبرأ منه.. وكثر كلام الشعراء في هذه القصة حتى قال أحدهم:

إن من أعجب العجائب عندي قتل بيضاء حرة عطبول

قتلوها بغير ذنب سفاهاً إن لـلـه درهـا مـن قـتـيـل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وقد ذاعت هذه الأبيات في كل مكان ورواها الرجال والنساء، وتنوشدت حتى في المساجد. وذهب البيت الثالث منها مثلاً تلهج به الألسنة، وتستنزل على هذه المرأة الرحمات من السماء، واستبدل بعضهم بكلمة «الغانيات»، في هذا البيت كلمة «المحصنات» تبجيلاً للعاصية المقتولة، ولو علمت أن قتلها يثير هذه الثائرة، لكنت بادرت إلى إطلاق سراحها، ولكنني تعجلت فاستمعت فيها إلى الحاقدين على زوجها، وهم أولئك الذين زينوا لي كذلك قتل سبعة آلاف أسير من جنده، فقتلتهم في سكرة النصر، فلما أفقت رأيت أني تسرعت فأخطأت وأعطيت عدوي المتربص بي ـ عبد الملك بن مروان ـ برهاناً على ما يدعيه ويندد به من عسفي وطغياني، حتى لقد سماني الناس «الجزار» لكثرة ما أهرقت من الدماء.

وبلغني أن شيخنا عبد الله بن عمر بن الخطاب سأله بعض أنصارنا عني، فقال غاضباً:

> لا تسألوني عن هذا الذي قتل سبعة آلاف مسلم في يوم واحد في غير قتال وقد استسلموا له وفوضوه في أمرهم.

فقيل لابن عمر:

> ولكنهم كانوا كفرة فجرة!

فلم يلتفت إلى ذلك وقال وقد اشتد غضبه:

> والله .. لو كان صاحبكم هذا قتل مثل عددهم غنماً من ميراث أبيه الزبير بن العوام، لكان ذلك إسرافاً شنيعاً في دماء الغنم!

اليوم الثالث:

كنت أظن أن قتل الكذاب يريح الناس ويعجبهم، ولكني أراهم واجمين.. وبلغني أن أخي أمير المؤمنين استدعى في مكة عبد الله ابن عباس، وقال له:

ألم يبلغك قتل الكذاب؟

قال ابن عباس متجاهلاً:

ومن الكذاب؟

قال أمير المؤمنين:

هو ابن أبي عبيد المسمى «المختار».. كأنك أنكرت تسميته كذاباً، ومتوجع لقتله..

وقال أخي عروة بن الزبير لابن عباس يستكمل المعنى الذي أراده أخي عبد الله أمير المؤمنين:

يا ابن عباس إن الله قد قتل المختار الكذاب، وهذا رأسه تراه بعينيك.

أشاح ابن عباس قائلاً فيما يشبه التحدي:

يا عروة قد بقيت لكم عقبة كئود إن صعدتموها فأنتم أنتم، وإلاّ فلا»،

يريد عبد الله بن عباس بالعقبة الكئود عبد الملك بن مروان.. وكأنه يقول لنا: لا تفرحوا يا بني الزبير بقتل المختار، فإن عبد الملك بن مروان سوف يقتلكم ويقطع رؤوسكم كما قطعتم رأس المختار..

وإننا لنرجو أن يخيب الله ظن ابن عباس ومن على شاكلته، ولكني أعترف أن عبد الملك بن مروان هو العقبة الكئود التي إن لم نصعدها فلا بقاء لنا في هذه الدنيا.

اليوم الرابع:

جاءني رد إبراهيم بن الأشتر على دعوتي إياه بالدخول في

طاعتي ومن معه من جنوده الذين هزم بهم ابن مرجانة وجند ابن مروان منذ عام..

لقد دخل الرجل في طاعتنا وترك ولاية الموصل والجزيرة وأرمينيا وأذربيجان التي كان المختار الكذاب قد ولاّه عليها فأرسلت إلى هذه الولاية قائدنا المهلب بن أبي صفرة ليقف بجنده هناك متحفزاً لابن مروان.

أما ابن الأشتر، فخلط جنده بجندنا وجعلناه من مقدمي جيشنا، وأحللناه منزلته التي استحقها بطاعته وولائه لنا.

إلاّ أنني لا أستشعر الطمأنينة من ناحية الشام، فهناك يحتشد جند كثيف خاض فرسانه ومشاته من قبل معارك لا تحصى أحرزوا النصر في أكثرها، وقد ملأتهم ثقة لا تتزعزع بأنهم حماة الدولة والخلافة.. وحراس الجماعة منذ عهد معاوية بن أبي سفيان مؤسس دولة بني أمية.

أما رعيتنا نحن في العراق والحجاز وسائر بلاد مملكتنا فإن سرائرهم تضمر يقيناً عجيباً، هو أن بني أمية هم معدن الملوك والحكام، وأن العرب لا يستقيم أمرهم لقريش، ولا يمكن حكمهم إلاّ بسيوف بني أمية، فكيف نجمع رعيتنا هؤلاء على مقاتلة الخليفة الأموي وقد أفسد هذا اليقين سرائرهم، وأورثهم العجز والهزيمة قبل أن يرموا الأمويين بسهم واحد؟!

اليوم الخامس:

كثرت المشكلات من حولي وبلغني أن أمير المؤمنين غاضب مني ويتحدث إلى الناس بعزلي.

لزمت القصر لا أخرج منه إلاّ للصلاة في المسجد، مرتقباً ما تأتي به الأيام..

وأجد الآن وقتاً أقضيه مع زوجتيّ سكينة وعائشة.. وكلتاهما امرأة برزة لا تحتجب عن الناس، وساءني ذلك فبدأت بعائشة فقلت لها متلطفاً:

إنك يا عائشة ابنة رجل عظيم كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورشح نفسه يوماً لمنصب الخلافة.. وإن خالتك هي عائشة أم المؤمنين رحمها الله، وما أحقك بأن تقري في بيتك..

قالت:

يا مصعب.. إن الله تعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس، ويعرفوا فضلي عليهم، فما كنت لأستره.. ووالله ما فيَّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد.

وإن عائشة مع ذلك لمحبة لي، فأذكر أني كنت قد غضبت منها وهجرتها أياماً وأنا في حرب الكذاب، فلما عدت وظفرت، جاءت فبدأتني بالمصالحة بعد ذلك الخصام والهجران، وهنأتني بالنصر، وجعلت تمسح التراب عن وجهي، فقلت لها وقد تملكت قلبي: إني أشفق عليك من رائحة الحديد الذي أتدرع به، فقالت: إنها والله أطيب عندي من رائحة المسك!

وأنا بين عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين، حائر لا أدري كيف أرضيهما معاً.. كلتاهما حسناء تغنّى بها الشعراء وكلتاهما ترى أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة قد حكم لها بالتفوق على صاحبتها إذ سئل عنهما فقال: «عائشة أجمل، وسكينة أملح»! فصاحت سكينة: قد حكم لي وربِّ الكعبة! وردت عليها عائشة: بل حكم لي، لأن كل جميلة مليحة وليست كل مليحة جميلة!

فأين أذهب بقلبي بين أجمل النساء وأملحهن؟

٣

ترويض الجميلة الشرسة

اليوم الأول:

بدت لي زوجتي سكينة بنت الحسين كأنها غاضبة، وابتدرتني تفند رأي زوجتي الأخرى عائشة بنت طلحة:

يا مصعب.. أراك مسروراً بما قالته لك عائشة من أن الشاعر عمر بن أبي ربيعة قد حكم لها حين قال: «عائشة أجمل، وسكينة أملح»!

قلت لسكينة أحاول تهدئتها:

والله ما سررت لقولها ولا أسفت له فأنت وعائشة تقتسمان محبتي بالسوية..

قالت سكينة وقد هدأت قليلاً:

دع ذا عنك، واخبرني عن رأيك: أتكون المرأة الجميلة مليحة في جميع الأحوال؟!

لا أدري!

بل أنت بذلك أدرى الناس، ولكني أزيدك تبصرة بالجمال والملاحة.. فإن المرأة الجميلة قد تكون على جمالها باردة أو غبية أو ثقيلة الظل أو

سيئة الطبع. فلا تكون عندئذٍ مليحة، لأن الملاحة ضد هذه الصفات وأمثالها!

ـ وهل تكون الملاحة في الصفات الجميلة وحدها دون جمال الوجه والجسد؟

بل تجمع الملاحة معاني الجمال كلها. فتجدها في الوجه والجسد والصفات، ولكن «الجمال» إذا جاء خلواً من المعاني التي تتم بها الملاحة سقطت منزلته. وانقلبت صاحبته وهي وتمثال الحجر سواء.. فالمليحة لا تكون في عيون الناس إلاّ جميلة. ولكن الجميلة ربما فاتتها الملاحة فلا ينفعها الجمال إلاّ قليلاً.

أظهرت السرور بما سمعت من سكينة عن الملاحة والجمال وقلت لها:

لئن كنت أملح الناس، إنك لأجملهن كذلك، وما رأيت في الجدل وقرع الحجة بالحجة أفصح منك!

قالت ضاحكة:

ـ فأنا أجدل أم عائشة في الجمال والملاحة؟!

قلت وقد طاب لي مجاراتها في الضحك والكلام:

ـ ما رأيت ـ والله ـ أجدل منكما في الملاحة والجمال.. كلما هممت أن أحكم لإحداكما جادلت الأخرى عن نفسها وأدلت بحجتها. كأنكما الفالوذج واللوزينج في قصة ذلك الأعرابي.

قالت وقد حضرها طبعها في الظرف والدعابة:

ـ وما قصة ذلك الأعرابي؟

قالت:

ـ زعموا أن أعرابياً أحضروا له صحنين من حلوى الفالوذج وحلى اللوزينج، وقالوا له: هذان أسنى وأفخر ألوان الطعام الحلو فذق أنت من كل صحن شيئاً، ثم احكم بالعدل بين هذين الطعامين.

فأخذ الأعرابي يأكل لقمة من هذا ولقمة من ذاك وهو صامت لا ينطق بالحكم.. ثم عنف أكله فنهش في الصحنين نهش البدوي الجائع حتى أتى على ما فيهما من الفالوذج واللوزينج، وطلب ماء بارداً فشرب حتى استوفى من الماء البارد ما استوفاه من الطعام الحلو.. واتكأ يستريح ساعة.

فلما طال صمته استنطقوه واستحثوه وقالوا له وهم يتغامزون ساخرين:

ـ أصلحك الله أيها القاضي.. إن الناس يتنافسون في هذين الطعامين. ولا يدرون أيهما أحلى مذاقاً، فاحكم بينهما..

فاعتدل الأعرابي في متكئه. وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس فقد تجادل هذان الطعامان بين يدي فوالله ما رأيت أجدل منهما خصمين.. كلما هممت أن أحكم لأحدهما أدلى الآخر بحجته، فلا بصيرة لي فيهما، إلاّ أن تأتوني بصحنين آخرين لعلي أجد بينهما منفذاً إلى الحكم في هذه القضية العظيمة، فإن القاضي إذا التبس عليه الأمر أعاد النظر..

اشتد ضحك سكينة وقامت عني وقد غمرها السرور وأنا أقول لها: لا أزال يا سكينة في سرور من دنياي ما رأيتك ضاحكة مسرورة.

اليوم الثاني:

تبدو عائشة الجميلة شرسة الخلق. ينلقب دلالها إلى عناد وخصام حتى أحتاج إلى مصالحتها من غير ذنب جنيته، ربما خلوت بها وهي مخاصمة لي فلا يخرجها الغزل والتجميش عن الخصام. وهي في شراسة خلقها تشبه أخواتها من بنات طلحة، وقريباتها من نساء بني تميم. فإنهن أشرس نساء الدنيا، ولكنهن أحظاهن عند

أزواجهن، فلا تجد زوج إحداهن إلاّ محباً لها أشد الحب، وإن كان شاكياً منها مر الشكوى. وقد كانت إحدى أخوات زوجتي هذه ـ واسمها أم إسحاق بنت طلحة ـ زوجة للحسين بن علي رحمه الله ـ فكان يحبها وتخاصمه. حتى قال يوماً لأصحابه: والله لربما حملت ووضعت وهي مخاصمة لي لا تكلمني.

وكذلك حالي مع عائشة بنت طلحة.. ربما تعاطينا ما تتعاطاه الأزواج وهي لي مخاصمة.

وقد خاصمتني منذ أمس فجهدت أن أكلمها فأبت، فبعثت إليها شاعرنا ابن قيس الرقيات يستعطفها لي بشعره. فلما رآها قال:

جنية برزت لتقتلنا   نفاحة بالند والمسك

ثم عاد خائباً لم تستجب لما حاوله من استرضائها لي.

وبعثت إليها مضحكنا «أشعب» وهي تميل إليه وتضحك لفكاهاته، فقال لها بصراحة محاولاً أن يضحكها فيكون سبباً إلى رضاها:

جعلت فداءك.. إن الأمير مصعباً قد جعل لي عشرة آلاف درهم إن رضيت أنت عنه!

قالت له عائشة:

ويحك يا أشعب.. لا يمكنني أن أرضى عنه.

قال أشعب:

بأبي أنت يا سيدتي. فارضي عنه ساعة حتى يعطيني العشرة الآلاف ثم عودي إلى ما عودك الله من سوء الخلق والشراسة.

فضحكت عائشة وصالحتني ساعة حتى أعطيت «أشعب» جائزته ثم عادت إلى مخاصمتي.

اليوم الثالث:

تمادت عائشة في هجري والاعتصام بمقاصيرها، وصرت إذا أردتها لم أقدر على نيلها إلاّ أن أخاطبها بأقسى الكلمات أو أضربها.

وقد اعتصمت أخيراً بحجراتها لا تبرحها فشكوت ذلك إلى الشيخ ابن أبي فروة كاتب ديواننا فقال لي: أنا أكفيك هذا أيها الأمير إن أذنت لي..

قلت له: إفعل ما شئت يا ابن أبي فروة. فإن عائشة أفضل شيء نلته من هذه الدنيا.

فذهب إليها ليلاً ومعه عبدان أسودان فاستأذن عليها فأدخلته فقال للأسودين: أحفرا هنا حفرة عميقة، قالت له عائشة: وما تصنع بهذه الحفرة؟! فتصنع ابن أبي فروة الحزن الشديد وقال لها: قد أمرني هذا الأمير الفاجر أن أدفنك حية في هذه الحفرة.. وأنت تعلمين أنه أسفك خلق الله لدم حرام حتى سماه الناس الجزار.

فزعت عائشة وقالت لابن أبي فروة:

- أمهلني حتى أذهب إليه!

- هيهات لا سبيل إلى ذلك!

ومضى الأسودان في الحفر، فبكت عائشة وقالت لابن أبي فروة:

أإنك لقاتلي، ما من ذلك بد؟!

قال متصنعاً الأسف والأسى:

- نعم .. لأنه قد غضب عليك، وهو كافر الغضب!

قالت مستعطفة مستفهمة:

ـ وفي أي شيء غضبه؟!

وهنا سنحت الفرصة لابن أبي فروة فقال كأنه لا يبالي ما يقول:

ـ أغضبه امتناعك عنه كأنك لست زوجته، وقد ظن أنك تبغضينه وتتطلعين إلى غيره فأوشك أن يجن غضباً.

توسلت إليه عائشة:

ـ أنشدك الله إلاّ عاودته في أمري فإني أطيعه في كل شيء!

قال ابن أبي فروة متصنعاً الخوف:

ـ أخشى أن يقتلني هذا الأمير الجبار.

فبكت عائشة وجواريها، وارتفع عويلهن حتى سمعته في مجلسي!

قال ابن أبي فروة وقد أصاب غرضه:

ـ قد رققت لك يا عائشة ولجواريك فسأعود إلى الأمير وأستعطفه، ولكن ماذا أقول له؟

قالت عائشة في لهفة:

ـ تضمن عني أن أكون له سامعة مطيعة في كل وقت.

قال لها:

فاحلفي وأعطيني المواثيق على ذلك!؟

ثم عاد فقص عليَّ القصة بحذافيرها وأنا أضحك وأفحص الأرض برجلي من شدة الضحك.

هكذا عرفت كيف أروض هذه الجميلة الشرسة!

اليوم الرابع:

مهما حدث من زوجتي عائشة فأنا أشد الناس إعجاباً بها،

فليس لها شبيه في زمانها حسناً وهيئة ومتانة وعفة. وقد تحولت شراستها إلى دماثة وعاطفة، وصارت تكثر من سماع الغناء. وها هي ذي تتصدر مجلساً مزداناً بالريحان والفاكهة. حضرته نساء قريش في الكوفة. فخلعت عائشة على كل منهن خلعة تامة من الوشي والخز. وجاءت عزة الميلاء سيدة المغنيات فحبست أوتار عودها وغنت لعائشة وضيفاتها في شعر امرىء القيس:

وثغر أغر شتيت النبات لذيل المقبل والمتبسم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضي عليه الحكم

أما أنا فأجلس وحدي على مقربة من هذا المجلس، ولكن صوت عزة الميلاء حركني وأطربني فوقفت صائحاً:

ـ يا عزة.. إنا قد ذقنا ذلك الثغر فوجدناه على ما وصفت أنت، أو على ما وصف امرؤ القيس. فبارك الله فيك يا عزة.

ثم أرسلت إلى عائشة أقول: أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك، وأما عزة فتأذنين لها أن تغنينا هذا الصوت ثم تعود إليك؟

وجاءت عزة الميلاء فغنتني هذا الصوت مراراً حتى كاد عقلي يطير فرحاً وطرباً.. ثم قلت لها:

ـ يا عزة إنك لتحسنين القول والوصف. ناهيك بإحسانك الغناء.

فلما انفض مجلس عائشة، جاءتني تسعى، يرتج أعلاها وأسفلها، كأنما أرقصتها عزة الميلاء برنات عودها!

اليوم الخامس:

لايتاح الصفو والسرور في هذه الدنيا إلاّ قليلاً، فها هي ذي الخوارج تتنادى لمحاربتي. وقد انحاز أكثرهم إلى قطري بن الفجاءة

وكنيته «أبو نعامة».. وهذا الخارجي أسرع عدواً من النعامة، لكنه يثبت في القتال ثبات السباع الضارية، ولكن الذي يقلقني خارجي آخر اسمه عبيد الله، كنت عفوت عنه وأطلقته من السجن، فلم يحفظ الصنيعة وثار ضدي. وقال لأصحابه:

ـ إن الخلافة لا تصلح إلاّ بمثل الخلفاء الأربعة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وليس لهم شبيه في زمامنا فنلقي إليه زماننا ونسمع له ونطيع.. ولكن من عزَّ بزّ، فعلام نعقد في أعناقنا بيعة لابن الزبير أو لابن مروان أو لغيرهما، وليسوا بأشجع منا ولا أمنع، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وكلهم عاص مخالف، قوي الدنيا، ضعيف الآخرة.. فكيف ندعهم يستحلون حرمتنا ونحن أبناء رجال قاتلوا في القادسية والنخيلة وجلولا ونهاوند، نلقى الأسنة بنحورنا، والسيوف بجباهنا، ثم لا يعرفون حقنا وفضلنا ويتطاولون علينا.. فقاتلوا أيها الناس هؤلاء الطغاة فإنني قد قلبت لهم ظهر المجن، وأظهرت لهم العداوة، ولا قوة إلاّ بالله.

بمثل هذا الكلام الرنان يخلب هذا الرجل ألباب أصحابه ويحشدهم علينا، وينغص علينا عيشنا!

وقد عرضت عليه أن يأخذ خراج أرض واسعة طعمة دائمة له ويدخل في طاعتنا فلم يجب إلى ذلك، فبعثت إليه جنداً آخرين فبدد شملهم، فبعثت غيرهم فأبادهم، فدعوته إلى الصلة والأمان وأن أوليه أي بلد شاء فلم يقبل، ومضى يقتل جندنا أو يأسرهم، ثم أتى ناحية «تكريت» فأقام بجبي الخراج.. فأرسلت إليه جنداً كثيفاً، فقال له بعض أصحابه: قد أتاك جمع كثير فلا تقاتلهم، فأجاب:

يخوفني بالقتل قومي وإنما ... أموت إذا جاء الكتاب المؤجل

وانطلق يقاتل جندنا كأنه عفريت من الجن، فماذا أصنع في

هؤلاء الخوارج الذين مزقوا أطراف الدولة، وصرنا معهم في حروب لا تضع أوزارها، وشدائد تقطع علينا لذاتنا، وتؤرق ليالينا؟

٤

سيف الحق.. وحق السيف

اليوم الأول:

نعم.. ماذا أصنع في هؤلاء الخوارج الذين مزّقوا أطراف مملكتنا، وصرنا معهم في حروب لا تضع أوزارها، وشدائد تقطع علينا لذاتنا، وتؤرق ليالينا؟ ماذا أصنع في هؤلاء؟

إن بأس الخوارج أشد من بأس بني أمية الذين اقتطعوا الشام ومصر، وأقاموا منهم أميراً للمؤمنين يجلس على السرير في دمشق، ويدعي أنه أحق بالخلافة من أخي عبد الله بن الزبير خليفة المسلمين في الحجاز والعراق!

والناس يتهامسون عني قائلين: إن مصعب بن الزبير يحب اللذة والدعة ويؤنسه لقب «الأمير الجميل» الذي خلعه عليه بعض العراقيين سخرية لا إعجاباً، في حين يحشد عبد الملك بن مروان خليفة الأمويين حشوداً هائلة يتحرك بها للقاء هذا المصعب الغافل عن الخطر الداهم كأنه لا يبالي من الدنيا إلاّ أن ترضى عنه زوجتاه عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين.

أما أخي أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير، فإنه لائذ بالمسجد الحرام في مكة لا يبرحه، ويظن أن الناس ينصرونه على بني أمية لأنه يسمي نفسه «العائذ بالبيت».. ولولا أنني أذود عنه جيوش بني أمية وأصدها عن العراق والحجاز لاقتحموا عليه البيت الحرام، ولما أنجاه من سيوفهم أنه يسمي نفسه العائذ وهو مع ذلك لا يعجبه تدبيري في حياطة ملكه وقمع عدوه، فلا يفتأ يقول للناس ساخراً مني:

- أرأيتم إلى أخي مصعب كيف أعطى زين العابدين علي بن الحسين أربعين ألف دينار لما حمل إليه أخته سكينة بنت الحسين التي تزوجها مصعب على من في عصمته من الزوجات ومن في ملك يمينه من الجواري، حتى اغترت سكينة بنفسها، وأعجبتها ملاحتها، وفتنها جمالها، فقالت: دخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة.

ويختزن أخي أمير المؤمنين عبد الله ألوف الألوف من الدنانير. لا يعطي الناس منها شيئاً، ويضن على الجند بأرزاقهم، حتى ضجَّ أهل الحجاز شاكين غاضبين، وطالبوا بأعطياتهم المفروضة لهم من قديم.

بل إن أهل العراق الذين تغمرهم أعطياتي قد أخذوا يتململون مما يجري في الحجاز ويراسلون عبد الملك بن مروان خليفة الشام، ويهمس بعضهم لبعض: لا يصلح أبو خبيب للخلافة وأبو خبيب هو أخي عبد الله، إذا أراد الناس مساءته جعلوا كنيته باسم ابنه «خبيب» وهو أقل أبنائه نجابة وأبعدهم عن المروءة.

اليوم الثاني:

ركبت حصاني وصحبت جماعة من خواصي، كلهم فارس شجاع، وخرجت من الكوفة ليلاً قاصداً موضعاً في أرض الموصل

على الطريق من أرض الشام. أردت استطلاع الأحوال، فهذه هي الطريق التي سوف أسلكها بجيوشي إلى لقاء خليفة الشام عبد الملك بن مروان. وقد بلغتها ومن معي ركضاً بالخيل طوال الليل، ثم استرحنا وكتمنا أمرنا حتى عن ولاتنا الذين وليناهم تلك النواحي، فلما كانت الليلة التالية عدنا نركض الخيل عائدين إلى الكوفة.

وأنا الآن منهمك في الاستعداد للمعركة الهائلة القادمة مع جيوش الشام، وأستنجد بأخي أمير المؤمنين عبد الله فلا ينجدني بشيء، كأنني إنما أحارب من أجل نفسي لا من أجله هو لكي يبقى خليفة على المسلمين، ولكيلا تطرق خيل الشام عليه مكة فتنتزعه من ملاذه في المسجد الحرام، وتخلعه عن الخلافة ثم لا تمنّ عليه حتى ببقائه حياً كآحاد الناس.

وليت الخطر يأتينا من الشام وحده، فإن الخوارج يتربصون بنا من معاقلهم في بلاد العجم، وقد أرسلت إلى أهل البصرة أدعوهم للاحتشاد معي في حرب ابن مروان، فقالوا ساخطين:

أيها الأمير.. نحن إلى عونك أحوج منك إلى عوننا، فإن أعداءنا الخوارج يطلون علينا من الباب، ولو وجدوا فينا ثغرة لاقتحموها وأبادونا.

أرسلت إلى المهلب بن أبي صفرة، والينا في الموصل، فأمرته أن يتوجه إلى البصرة لقتال الخوارج، مع حاجتي إليه في معركتي الضارية التي لا بد من خوضها لدحر الأمويين وإسقاط دولتهم.

وقد سار المهلب بجنوده حتى نزل على مقربة من أرض الخوارج.. وهو شديد الحذر، لا ينزل إلاّ في خندق، ولا يحتشد إلاّ

على تعبية كاملة، ويشرف على حراسة المعسكر بنفسه، ومع ذلك لم يسلم من تشنيع الناس عليه، إذ رأوه لا ينال من الخوارج منالاً، حتى قال الناس إنه كذاب، وقال شاعرهم ساخراً به:

أنت الفتى كل الفتى　　لو كنت تصدق ما تقول

وليس المهلب كذاباً، ولكنه يكتم أسراره، ويتحرك من مكان إلى مكان مكايدة للخوارج. فإذا سنحت له فرصة انتهزها وأوقع بهم.

ولا أظن أمر الخوارج ينتهي وتنطوي صفحتهم إلاّ بعد أن نطوي صفحة الأمويين في الشام.

اليوم الثالث:

يبدو أن الأمويين في الشام قد تنازعوا وأخذوا يتقاتلون، فبلغني أن خليفتهم عبد الملك بن مروان وثب على أبرز أبناء عمومته المسمى عمرو بن سعيد الذي يرى أنه أحق بالخلافة فسجنه عبد الملك ثم قتله.

وكتب لي رجال الأخبار في ديواننا هذه القصة. فإذا هي عجب من العجب، وبرهان لا مراء فيه على أن الملك عقيم، وفي سبيله يقتل الرجل ابن عمه، بل يقتل ابنه ويقتل أخاه.

فقد دعا عبد الملك إلى مقره عمرو بن سعيد ـ وكلاهما من أحفاد أمية ـ فلما جلسا يتحدثان أمر عبد الملك حرسه أن يجمعوا يدي عمرو ورجليه في جامعة من حديد، ثم جذبه عبد الملك جذبة قوية فاصطدم فمه بالسرير فكسر بعض أسنانه، فاستعطفه عمرو قائلاً:

أذكرك الله يا أمير المؤمنين، فلا تكسر من عظامي غير أسناني.

فقال عبد الملك وقد أعماه الحقد:

لن أبقي عليك حياً، لأنه ما اجتمع رجلان مثلي ومثلك في بلد إلاّ أخرج أحدهما الآخر.

فلما عاين عمرو الموت، صاح في وجه عبد الملك:

أغدرا بي يا ابن الزرقاء؟!

وغضب عبد الملك لأمه أو جدته «الزرقاء».. فاستل سيفه ليقتله، فنودي للصلاة، فخرج عبد الملك وصلى بالناس صلاة خفيفة، ثم عاد وأمر بإغلاق أبواب القصر.

وجلس قبالة عمرو بن سعيد، وحوله نفر من بني أمية من بينهم عبد العزيز بن مروان أخو عبد الملك، فأمره بقتل عمرو، فاعتذر عبد العزيز، وقال: إن له رحماً ماسة، والرقة في قلوبنا أدنى إليه من النقمة، فصرخ عبد الملك في وجه أخيه غير الشقيق:

أخزى الله أمك البوّالة على عقبيها فإنك تشبهها جبناً!

ثم أخذ عبد الملك الحربة فطعن بها صدر عمرو فلم تؤثر فيه، فضرب بيده على صدر عمرو فرأى الدرع عليه فقال: ودرع أيضاً؟! لقد استعددت لنا يا عمرو؟

ثم أخذ سيفاً قصيراً وأمر بعمرو فطرحه الغلمان أرضاً وهو مقيد لا يستطيع الدفع عن نفسه، فجلس على صدره فذبحه وهو ينشد متمثلاً بقول الشاعر:

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي
أضربك حيث تقول الهامة: اسقوني

فلما أتمّ ذبحه من الوريدين أصابته رعدة خفيفة ولم يستطع أن يقوم من فوق صدر ابن عمه الذبيح، فأسرع الغلمان وحملوه إلى سريره وجاءوه بشراب يهدىء من روعه!

وحزَّ أحد الجنود رأس عمرو بن سعيد وأخذه عبد العزيز بن مروان فألقاه على جماعته الذين كانوا ينتظرونه خارج القصر، وألقى إليهم أموالاً من الذهب والفضة،فلما رأى الناس الرأس والأموال انتهبوا الأموال وتفرقوا!

ثم أخرج عبد الملك سريره إلى المسجد وخرج فجلس عليه للناس، وقال لهم:

- ما رأيت مثل هذا الذي قتلناه طالب دنيا ولا طالب آخرة.

اليوم الرابع:

لم يبق شيء يخافه عبد الملك بن مروان وراء ظهره في الشام بعد أن قتل منافسه على المُلك عمرو بن سعيد.. ولن تكون له همة إلاّ الزحف على العراق وقد التأم شمل الأمويين وصار فيهم عبد الملك بن مروان كما كان فيهم معاوية بن أبي سفيان في سالف الزمان.

وأفكر الآن في المختار الثقفي المسمى «الكذاب» فقد حاربناه وقتلناه وبددنا شمل أنصاره، ولو أبقينا عليه وهادناه كما فعلنا مرة مع الخوارج الرابضين على حدود العراق، لكان لنا الآن ظهيراً على عدونا عبد الملك بن مروان الذي لبث يتربص بنا حتى اطمأن إلى أحد عدويه، ولعله الآن يقول: لقد أكل مصعب عدونا المطالب بدم الحسين، فاليوم نأكل نحن مصعباً.

وقد أبلغني أصحاب الأخبار في ديواننا أن ابن مروان قد جمع رجال دولته وقال لهم: إن مصعباً فرغ من أمر المختار، ولست آمنه أن يغزو الشام بعد أن صفا له ولأخيه العراق والحجاز، وما من قوم غزاهم عدوهم في عقر دارهم إلاّ ذلّوا، فأرى أن نسير إليه بجموعنا فنلف الخيل بالخيل والرجال بالرجال، والنصر من عند الله.

اليوم الخامس:

أعددت العدة للزحف إلى الشام قبل أن يزحف ابن مروان على العراق، ولكن أحد قوادنا في مكة نكث بيعته لأخي أمير المؤمنين عبد الله، ونزل بعض نواحي البصرة، وانضاف إليه أقوام من العرب، فصار هذا الرجل وأصحابه شوكة في جنبي لا بد من انتزاعها وكسرها قبل أن أتحرك إلى الشام.

وأخي أمير المؤمنين في مكة لا يحرك ساكناً كأنه لا يفهم معنى ما يدور حوله من الأحداث الجسام!

وفي حد سيفي قوة الحق. ولكن الذي ينتصر في كل معركة هو سيف القوة لا سيف الحق، وتحتاج الحرب إلى نظر وحذر، واصطناع الأنصار والأتباع، وتدبير الأمور تدبيراً محكماً، ولقد أعددت لهذه الحرب كل ما استطعت من قوة، فليت أخي أمير المؤمنين يبرز بنفسه إلى الحرب وهو المحارب الشجاع، فإن عساكره لن يتفرقوا عنه إذا رأوه فوق حصانه الأشهب شاهراً سيفه في سبيل الله.

٥

للحب وقت .. وللحرب وقت

اليوم الأول:

ما زال بعض الشعراء يسخرون في أشعارهم من سخائي في مهور نسائي، ويستكثرون أني دفعت لعائشة بنت طلحة حين تزوجتها خمسمائة ألف درهم مهراً، ومثلها هدية، فقال شاعر لا أعرفه يندد بكرمي على نسائي وما يزعمه من تقتيري على جنودي وقادتهم:

مهر العروس بألف ألف كامل
ويبيت قادات الجيوش جياعا

وقد علم الله أني لا أبخل بالمال على الجند وقادتهم، ولكن هذا الشاعر إنما أسخطه بخل أخي أمير المؤمنين عبد الله بالمال على الجند والقادة والناس كلهم. حتى عمَّ سخطهم على خلافته، وكتب الكثيرون منهم سراً إلى عبد الملك بن مروان خليفة دمشق يعرضون عليه ولاءهم.

وفي البصرة بقية من أنصار بني أمية منذ أيام زياد بن سمية

الذي زعم معاوية بن أبي سفيان أنه أخوه لأبيه، وسماه زياد بن أبي سفيان.

وهؤلاء وجدوا فرصتهم سانحة. فالخوارج على أبواب البصرة، وعبد الملك بن مروان على أبواب الكوفة، وأخي أمير المؤمنين بمكة لا يمدني بالرجال ولا بالمال ولا حتى بكلمة طيبة.

وأخبرني رجال الأخبار في ديواننا بأن مغامراً من أذناب عبد الملك بن مروان، هجم على البصرة واحتلها فلم يقاومه أحد، لأن الناس هناك قد يئسوا من صلاح أمرهم في دولتنا، وباتوا يترقبون الخير من دولة بني أمية!

انضم إلى هذا المغامر الأموي رؤساء القبائل والجماعات في البصرة، وقالوا له: نبايعك بالخلافة لعبد الملك بن مروان، ونخلع عبد الله بن الزبير.

ولم تكن لي همة منذ علمت ذلك إلاّ أن أعاجل في البصرة هذه الشرذمة الباغية وأقضي عليها.

ولما بلغت البصرة بقواتي فرَّ قائد هذه الجماعة، ولو أمسكت به لقتلته شرَّ قتلة ولكني أمسكت بمن كان قد تبعه من رؤساء البصرة، وأولهم عبيد الله بن أبي بكرة وهو من أسرة زياد بن سمية الذي كان يسمى زياد بن أبي سفيان.

جاءني الجند بهذا الرجل مكتوفاً بالحبال فقلت له وقد فاض بي الغضب:

إن أباك كان ابن كلبة اسمها سمية، تحترف الزنا في الطائف، وقد تعاورها كلاب الرجال، فجاءت منهم بأولاد مختلفين.. أحمر وأصفر وأسود.. من كل كلب بما يشبهه، وكان في هؤلاء أبوك أبو بكرة وعمك زياد.. وإنما كان أبوك عبداً نزل إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم من حصن الطائف بعد أن فتحه المسلمون عقب غزوة حنين، ثم ادعيتم أن أبا سفيان زنى بأمكم في الجاهلية فجاءت بزياد الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان ونحله اسم أبيه، ووالله ما تستحقون إلاّ اللحاق بأمكم سمية.

استخذى عبيد الله بن أبي بكرة ولم يحر جواباً، وجاءني الجند بحمران فنعرت في وجهه:

يا هذا .. إنما أنت ابن يهودية من نبطي سبيت أمك وجاءت بك!

وأسمعت الآخرين مثل هذا التوبيخ ثم قلت لرئيس الشرطة:

اضرب كلا منهم مائة سوط، واحلق رؤوسهم ولحاهم، فإذا فرغت من ذلك فاهدم بيوتهم، ثم أخرجهم إلى الصحراء في شمس الظهيرة ثلاثة أيام.. فإذا أنضجت الشمس جلودهم، فاضربهم حتى ينطقوا بطلاق نسائهم جميعاً، واقبض على أولادهم فابعث بهم في الجند الذين يقاتلون الخوارج في الأهواز، ثم طف بهؤلاء السفلة في البصرة وما حولها حتى تمتلىء منهم في خزيهم وذلهم عيون الناس!

اليوم الثاني:

جاءني الجند بالجواري اللاتي كن في بيوت أولئك الأراذل الذين عاقبناهم. فوزعتهن على القادة، إلاّ جارية منهن أعجبتني فخصصت بها نفسي، وعدت بها إلى الكوفة.

شغلتني هذه الجارية عن زوجتي الحبيبة عائشة بنت طلحة، كما شغلتني عن زوجتي الأخرى سكينة بنت الحسين، وليست محبتي لها بأقل من محبتي لعائشة!

ووجدت في جاريتي الجديدة هذه مزايا كثيرة، فهي شقراء ولكنها تبدو كسمراء. وهي فصيحة تقول البيت والبيتين من

الشعر، كأحسن ما يقول الشعراء، وهي مغنية حسنة الصوت بارعة الصنعة، وقد خلوت أمس بها فغنتني هذا الشعر:

إيا شفتي مي أما من شريعة ... من الموت إلاّ أنتما توردانيا
ويا شفتي مي أمالي إليكما ... سبيل وهذا الموت قد حلّ دانيا
ويا شفتي مي أما تبذلان لي ... بشيء وإن أعطيت أهلي وماليا

ومضت الجارية تتفنن في غناء هذا الشعر ترجيعاً وترصيعاً، ومداً وقصراً وجواباً وقراراً، حتى كدت أجن طرباً، فلما فرغت من غنائها، قلت لها وقد ألهتني بغنائها عن الدنيا:

لله أنت.. فوالله ما سمعت قط غناء أطيب من هذا الغناء. ولكن من هي «مي» هذه، ومن هو عاشقها هذا الذي أوردته شفتاها موارد الموت، وليس له إليهما سبيل وإن بذل في سبيلهما أهله وماله؟

قالت الجارية:

أما الشاعر فأعرابي فصيح جيد الشعر وأما محبوبته فامرأة من قومه يقال لها «مية» أو «مي» أراد أن يتزوجها فسبقه إلى زواجها رجل آخر، فمر عليها يوماً وقد صارت زوجة لذلك الرجل فوقف على باب خيمتها وأنشدها هذا الشعر، فبكت رحمة له، ثم قالت تتلطف به وتهون عليه بلواه:

أعزز علينا يا ابن عم بأن تسألنا ما لا سبيل إليه، وهذا أمر قد حيل دونه، فلعلك تلهو عنه وتسلوا!..

نقلتني الجارية بهذه القصة من سحر الغناء إلى سحر الحديث، وعشت بين هذين السحرين إلى آخر الليل، كأنني فرغت من همومي، أو زايلتني الأخطار الجسام التي تكنفني، حتى تنفس الصبح، وأخرجني شعاع الشمس من ذلك الحلم الجميل!

اليوم الثالث:

جاءني رجال الأخبار في ديواننا يقولون متوجسين خيفة:

أصلح الله الأمير .. إن الفاسق عبد الملك بن مروان قد جمع جموعه وزحف من الشام يريد العراق، وفي جيشه من الرجال والسلاح ما لا يحصيه إلاّ الله!

قلت لهم متعجباً:

ولكن.. كيف استطاع أن يجمع كل هؤلاء الناس، وليس كل الناس في الشام يحبونه أو يعملون لنصرته؟!

قالوا:

إن الفاسق استعان برجل فاجر من ثقيف يقال له الحجاج بن يوسف، فجعل هذا الفاخر يستحث أهل الشام للخروج إلى القتال، فإذا أبطأوا عليه أحرق بيوتهم ونهب أموالهم، فخرجوا جميعاً، لم يتخلف منهم أحد..

صرفت رجال الأخبار وجلست أتدبر الأمر.

لقد استطاع عبد الملك بن مروان تعبئة عشرات الألوف من جند الشام، وهو يزحف الآن بهم إلى العراق، فكيف لي بمواجهته وأنا أحارب الآن الخوارج في الشرق، وهو متفرغ لي بعد أن أعطى الجزية لملك الروم، ثلاثين ألف دينار كل شهر، ورضي ملك الروم بقبض هذه الجزية وامتنع عن مهاجمة مملكة ابن مروان من حدودها الشمالية؟!

إذا نهضت إلى عبد الملك صرت بين نارين: نار الخوارج، ونار الأمويين.. ولا نصير لي، فقد لاذ أخي أمير المؤمنين بالمسجد الحرام في مكة مصلياً قائماً ليله، صائماً نهاره، كأنه اتخذ الصلاة والصوم سلاحاً يهزم به ابن مروان.

أرسلت إلى قائدنا الباسل المحنك المهلب بن أبي صفرة في البصرة فجاء مسرعاً.. قلت له:

يا مهلب.. لعل الخوارج لا ينتهزون مجيئك إلينا فتتحرك كتائبهم إلى البصرة.. وإنما استدعيتك لأستشيرك في المعركة التي نحن مقبلون عليها وقد زحف علينا ابن مروان.

قال المهلب وكأنه يستعطفني:

إن أهل العراق قد كاتبوا عبد الملك وكاتبهم عبد الملك، فلا تبعدني عنك واجعلني في المعركة القادمة الحاسمة..

قلت موضحاً له الأمر:

ولكن أهل البصرة قد أبوا أن يسيروا إلى حرب الخوارج حتى أجعلك أنت قائداً عليهم، وقد بلغ الخوارج سوق الأهواز، وأنا أكره إذا سار عبد الملك إلى حربي ألاّ أسير إليه. فاكفني يا مهلب ثغر البصرة، واثبت هناك للخوارج حتى أفرغ من عبد الملك، فيسهل علينا استئصال الخوارج أجمعين!

اليوم الرابع:

أحضرت قائدنا الباسل المخلص إبراهيم بن الأشتر الذي هزم الأمويين بقيادة عبيد الله بن مرجانة في معركة نهر الخازر عندما كان ابن الأشتر من رجال دولة المختار الكذاب الذي قتله الله منذ عامين.

قال لي ابن الأشتر:

أيها الأمير.. إن عبد الملك قد كتب إلى جميع قواد جيشك من رؤساء القبائل يعدهم بالمال والمناصب إن هم خذلوك وانضموا إليه، فأطعني واقبض عليهم واضرب أعناقهم، أو أمسكهم في الحديد واحبسهم في مكان بعيد حتى تنتهي المعركة.

قلت له كأنني أغالطه وأغالط نفسي:

وما دليلك على مكاتبة قادتنا لعبد الملك ومكاتبة عبد الملك لهم؟!

أجاب من فوره:

هذا كتابه أرسله إليّ أنا، وهو يعلم عداوتي لبني أمية وإخلاصي لكم، فكيف بمن يعلم أنهم يبيعون كل شيء بالدينار والدرهم.

ثم ناولني الكتاب مختوماً وهو يقول لي مستنكراً ما يحاوله ابن مروان من استمالته ورشوته:

أيها الأمير.. هذا كتاب الفاسق عبد الملك بن مروان.. وما كنت لأفضه وأقرأه إلاّ بعد قراءتك له.

فضضت كتاب ابن مروان، فإذا فيه:

«.. من عبد الله، عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى إبراهيم بن الأشتر.. أما بعد، فإني أعلم أن تركك الدخول في طاعتي ليس إلا عن معتبة، فلك الفرات وما سقى من أرض العراق، فانحز إلينا فيمن معك من قومك.. والسلام».

رددت الكتاب إلى ابن الأشتر وقد قهرني الكمد، وقلت له:

فما الذي منعك من الاستجابة له؟

قال مستنكراً:

لقد قاتلت الأمويين لقتلهم الحسين، فكيف أدخل في طاعتهم وأنصرهم عليك وعلى أخيك وأنتما حفيدا صفية بنت عبد الملك عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والله لو جعل لي ابن مروان ما بين المشرق والمغرب، ما أعنت بني أمية على ولد صفية!

قلت له وقد غلبني التأثر:

جزيت خيراً يا أبا النعمان.

اليوم الخامس:

لا بد من الزحف إلى حدود الشام لملاقاة عبد الملك بن مروان..

إن الجند متوافرون مجتمعون ولكني لا أدري ما يقع من قادتهم إذا التقى الجمعان، وقد أخفوا عني جميع ما وصل إليهم من كتب عبد الملك بن مروان، فلا أستطيع أن أستجوبهم عنها، وقد يكون ما قاله لي المهلب وابن الأشتر عن كتب ابن مروان، مجرد ظن، فلا أستطيع أن أحكم على الناس بالظن!

دخلت إلى زوجتي سكينة بنت الحسين أودعها قبل رحيلي، فنزعت ثياب الديوان ولبست ثياب الحرب، وأخذت سيفي، فعلمت سكينة أني قد عزمت على ملاقاة ابن مروان، فصاحت جازعة:

واحزناه عليك يا مصعب!

التفتُّ إليها مدهوشاً، وقلت لها:

أنت يا سكينة تخفين في قلبك محبتك لي؟

لم تجب، فعدت أسألها:

أهذا الحب كله تحملينه لي في قلبك يا سكينة منذ تزوجتك؟

قالت وقد غلبها البكاء:

إي والله! وما كنت أخفي من الحب أكثر..

قلت ورنة الأسى ملء صوتي:

لو كنت أعلم أن هذا كله لي عندك، لكانت لي ولك حال! ولكن سبق السيف العذل، فللحب وقت وللحرب وقت لا مناص منه.

1

معركة السيف والأصابع

اليوم الأول:

خرجت من عند زوجي سكينة بنت الحسين وقد ملأني الفرح بما أظهرته لي من حبها ولكن الحزن سرعان ما غلبني فما أنذا أعرف في الساعات الأخيرة قبل خروجي إلى الحرب أنها تضمر الحب لي.. وكنت ـ والله ـ أظنها لا تراني إلاّ زوجاً لها، لا فرق عندها بيني وبين زوجها الأول.

فاجأتني سكينة بما صارحتني به من حبها، وكنت أظن أن زوجتي الأخرى عائشة بنت طلحة أكثر منها حباً لي، ولكن عائشة حين ودّعتها كانت جامدة العينين والوجه، كأنها تظهر الصبر على فراقي والله أعلم بما كانت تخفيه، فلست أول أزواجها، وقد لا أكون آخرهم!

أسرجت حصاني وجلست في ظله ساعة كما يفعل الفرسان قبل المعركة أو بعدها.. وساورتني خواطر وسوانح كثيرة، تبعث الأمل أو الألم، وتذكرت كاتب ديوان ولايتنا الشيخ ابن أبي فروة

إذ كان يحاول أن يرفه عني ويسليني بحكاياته.. وما أكثرها.

ووالله ما سمعت قط كلاماً أطيب من كلام ابن أبي فروة، ولا أحفل منه بالموعظة والاعتبار لرجل مثلي قد أجمع على خوض الحرب، وأعد لها ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل!

وقد كنت أمس ضائقاً بالدنيا فسألت ابن أبي فروة أن يضرب لي مثلاً عن جزاء العمل الصالح عند الله فقال لي:

أيها الأمير.. إن جزاء العمل الصالح قد يجيء إلى صاحبه معجلاً في الدنيا، ثم يستوفيه في الآخرة..

قلت له:

فاضرب لي مثلاً عن العمل الصالح وجزائه المعجل في الدنيا..

استجمع ابن أبي فروة ثيابه وجلس قبالتي، وقال:

أنا والله ـ أيها الأمير ـ أعلم الناس بأعمالك الصالحة، وإني لأرجو أن يجزيك الله عنها في الدنيا والآخرة أحسن الجزاء.. وأراك تخشى حرب ابن مروان، فإنه حشد عليك الحشود، ودس لك الدسائس، وافترى الأكاذيب، ولكن عملك الصالح سيكون درعاً لك وسيفاً ورمحاً تنتصر بها عليه إن شاء الله.. فإن العمل الصالح في يدي المؤمن ينصر صاحبه وإن خذلته يداه، وما مثل ذلك إلاّ كمثل الرغيفين، في يدي تلك المرأة المؤمنة..

قلت:

وما مثل الرغيفين في يدي المرأة المؤمنة، وما حكايتهما، وكيف نصراها وقد خذلتها يداها؟

قال ابن أبي فروة:

إن حاكماً طاغية نادى رعيته في الولاية التي كان يحكمها: لا تتصدقوا على الفقراء، ولئن أخرج أحدكم صدقة لأقطعن يديه! فجاء سائل مسكين إلى امرأة صالحة تحمل على رقبتها طفلها الصغير فسألها

أن تتصدق عليه، فلم تبالِ بالحاكم الطاغية وأعطت السائل رغيفين، فقبض عليها الحاكم فقطع يديها! فمرت بعد مدة بنهر وابنها على عاتقها، فقال لها: أسقني يا أماه من هذا الماء، فإني عطشان.. فنزلت والصبي على رقبتها فوقع منها في الماء فحاولت أن تمسكه بيديها لتنقذه من الغرق فلم تستطع لذهاب كفيها في القطع فجلست على شاطىء النهر مقهورة تبكي وتدعو على الطاغية، فمر بها رجلان عليهما النبالة والسماحة، مع وضاءة التقوى فقالا لها: أتحبين أن يرد الله عليك يديك كما كانتا؟ قالت: نعم! فدعا الرجلان الصالحان الله تعالى، فاستوت يداها كما كانتا، ثم نزل الرجلان إلى النهر فأنقذا ولدها، فطفقت تشكر لهما وتدعو، فلما أرادا الانصراف قالت لهما: من أنتما يرحمكما الله؟ قالا: نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما على ذلك المسكين فقطع الطاغية يديك جزاء عصيان أمره. يبعثنا الله في الآخرة فنوضع في ميزان حسناتك، كما بعثنا اليوم إليك في الدنيا لننقذ ولدك من الغرق!

قلت لابن أبي فروة:

هذا مثل حسن للعمل الصالح في الدنيا والآخرة، فحدثني كيف ينفعني عملي الصالح في هذه الحرب التي أنا مشمر لها الآن؟

اليوم الثاني:

لم يكتمل حديث ابن أبي فروة معي عن الأعمال الصالحة وجزائها في الدنيا والآخرة. فقد أقامني النفير من ذلك المجلس الذي أمتعني وسلاني، وأفعمني ثقة وأملاً.

وجاءني قائدنا ابن الأشتر، فقال لي:

أيها الأمير.. ما بقي إلاّ أن تركب حصانك فتمضي بالجيش الى المعركة. فإن ابن مروان زاحف بجيشه لا يلوي على شيء، كأنه يريد أن يقتحم علينا الكوفة!

نعم .. لا بد من المضي إلى معركة الحياة أو الموت التي فرضها علينا الأمويون، ولو لم يفرضوها علينا لفرضناها عليهم، فإن الأمور لا تستقيم إذا اقتسمنا نحن وهم نصف بلاد الإسلام، وعاث في نصفها الآخر بين سجستان وخراسان وكرمان قطعان من الخوارج، بلغ بعضهم أطراف البصرة وعليهم قائدهم نافع بن الأزرق، يقول لهم: إن دار مخالفيكم من الزبيريين والأمويين وغيرهم، هي دار كفر وشرك، وإن أهلها كفار مشركون كعرب الجاهلية فلا نقبل منهم إلاّ أن يعلنوا إسلامهم فإن أبوا قاتلناهم واستحللنا دماءهم وأموالهم ونساءهم وذراريهم!

وليس نافع بن الأزرق ومن معه من الأزارقة إلاّ فرقة من الخوارج، فقد تكاثر الخارجون، وطار فوق كل بقعة من أرض الإسلام غراب أسود ينعق صائحاً بأنه وحده المسلم، وكل من عداه كافرون!

ومعركتنا القادمة ضد بني أمية ليست المعركة الأخيرة، وإن كانت معركة فاصلة، وسوف تمتد بعدها معاركنا لاجتثاث الخوارج، فإنهم أحالوا الجهاد إلى قتال بين المسلمين، فلم يحارب المسلمون منذ وفاة معاوية حتى اليوم إلاّ بعضهم بعضاً، وانحسرت موجة الفتوح وصار مسلمو الشام يدفعون الجزية لدولة الروم بعد أن كان الروم يدفعون الجزية للمسلمين!

لقد رضي عبد الملك بن مروان أن يدفع الجزية عن يد وهو صاغر إلى ملك الروم، ليحمي ظهره وهو يزحف إلينا بجيشه يريد الاستيلاء على العراق كأنه لا يستطيع أن يحمي الشام إلاّ بتلك الجزية التي لم يسبق قط للمسلمين أن دفعوا مثلها للروم، فأيّنا على الحق، نحن بني الزبير بن العوام حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم عبد الملك الذي يدفع الجزية للروم؟!

إن أبانا ـ رحمه الله ـ كان حواري النبي عليه السلام، أما أبوه «مروان» وجده «الحكم» فكانا من أعداء الإسلام حتى يوم فتح مكة، فنفاهما النبي عليه السلام إلى الطائف.. وها قد دارت الأيام فإذا

أحفاد «الحكم» وأبناء «مروان» ينازعوننا الخلافة نحن أبناء حواري رسول الله.

اليوم الثالث:

ما هذه الخلافة التي نتطاحن عليها نحن القرشيين؟!

سؤال يملأ أفق هذه المعركة الآن بيننا وبين الأمويين!

نحن الزبيريين بطن من قريش، ينتمي إلى أسد بن عبد العزى، ويزعم الأمويون أنهم أقرب إلى النبي عليه السلام لأنهم يلتقون بني هاشم - رهط النبي - في جدهم «عبد مناف بن قصي».. ويقولون إن القرابة بعيدة بين بني أسد بن عبد العزى وبني عبد مناف وإن كانوا جميعاً من قريش.

وقد رفض بنو هاشم حتى اليوم أن يبايعوا أخي عبد الله بالخلافة.. ولو انتصر عبد الملك ودعاهم إلى البيعة لبايعوه ولقال بعضهم لبعض: نحن وعبد الملك من ولد عبد مناف، فهو إلينا أقرب من مصعب وعبد الله ابني الزبير، ومن سائر بني أسد بن عبد العزى.

أما أهل العراق فلم يبايعونا بالخلافة إلاّ عندما خلت الساحة من خليفة يرتضونه بعد هلاك يزيد بن معاوية.. وأراهم الآن يتملمون منا كأنهم كرهوا خلافتنا، ولا أظن عبد الملك إلاّ قد ملأ حقائبهم بالأموال، وأدار رؤوسهم بالوعود، ولقد حذّرني قائد جندنا إبراهيم ابن الأشتر من غدرهم كما غدروا من قبل بعلي والحسين والمختار، ولكني ما زلت أرجو أن يعودوا إلى رشدهم، وألاّ ينفضوا عني في المعركة ويتركوني قائماً وحدي أحارب جيش ابن مروان!

اليوم الرابع:

أفكر اليوم في عبد الملك بن مروان.

كان صديقاً لي قبل هذه الزعازع التي جعلت منه عدواً لي ولأخي! ولا أنسى أيامنا الخوالي في مدينة رسول الله.. كنا لا نكاد نفترق، ولم يكن في قريش كلها شابان مثلنا اجتمعا على العبادة وطلب العلم.

وقد سمعنا وحفظنا من أبي هريرة وأبي سعيد الخدري وجابر ابن عبد الله وغيرهم، وكان عبد الملك أكثر مني عبادة ونسكاً، وقد رأيته أيامئذٍ وما من شاب في المدينة أشد منه تشميراً في العبادة والتفقه والقراءة في كتاب الله.

أما والده «مروان» وجده «الحكم» فكانا ممن قال لهم رسول الله يوم فتح مكة:

اذهبوا فأنتم الطلقاء ...

فكان من لا يحب عبد الملك من أبناء المهاجرين والأنصار يسميه: ابن الطلقاء!.. ولكن كان ابن الطلقاء كان أفقه في الدين من بعض أبناء المهاجرين والأنصار.. وكان يسمع سخريتهم به ولا يبالي!

إلاّ أن عبد الملك حين تولى الأمر في الشام، أغلق المصحف وامتشق الحسام. فأهرق الدماء بغير حق، وانقلب من ناسك إلى فاتك، ومن ورع إلى طاغية جبار!

اليوم الخامس:

نحن الآن في المعركة..

عبدالملك في جيشه الكثيف المنظم يتراءى لعيني! لم تتغير

ملامح صديقنا هذا كثيراً، ولكني أراه لأول مرة وقد لبس عدة الحرب!

ينشط رجال الأخبار من الجانبين.. رجالنا يأتوننا بأخبار عبد الملك وجيشه، ورجال عبد الملك يأتونه بأخبارنا.

بلغني أن عبد الملك قد صحب في حاشيته الشاعر كثير عزة المهشور بالغزل والمديح، ولعله يريد منه أن يهجوني بشعره أو يهجو أخي، ولكن كثير عزة لم يقل شعراً بل استأذن من عبد الملك في أن يعود قبل اشتداد المعركة، فقال له عبد الملك ساخراً:

قد أذنت لك، فإنما أنت شيعي خبيث، لا إلى الأمويين ولا إلى الزبيريين، وتخاف أن يصيبك من هؤلاء أو أولئك سهم طائش فتخسر الدنيا والآخرة!

اليوم السادس:

جلست لحظات مع كاتبنا الشيخ ابن أبي فروة.. قلت له:

أشعر الآن أن يدي مقطوعتان كيدي تلك المرأة الصالحة التي تصدقت برغيفيها.. فهل يسعفني عملي الصالح بيدين غير مقطوعتين؟! وهل لي من الجزاء الحسن عند الله مثل ما كان لتلك المرأة الصالحة، ويا ليتني كنت أملك مثل رغيفيها، وكان لي مثل يديها!

قال ابن أبي فروة وقد غلبه التأثر:

أيها الأمير.. لن يضيع جزاء عملك الصالح عند الله تعالى.. ولكني أرى جندك قد خامرهم الطمع فمالوا إلى ابن مروان!

قطع حديثنا رجل اندفع إلينا من معسكر ابن مروان..

قال: إن أمير المؤمنين يدعوك إلى جعل الخلافة شورى بين المسلمين!

طردت الرجل وقلت له: عد إلى من أرسلك وقل له: السيف بيننا!

ناداني محمد بن مروان أخو عبد الملك: يا مصعب اقبل أمان أمير المؤمنين، فإن أهل العراق خاذلوك!

لم أجب نداءه بشيء واحتدمت المعركة حتى ارتجت الأرض بزلزال الخيل والرجال.

انهزم عساكرنا وفروا إلاّ إبراهيم بن الأشتر فإنه قاتل حتى قتل!

كرر عبد الملك لي الأمان، وأرسل يقول لي إنه يعزّ عليه أن أقتل، وإن قبلت الأمان منه بذل لي ما شئت من الأموال والأعمال!

خذلني الناس فلم يبق معي إلاّ سبعة جنود.. مثخنين مثلي بالجراح، كسرت السيوف خوذتي فعصبت رأسي ولكن نزيف دمي أضعفني فجلست على حافة سرير عندباب خيمتي ومضيت أقاتل جالساً ولا أستسلم!

وكلني أخشى أن تضرب السيوف يدي فتقطع أصابعهما، وليس لي عمل صالح عند الله يرد سيوف أعدائي عن أصابع يدي!

يوميات معلم الصبيان
[الحجاج الثقفي]

١

رأس الأمير الجميل

اليوم الأول:

حين زحف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان بجيشه إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير الملقب بالأمير الجميل لم أكن إلاّ رئيس فصيلة صغيرة من فصائل الحراسة في الجيش، ولا أزعم أنني فعلت شيئاً في المعركة التي دارت بين جيشنا وجيش الأمير الجميل، ولكني كنت حريصاً على أن أشهد كل فصولها، لأرى كيف تدور المعارك، وكيف ينتصر التدبير الحسن على التدبير السيىء، ولا أظن أني سوف أرى طوال حياتي تدبيراً سيئاً كتدبير مصعب بن الزبير لجيشه في معركته الفاصلة هذه التي دارت فيها عليه الدوائر!

لقد غفل مصعب عن الخيانة التي سرت في كتائب جيشه كالنار في الهشيم فانفضوا من حوله في المعركة وتركوه يقاتل مع سبعة نفر أثخنتهم الجراح. وأعداؤه يضربونه بالسيوف والسهام والرماح، وهم ألوف لا يحصيها إلاّ الله.

لاحظ أمير المؤمنين دقة النظام في الفصيلة التي أقودها، فقربني

إليه، وقدمني على كثير من قادة جيشه، ولم يكد يفرغ من معركة مع مصعب حتى دخل الكوفة وتلقى بيعة جميع أهل العراق، ثم استدعاني فقال لي:

يا حجاج .. هل تستطيع الزحف بطائفة من جندنا إلى مكة لمقاتلة عبد الله بن الزبير؟!

كانت هذه هي الفرصة التي أنتظرها فقلت متلهفاً:

نعم يا أمير المؤمنين. وقد جاءتني البشرى بذلك في حلم رأيته البارحة في منامي!

قال مستفسراً:

فماذا رأيت؟

رأيت في المنام أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخت جلده! فابعثني إليه يا أمير المؤمنين وولّني قتاله!

قال أمير المؤمنين مستبشراً:

لقد ولّيتك .. ولكن خذ معك أماناً أكتبه بخطي لعبد الله بن الزبير ومن معه من جنده إن دخلوا في طاعتنا، وإلاّ فقاتلهم وجئني برأس ابن الزبير.

اليوم الثاني:

في طريقي إلى مكة لقتال ابن الزبير ومعي بضعة آلاف من الجنود، فكرت طويلاً في حياتي منذ غادرت بلدتي «الطائف» في الحجاز قاصداً دمشق عاصمة الشام، بحثاً عن فرصة في دولة بني مروان التي كانت أيامئذٍ في مهب الرياح.

وقلت لوالدي وأنا أودّعه:

يا أبت .. أنت معلم صبيان يشهد لك الناس بالكفاية التامة، وتريدني أن أكون مثلك، وقد حاولت أن أكون، ولكني لم أطق صبراً على

تعليم صبيان الطائف، ولن أجلس لهؤلاء الشياطين من أطفال «ثقيف» أعلمهم حروف الهجاء وقصار السور!

أقرني والدي على عزيمتي، وتركني أرحل إلى الشام، ودعا لي بخير، وانحدرت من الطائف، مخترقاً وادي القرى إلى الشام. لا أدري ما تخبىء لي الأقدار..

لم ألبث في دمشق إلاّ قليلاً حتى تعرفت إلى أحد أمراء بني مروان، من إخوة أمير المؤمنين، فجعلني على حرسه، وقال لي:

يا حجاج بن يوسف الثقفي.. إننا نبحث عن رجال أشداء، لأننا نبني دولتنا على أنقاض دولة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد الذي أزعج المسلمين بفساده.. وقد صار الناس في أمر مريج، وإذا آنسوا ضعفاً في دولتنا أكلوها وأكلونا!

قلت له وصوتي منفعل بالحماسة:

ستجدني أيها الأمير سيفاً لا يفل، ورمحاً لا ينكسر، وسوط عذاب على أعداء دولتكم المباركة!

اليوم الثالث:

ها نحن أولاء قد بلغنا مكة وقد حشد فيها عبد الله بن الزبير حشوده..

نصبت المجانيق على جبل أبي قبيس وأمرت بضرب ابن الزبير وأنصاره اللائذين بالمسجد الحرام، فانهالت عليهم أحجار المجانيق، ثم أمرت بضرب جنودنا الحصار على منافذ مكة، لا يدخلها أحد ولا يخرج منها أحد، حتى نفدت أقواتهم وضجوا من الجوع، وأخذوا يتسللون إلينا مستسلمين واحداً بعد واحد، ثم جماعة بعد جماعة، حتى كثر المستسلمون وبينهم أولاد عبد الله بن الزبير، وأكبرهم ابنه «خبيب» الذي يكنى به، فيقال «أبو خبيب».

لم يبق مع أبي خبيب إلاّ قليل من المتعصبين على بني أمية، ولكن جنودنا تكاثروا عليهم فقتلوهم واحداً واحداً.. ولم يبق إلا ابن الزبير يقاتل كأنه سبع جريح، فحمل عليه نفر من جندنا فقتلوه وحملوا رأسه إلى حيث كنت واقفاً أرقب هذه المعركة الأخيرة الدامية.

فرقت في الرجال الذين جاءوني برأس عبد الله بن الزبير ألف دينار، وجلست أتأمل رأس هذا الرجل الذي لبث يقاتل الدولة الأموية تسع سنين.

لقد رأيت من قبل رأس أخيه مصعب الملقب بالأمير الجميل حين حملوه إلى أمير المؤمنين عبد الملك بعد المعركة في العراق. فما أبعد الفارق بين رأس الأمير الجميل ورأس أخيه الملك الكبير.

كان مصعب حين قتل في السادسة والثلاثين من عمره، وكان الدم يصبغ شعره الأسود ووجهه الشاب، أما عبد الله ففي الثالثة والسبعين من عمره، أشيب الشعر، متغضن الوجه، تساقطت أسنانه.

وحين قتل مصعب لم يجد أمه الكلبية بالقرب منه لتبكيه، أما عبد الله فوجد بالقرب منه أمه القرشية الصحابية أسماء بنت أبي بكر الصديق، فعبد الله قرشي من جهة أبيه وأمه، أما أخوه مصعب فمن جهة أبيه فقط، وأخواله من قبيلة بني كلب.

وانتهت دولة بني الزبير في الحجاز، وولاني أمير المؤمنين على الحجاز واليمن، وجعلت عاصمتي في مدينة رسول الله، وأمرت بكنس المسجد الحرام في مكة من الحجارة والدم، وترميم ما تهدم منه في المعركة، والتفت إلى أهل المدينة فلم أطق صبراً عليهم وقلت لهم: أنتم قتلة أمير المؤمنين عثمان بن عفان. ثم ختمت

أيدي جماعة منهم بالرصاص، وفيهم أنس بن مالك وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد، فقيل لي: إنك ختمت هؤلاء الصحابة كما يختم أهل الذمة! وبلغت شكوى أهل المدينة أمير المؤمنين فعزلني عن الحجاز، وأرسل لي عهداً بولاية العراق وأمرني أن أسير إليها من فوري.

اليوم الرابع:

سرت على النجائب السريعة وليس معي إلاّ بضعة عشر جندياً، فدخلت الكوفة وقت الظهر، واتجهت رأساً إلى المسجد الكبير فصعدت المنبر وأنا متلثم بعمامة من الخز الأحمر فحسبني أهل الكوفة أحد أمراء الخوارج، فهموا بي وأنا جالس على المنبر يريدون أن يحصبوني، وطال سكوتي فقالوا: ما هذا الخارجي العيي الغبي، فعندئذٍ كشفت اللثام عن وجهي، ووقفت فقلت:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفوني

بهت من في المسجد وقالوا: هذا الحجاج بن يوسف الثقفي قاتل ابن الزبير، وهادم الكعبة، وخاتم أيدي صحابة رسول الله!

أشرت فسكتوا، فقلت مفتتحاً كلامي: «إني لأرى رؤوساً أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها..».

سرت همهمة استنكار بين الناس، فمضيت أقول مهدداً إياهم:

«إني لأنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميراً.. إن أمير المؤمنين عبد الملك قد نثر كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أمرها عوداً، وأصلبها مكسراً، فوجهني إليكم، ورمى بي في نحوركم، فإنكم أهل بغي وخلاف وشقاق ونفاق، فوالله لأذيقنكم الهوان، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، حتى تذروا العصيان وتنقادوا... والله لتستقيمن على الحق، أن لأضربنكم بالسيف ضرباً

يدع النساء أيامى والولدان يتامى..».

ثم تذكرت أن هؤلاء الناس قد كفوا عن محاربة الخوارج وتركوا المهلب بن أبي صفرة ـ الذي انضم إلى دولتنا ـ حائراً لا يجد جنوداً يقاتل بهم أولئك الخوارج. فقلت وقد احتدت نبرات صوتي:

.. وقد بلغني رفضكم المهلب، وعودتكم إلى بلدكم عاصين مخالفين، وإني أقسم بالله لا أجد أحداً منكم هنا بعد ثلاثة أيام إلاّ ضربت عنقه، وأنهبت داره».

ثم أمرت أحد الحرس فقرأ كتاب أمير المؤمنين عبد الملك إلى أهل الكوفة، فلما قال القارىء:

«... أما بعد، سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم»، لم يرد أحد منهم السلام، فقلت للقارىء:

اقطع!

ثم قلت لهم غاضباً:

يا عبيد العصا.. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟! أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب!

ثم قلت للقارىء «اقرأ» فلما قرأ: «سلام عليكم» قالوا بأجمعهم: وسلام الله على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته!

اليوم الخامس:

ارتحت اليوم قليلاً، فجاء مضحك لنا فقال لي: أصلحك الله أيها الأمير.. إني حضرت خطبتك التي ذممت فيها أهل الكوفة والعراق كافة، وهددتهم وأنذرتهم، فلم أفهم معنى قولك: «أنا ابن جلا» لأني أعرف أنك ابن الشيخ يوسف بن أبي عقيل الثقفي الذي تفخر به قبيلة ثقيف كلها في مدينة الطائف وما حولها!

قلت مستجيباً لدعابته:

إن أبي قد استبدل باسم يوسف اسم جلا!

قال وقد صرف السؤال إلى معنى آخر:

قد عرفنا أن «يوسف» من أسماء الأنبياء، أفكذلك اسم «جلا»؟!

رفعت العصا في وجهه مداعباً وقلت:

يا جاهل.. إن «جلا» هو اسم من أسماء «الصبح».. لأنه يجلو ظلمة الليل..

قطع علينا فكاهتنا صوت صارخ بالتكبير ارتفع في السوق، ينادي الناس إلى أمر لا أدريه، فانطلقت مسرعاً إلى المسجد حتى جلست على منبره، واجتمع الناس فقمت فقلت:

«يا أهل العراق، وأهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق.. إني سمعت تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به وجه الله، ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب، وقد عرفت أنها عجاجة تحتها قصف، يا بني اللكيعة، وعبيد العصا.. وأبناء الأيامى، ألا يحسن أحد منكم حقن دمه، ويعرف موضع قدمه، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالاً لما قبلها، وأدباً لما بعدها»!

فقام رجل فقال: أصلح الله الأمير.. إنني كبرت في السن فلا أستطيع أن أحارب في جيش المهلب كما أمرتم، وهذا ابني شاب تأخذه بدلاً مني!

عرفت هذا الرجل فقلت له:

ألم تكن ممن حاصروا بيت أمير المؤمنين الشهيد عثمان بن عفان، فهل حاصرته بنفسك يومئذٍ أم بعثت إليه ابنك بدلاً؟!

لم يرد الرجل، فأمرت به فضرب الحرس رقبته بالسيف، وصادرت أمواله!

نظرت إلى رأس هذا الرجل تحت قدمي، فتذكرت رأس عبد الله بن الزبير حين رماه الجنود عند قدمي، وتذكرت رأس الأمير الجميل مصعب بن الزبير وقد ألقى به رجالنا عند قدمي أمير المؤمنين عبد الملك وتذكرت قولي لأهل الكوفة، إني أرى رؤوساً أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.

نعم إني لصاحب تلك الرؤوس التي أراها الآن بظهر الغيب تتطاير على امتداد السنين المديدة القادمة.

نظرت إلى رأس هذا الرجل تحت قدمي، فتذكرت رأس عبد الله بن الزبير حين رماه الجنود عند قدمي، وتذكرت رأس الأمير الجميل مصعب بن الزبير وقد ألقى به رجالنا عند قدمي أمير المؤمنين عبد الملك وتذكرت قولي لأهل الكوفة، إني أرى رؤوساً أينعت وحان قطافها وإني لصاحبها.

نعم إني لصاحب تلك الرؤوس التي أراها الآن بظهر الغيب تتطاير على امتداد السنين المديدة القادمة.

٢

حرب النار والماء

اليوم الأول:

تشغلني الآن ثورة الخوارج على حدود العراق فقد اشتدت شوكة شيخهم وأميرهم نافع بن الأزرق الذي كان يحارب مصعب بن الزبير حين كان والياً لأخيه عبد الله بن الزبير على العراق، واستعمل مصعب على حرب هؤلاء الخوارج المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد الباسل المحنك، فردهم عن العراق ثم قتل الله مصعب بن الزبير على يد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وقتل الله عبد الله بن الزبير على يدي. ودالت دولة الزبيريين. وذهبت أدراج الرياح، وبقي الخوارج على حالهم. ثائرين على الإسلام والمسلمين. يرون كل دولة إسلامية دولة كفر وإلحاد، وقد حكموا بكفر أمير المؤمنين عبد الملك ورجال دولته كما حكموا من قبل بكفر مصعب بن الزبير وأخيه ومن والاهما من أهل الحجاز والعراق، وكل مسلم عند هؤلاء الخوارج كافر، حلال دمه وماله وعرضه لهم إلاّ أن يعلن إسلامه على أيديهم!

وقد وليت على حربهم المهلب بن أبي صفرة وكان من قبل يحاربهم تحت راية الزبيريين. فلما أذهب الله دولتهم انضم إلينا وبايع أمير المؤمنين عبد الملك. وصار من أخلص رجال دولتنا وأقدرهم على الذود عنها.

إلاّ أن الخوارج فرق كثيرة. وجرأتهم بالغة، وما راعني أخيراً إلاّ الخارجي شبيب بن يزيد الذي دفعته جرأته إلى اقتحام الكوفة وهي عاصمتي. فما شعرت به إلاّ وقد اقتحم مسجدها الكبير، وكان فيه قوم يصلون فقتلهم. ثم مرَّ رجاله بأحد المساجد الصغيرة. فوجدوا فيه رجلاً يصلي فقتلوه. واستقبلهم رجل فقال لشبيب: السلام عليك أيها الأمير، فغضب رجال شبيب وقالوا للرجل. هذا أمير المؤمنين أيها الجاهل، ولا حكم إلاّ لله.

ثم شدّوا على الرجل فقتلوه.

خرجت من قصر الإمارة في عدة الحرب وناديت: يا خيل الله اركبي.. فاجتمع الجنود وهرب شبيب. فدعوت عبد الرحمن بن الأشعث وانتخبت له ستة آلاف مقاتل وأمرته أن يسير بهم لمقاتلة شبيب الخارجي، وأن يسلك في أثره أين سلك حتى يدركه فيقتله ويأتيني برأسه..

اليوم الثاني:

انهزم الجيش الذي أرسلته بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث لقتال شبيب الخارجي. وفرَّ المنهزمون عائدين إلى الكوفة، وأقبل شبيب الخارجي فعسكر على مقربة منها ثلاثة أيام. فخرجت من القصر فجمعت من في الكوفة من جند الشام. وسرت بهم حتى بلغت الموضع الذي يعسكر فيه شبيب فنزلت عن بغلتي ودعوت بكرسي فقعدت عليه ثم ناديت في جنودنا:

يا جند الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين. فلا يغلبن باطل هؤلاء الخوارج الأرجاس حقكم.. غضوا الأبصار. واجثوا على الركب، واستقبلوهم طعناً بأطراف الرماح!

سمع شبيب والخوارج ما ناديت به جند الشام. فصاحوا:

لا حكم إلاّ الله!

وهجم علينا الخوارج فثبتنا لهم. وحركت جنودنا وأنا جالس على الكرسي لا أتزحزح عنه، وناديتهم..

يا أهل الشام.. يا جند أمير المؤمنين عبد الملك.. اصبروا لهذه الشدة، ثم هو النصر إن شاء الله!

وأمر شبيب فرسانه بالنزول عن خيلهم. فنزلوا، فقاتلهم عساكر الشام وقتلوا امرأة شبيب المتعصبة المسماة «غزالة» وكانت تقاتل بسيفها مع الرجال ثم قتلوا أخا شبيب، فارتفع في معسكرنا التكبير، وركب شبيب وأصحابه خيلهم طلباً للفرار، فشد عليهم رجالنا. ولكن شبيباً وبعض رجاله استطاعوا الفرار..

ناديت في فلول شبيب الهاربة:

أيها الخوارج.. توبوا إلى الله.. ومن أتانا منكم فهو آمن!

فجاء إلينا منهم كثيرون، يعلنون توبتهم، ومبايعتهم لأمير المؤمنين عبد الملك.

إن فرار شبيب لن يخدعني عن حقيقته، فهذا أشد الخوارج مراساً. ولئن تركناه ليجمعن لنا الجموع إلى قتالنا، وليفعلن ذلك في يوم قريب..

اليوم الثالث:

كتبت إلى أمير المؤمنين في دمشق أطلب مدداً وأعترف له بعجز

عساكرنا عن دحر شبيب.

وقد أقام شبيب في شرق العراق واستراح هو وأصحابه، وجاءني المدد من أمير المؤمنين، فأخرجت الأموال وفرقتها في الجند، وجعلت عليهم سفيان بن الأبرد أميراً، فسار بهم حتى التقى بالخوارج عند جسر دجيل بالأهواز، فعبر شبيب بعسكره الجسر إلى سفيان وجنودنا، وسقط منا ومنهم جنود في ماء نهر دجيل، ثم رجع كل فريق إلى مكانه الذي كان قد انطلق منه على جانبي النهر.

ثم أراد شبيب أن يفاجىء جنودنا ليلاً، فلما انتهى مع أصحابه إلى الجسر، قال لهم: اعبروا، فعبروا وتخلف هو في آخرهم.. فلما جاء ليعبر وهو على حصانه نزا الحصان على فرس أنثى فوق الجسر والماء يموج من تحته فزل حافر الحصان وسقط بشبيب في الماء، فلما سقط شبيب صاح: «ليقضي الله أمراً كان مفعولاً»! وانغمس في الماء ثم ارتفع لحظة فقال: «ذلك تقدير العزيز العليم».. ثم جرفه التيار وغرق!

شعر الخوارج بغرق شبيب فصرخوا في صوت واحد:

غرق أمير المؤمنين!

ذلك أن شبيباً هو عند الخوارج أمير المؤمنين، وقد بايعوه على مقاتلة المسلمين أينما كانوا..

وسمع سفيان بن الأبرد قائد جندنا صراخ الخوارج حزناً على أميرهم، فكبر سفيان وجنودنا، ووثبوا إلى النهر فاستخرجوا جثة شبيب وشقوا جوفه وأخرجوا قلبه، فوجدوه صلباً كالحجر، فصار جنودنا يضربون به الأرض فيثب عنها ذراعين أو ثلاثة وثبة الذئب أو النمر..

وقبض جنودنا على أمه، فقالوا لها:

إن شبيباً قد قتله الله!

فلم تصدقهم وقالت:

لا يقتله الله أبداً..

قالوا لها:

فإنه قد غرق!

صاحت وولولت وقالت:

أما الغرق فإني لا أكذبه، فإني حين حملت به رأيت في منامي أن شهاباً من النار قد خرج مني. والشهاب لا يطفىء ناره إلاّ الماء!

هكذا وقع الشهاب الملتهب في ماء دجيلة فانطفأ كما رأته أمه في الرؤيا قبل مولده.

اليوم الرابع:

أتذكر الآن ما كان من أمر شبيب الخارجي، فهذا الرجل كان ممتلئاً يقيناً بأنه وأصحابه ـ وحدهم ـ على الحق، وأنهم دون غيرهم مسلمون مؤمنون، وكان لشبيب وأصحابه صبر فذ على القتال، حتى إنني حشدت عليه في بعض المعارك خمسين ألف مقاتل ولم يكن معه إلاّ ألف مقاتل فقط، ولما قيل له إن الحجاج قد أرسل إليك خمسين ألفاً لم يعبأ بهم شيئاً، بل قام في أصحابه فوعظهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة «الكفار» الأعداء، فلما أذن للمغرب صلى بأصحابه صلاة تامة الركوع والسجود ثم انتظر حتى طلع القمر وأضاء الميمنة والميسرة والقلب من جيشنا، فقام بجنوده فحمل على جنودنا وهو يصيح: أنا شبيب الشيباني، لا حكم إلاّ لله! لا حكم إلاّ لله!

ثم كرَّ على ميمنتنا وميسرتنا ففرق شمل جنودنا، وقصد القلب فاخترقه حتى وصل إلى قائد جيشنا فقتله، وانهزم جيشنا الجرار، وانتصر جيشه الذي لا يبلغ عشر معشار ما حشدناه عليه من العدد والعديد.

فمن أي يستمد هؤلاء الخوارج هذه القوة وهذا الصبر، وكيف يهزم ألف مقاتل منهم خمسين ألف مقاتل منا؟!

أظن أن العلة تكمن في أهل الكوفة، فإننا أرسلنا منهم خمسين ألفاً لا يؤمن أحدهم بخلافة عبد الملك بن مروان، ولا يهمه أن تنتصر على الخوارج، ولا حتى على الروم أو المجوس أو اليهود..

ولقد صببت غضبي على أهل الكوفة يومئذٍ وعيرتهم بالهزيمة وقلت لهم: لا أعز الله من أراد بكم العز، ولا نصر من أراد بكم النصر، يا أشباه الرجال ولا رجال!

ولكن ماذا نصنع للقضاء على هؤلاء الخوارج الذين يرون أننا مشركون لا مسلمون، وأنهم ـ وحدهم ـ المسلمون المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؟ لقد رأيت قتال هؤلاء الخوارج وراقبته لأعرف حقيقة أمرهم، وقد رأيت «جهيرة» أم شبيب تقاتل في بعض المعارك مع أنها جارية من أصل رومي، ورأيت زوجته «غزالة» تقاتل قتالاً يعجز عنه أشد الرجال، وكنت ـ والله ـ أستشعر بعض الخوف منها حتى عرف الناس ذلك عني وقال أحد الشعراء يهجوني ويهزأ بي:

أسد علي وفي الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلاّ برزت إلى «غزالة» في الوغى   بل كان قلبك في جناحي طائر

وقد ذهب البيت الأول مثلاً، رواه الناس وسخروا به مني، وتحدوني بالبيت الثاني وكأني سمعتهم يقولون لي هازئين: «هلا

برزت إلى غزالة في الوغى؟». وقد علم الله أني كنت أخاف أن أبرز إلى غزالة!

وشبيب بن يزيد من بني شبيان الموصوفين بالشجاعة، وهو أحد الثائرين على استئثار قريش بالخلافة، ودعاه أصحابه «أمير المؤمنين».. ولولا أن الله قهره بالغرق وأطفأ ناره بماء نهر دجيل، لاستطاع أن يجمع الناس ويزحف على الشام ويخلع عبد الملك بن مروان. وقد جعل الله هزيمة هذا السبع الضاري على يدي أنا الحجاج بن يوسف الثقفي، فهل يقدرني بنو مروان وبنو أمية حق قدري. وهل يفوضني أمير المؤمنين عبد الملك في أمور العراق وفارس أفعل كيف أشاء توطيداً لسلطانه ومحقاً لأعدائه؟

اليوم الخامس:

حدثني رجال الخبر في ديواننا أن أحد كبار أتباع شبيب بن يزيد، قبض عليه جندنا وحملوه إلى أمير المؤمنين في دمشق، وكان هذا الرجل مهدر الدم لقوله بيتين من الشعر ينوه فيهما بأمير المؤمنين شبيب كما كان الخوارج يسمونه.. فلما وقف الرجل بين يدي عبد الملك بن مروان قال له:

أنت القائل:

فمنا حصين والبطين وقعنب.. ومنا أمير المؤمنين شبيب؟

قال الرجل متخابثا:

إنما قلت: ومنا أمير المؤمنين.. بفتح الراء لا بضمها، فأنا أخاطبك أنت يا أمير المؤمنين!

فأعجب هذا الاعتذار عبد الملك وأطلق هذا الخارجي وهو من ألدّ أعدائه.

لقد تغلبت على أمير المؤمنين محبته للأدب والشعر والفصاحة، فكان منه هذا التفريط في سياسة الدولة، ولو وقع ذلك الخارجي في يدي ما أعفيته من القتل ولو جاءني بكل «النحو» الذي كتبه أبو الأسود الدؤلي.

وخليفتنا هذا عبد الملك بن مروان، الذي تخلى عن حذره وحرصه لنكتة نحوية سمعها من خارجي خبيث، هو أمير المؤمنين الذي لا تستعبده الشهوات التي تستعبد أقوى الرجال، فقد أهدى إليه عامله في المغرب جارية بالغة الحسن، فباتت عنده ليلة، فلم ينل منها شيئاً أكثر من أن غمز كفها بإصبعيه، وقال لها:

أنت والله منية المتمني، وشهوة المشتهي!

قالت:

فما يمنعك يا أمير المؤمنين جاريتك؟

قال:

يمنعني بيت مدحنا به أحد الشعراء وهو:

قوم إذا حاربوا شدّوا مآزرهم.. دون النساء ولو باتت بأطهار.

ثم قال للجارية مفسراً لها البيت أو مفسراً موقفه منها:

إنني ما زلت في حرب مع أعدائي، وقد شددت مئزري فلا أحله للنساء حتى أفرغ من هؤلاء الأعداء!

فليت شعري، كيف يصبر أمير المؤمنين عن جميلات النساء وهن مشغلة للرجال الفحول، ولا يصبر على نكتة نحوية ساقها إليه شاعر خارجي أراد أن يخادعه ويفر منه بجلده؟

أثق بأمير المؤمنين، وأرى ما أحله حلالاً وما حرّمه حراماً، ولكنني لم أفهم بعد سبب إطلاقه الشاعر الخارجي الذي خلع على شبيب بن يزيد المقتول لقب «أمير المؤمنين»!

٣

رجل المعركة الأخيرة

اليوم الأول:

في الدنيا ناس يحلمون بالعودة إلى أيام عمر بن الخطاب، ويقولون: لقد استقر الأمر لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فما باله لا يصلح ما أفسده الولاة السابقون، ويعود إلى سيرة عمر، عدلاً ومساواة، وقمعاً للظالمين، ونصراً للمظلومين؟

ولو قال لي أحد من أهل العراق: سر فينا يا حجاج سيرة عمر في أهل زمانه، لقلت له: أنا الآن فيكم كعمر، ولو عاش عمر حتى حكمكم لأكثر فيكم القتل والنفي والسجن كما أفعل أنا الآن..

ولله در أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إذ قيل له: يا أمير المؤمنين، ألا تسير في الناس سيرة عمر؟! فقال: أنصفونا يا معشر الرعية، فإن الزمان قد تغير وفسد، ولو لم نصلت السيف على الرقاب، لقطع اللصوص على الناس الطرق، وأكل القوي الضعيف، وأغارت عصابات الأعراب على أهل المدن في مساكنهم، ولكانت الفتن الجائحة التي لا تنطفىء.. فلا تقولوا لي -

يا معشر الرعية ـ كان عمر يفعل كذا وكذا، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه ويصلح رعيته!

وصدق أمير المؤمنين عبد الملك، فما عسى كا يصنع عمر ـ رحمه الله ـ لو خرجت عليه في زمانه أمثال هذه الخوارج التي تملأ علينا السهل والجبل، وكلما قتلنا خارجة طلعت علينا أخرى، وقد قتلنا بالأمس شبيب بن يزيد الذي كان أنصاره يسمونه «أمير المؤمنين» ولكن شبيباً لم يكن إلاّ أميراً واحداً من أمراء الخوارج الكثيرين، وهاأنذا مضطر إلى حشد جند الشام مرة أخرى لقتال خارجي أخر هو قطري بن الفجاءة، المتعصب الشديد المراس، والشاعر البليغ والخطيب المصقع الذي يخلب ألباب أتباعه بالخطب والأشعار.

وقع في يدي أحد أتباع هذا الخارجي، فسألته:

ما يريد قطري بن الفجاءة من خروجه على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟

قال الرجل بلا مبالاة:

يريد أن يخلعه!

لماذا؟

لأن الحكم لله وحده لا لعبد الملك! بهذا جاء الكتاب..

أمرت بقتل هذا الجاهل الذي يتعالم علينا بفقهه، واستدعيت كاتبنا فأمليت عليه هذه الرسالة إلى قطري بن الفجاءة:

«سلام عليك! أما بعد فإنك مرقت من الدين مروق السهم من الرمية، فأنت عاص لله ولولاة الأمر، غير أنك أعرابي جلف أمي تستطعم الكسرة، وتشتفي بالتمرة، خرجت لتنال شبعة فلحق بك طغام أراذل، يهزون الرماح على خوف وجهد من أمورهم، وسيهلكهم الله»!

اليوم الثاني:

تلقيت رد قطري بن الفجاءة،، وفيه يقول:

«من قطري بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف. سلام على الهداة من الولاة الذين يرعون حرمات الله ويرهبون نقماته، فالحمد لله على ما أظهر من دينه وقمع به أهل السفالة، وهدى به من الضلالة، ونصرنا به عند استخفافك بحقه.

«كتبت إليّ تذكر أني أعرابي جلف أميّ أستطعم الكسرة، وأشتفى بالتمرة، ولعمري يا ابن الحجاج، إنك لميت في جبلتك، متكبر في طريقتك، ضعيف في وثيقتك، لا تعرف الله ولا تجزع من خطيئتك، يئست وأستيأست من ربك، فوالذي نفسي بيده لتعرفن أن مقارعة الأبطال ليست كتصدير المقال، وإني لأرجو الله أن يدحض حجتك، ويمنحني مهجتك!

هكذا يهددني هذا الأعرابي الجلف بالموت، ويظن أنه وأصحابه أبطال مغاوير لا تهزمهم قوة، وأن حجته في خروجه علينا تدحض حجتنا في مطالبته بالإذعان لبيعة أمير المؤمنين! فماذا نصنع وقد أحاطت بنا مشكلة هؤلاء الخارجين على الدولة إلاّ أن ننفذ فيهم حكم الله على المفسدين في الأرض، فنقتلهم ونقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف؟

لقد أغرى الخروج علينا حتى بعض المقربين إلينا فهذا هو مطرف ابن المغيرة، أبوه المغيرة بن شعبة الصحابي، ومن كبراء ثقيف مثلي، ولكن اجتماعي وإياه في أرومة ثقيف لم يمنع مطرفاً هذا من الخروج عليّ أنا الحجاج الثقفي، ورحم الله المغيرة بن شعبة، كان والله من أكبر الناس عقلاً، ولكن كانت به رقة للنساء، وقد ولد «مطرف» هذا لإحدى نسائه وكانت قد حملت به من زوج لها

قبل زواج المغيرة بها، فلما ولد ادعاه المغيرة وستر على المرأة، فهذا هو منشأ «مطرف» الخارجي وأصله، وحسبه ونسبه، فلا هو من «ثقيف» رهطي ورهط المغيرة، ولا له أصل معروف في العرب أو العجم!

اليوم الثالث:

لم يكن مطرف المنتسب إلى المغيرة بن شعبة الثقفي خارجياً، ولا كان يعرف ماذا يقول الخوارج، حتى مرَّ بالبلد التي وليته عليها شبيب بن يزيد الخارجي قبل أن يموت غرقاً، فنفث أصحاب شبيب من سحر أقاويلهم في قلب مطرف، حتى قال لهم مؤيداً: والله ما دعوتم إلاّ إلى الحق وما نقمتم إلاّ جوراً ظاهراً.. وأنا لكم مؤيد ومتابع!

هكذا أفسد علينا الخوارج أحد رجالنا الذين وليناهم على بلاد المسلمين، وإنهم ليحاولون استمالة ولاتنا الآخرين، فضلاً عن استمالة العامة والدهماء والجفاة الحفاة من الأعراب!

وقد سار «مطرف» في بلاد فارس حتى بلغ مدينة «قم» وبعث ولاة على تلك النواحي وأتاه الناس، وكثر أتباعه، ولم يبق إلاّ أن يعلن نفسه أميراً للمؤمنين كما فعل من قبله خوارج كثيرون.

كتب إلينا عاملنا على أصبهان يعرفنا حال مطرف ويستمدنا، فأمددناه بالرجال بعد الرجال على دواب البريد ذات السرعة الفائقة، وكتبت إلى عمالنا في الجهات القريبة من «مطرف» أن يجتمعوا عليه ويقاتلوه يداً واحدة.

انهزم مطرف وأصحابه بعد قتال شديد، وقتل الله مطرفاً وجماعة كثيرة ممن معه، واحتز جنودنا رأسه وجاءوا به إلينا، فأمرت

بتعليقه مع رؤوس أصحابه على أبواب دار الولاية، نكالاً بالخارجين، وعبرة لمن تحدثه نفسه بالخروج علينا!

اليوم الرابع:

ما زال الخوارج يتكاثرون، ثم تنشق فرقة عن فرقة فيقاتل بعضهم بعضاً، ولكنهم لا يتركون مقاتلتنا في كل حال..

وقد انقسمت القبائل.. بعضها معنا نحن ولاة الأمر الشرعيين، وبعضها مع الخوارج.. وبالأمس واجهت فرقة من الخوارج فرقة من جنودنا، فقالت إحداهما للأخرى: من أنتم؟ فقال هؤلاء: نحن من بني تميم.. وقال أولئك: ونحن من بني تميم كذلك.

وليس بنو تميم - على كثرتهم - إلاّ بعض قبائل العرب، ولن تجد في العرب اليوم إلاّ مقاتلين في صفوفنا، أو مقاتلين في جيوش للخوارج تنتشر من أقصى خراسان وفارس إلى العراق ونجد، فالدولة في أمر مريج، وأعداؤها الروم يهددونها، ولكن الخوارج لا يبالون بالروم ولا يطلقون عليهم سهماً واحداً، وليس للخوارج من عدو إلاّ دولة الإسلام والمسلمين وخليفتها عبد الملك بن مروان، وعامله المخلص في طاعته الحجاج بن يوسف الثقفي الذي يتقرب إلى الله بسفك دماء المحلين والناكثين والمفسدين في الأرض.

قائدنا المهلب بن أبي صفرة الذي يقاتل قطري بن الفجاءة وأصحابه في بلاد العجم، دسَّ عليهم دسيساً يثير الخلاف بينهم ويفرق صفوفهم، فقد جاء برجل من المجوس وأمره أن يقصد قطرياً ويسجد له، فلما فعل ذلك قال الخوارج لقطري: إن هذا الكافر قد اتخذك إلهاً، ووثب بعضهم إلى المجوسي فقتله، فاختلفوا وفارق بعضهم قطرياً، ولم يبق معه إلاّ قليل من أصحابه، أما الذين فارقوه فإنهم بايعوا رجلاً منهم يقال له «عبد ربه الكبير» ثم ما لبث أن

اقتتل أصحاب قطري وأصحاب عبد ربه، ووقف قائدنا المهلب بن أبي صفرة لا يقاتل الفريقين ما دام يقتل بعضهم بعضاً،

وقد تركهم المهلب يقتتلون شهراً، حتى انهزم قطري بن الفجاءة فانسحب بأصحابه إلى طبرستان، وبايع المنتصرون عبد ربه الكبير وعندئذٍ نهض إليهم المهلب بجنودنا، فوقف عبد ربه في أصحابه يقول لهم: يا معشر «المهاجرين»... إن قطرياً ومن معه هربوا طلباً للبقاء ولا سبيل إليه، فألقوا عدوكم، وهبوا أنفسكم لله!

ثم ترجل الخوارج عن خيولهم وعقروها، واشتد القتال بينهم وبين عسكرنا، حتى أنزل الله النصر علينا وقتل من الخوارج أربعة آلاف، وكان فيمن قتل عبد ربه الكبير.

وأخذ جنودنا كل شيء كان للخوارج، من سلاح ودواب وأموال، وسبوا نساءهم، لأن الخوارج يأخذون نساء المسلمين سبايا لاعتبارهم المسلمين ونساءهم كفاراً..

اليوم الخامس:

وماذا بعد أن قتل الله عبد ربه الكبير وأصحابه؟!

لقد تغنى شعراؤنا بانتصارنا وهجوا عبد ربه حتى قال أحد هؤلاء الشعراء:

لقد مَسَّ منا عَبْدَ رَبٍّ وجُنْدَه   عقابٌ فأمسى سَبْيُهُم في المغانم

وذكر الشاعر قطري بن الفجاءة الهارب في بلاد العجم فقال:

وما قطري الكفر إلاّ نعامة   طريد يدوي ليله غير نائم
إذا فر منا هارباً كان وجهه   طريقاً سوى قصد الهدى والمعالم

كتبت إلى المهلب بن أبي صفرة أشكره على ما بذل هو وأولاده في سبيل النصر، وطلبت إليه أن يزورني في الكوفة

لأشاوره فيما نصنع مع من بقي من الخوارج بعيداً عن قبضتنا وعقابنا..

جاء المهلب فأكرمته وأجلسته إلى جانبي في محفل عام حضره الكثيرون، وقمت فقلت مخاطباً الحاضرين:

يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب، فقد حارب حتى أنجاكم من الأرجاس الخوارج، وأنتم قعود في بيوتكم!

ثم إنني وليت حرب قطري بن الفجاءة قائداً من أحسن قوادنا هو سفيان بن الأبرد، في جيش عظيم، ومعه إسحاق بن الأشعث في جيش آخر، فسار الجيشان في طلب قطري فلحقوه في طبرستان فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه، ولما حاول الفرار وقع عن حصانه، فسقط في هوة عميقة وغاب عن أنظار جنودنا، فجاءه رجل عجمي من أهل البلد فقال له قطري وهو جريح يقطر دماً: أسقني ماء! فقال له الرجل: لا أسقيك حتى تعطيني شيئاً.. فقال قطري: ما معي إلاّ سلاحي أعطيك إياه إذا أتيتني بالماء، فانطلق الرجل حتى أشرف على الهوة التي رقد فيها قطري فألقى عليه حجراً فصاح قطري متألماً، فأسرع إليه بعض جنودنا فقتلوه واحتزوا رأسه، وتنازعوا على الرأس، كل منهم يدعي أنه احتزه قبل غيره، فأرضاهم قائدهم وأحسن مكافأتهم جميعاً، ثم بعث بالرأس إلينا، فبعثنا به إلى أمير المؤمنين في دمشق، ليلقي نظرة على ملامح رجل المعركة الأخيرة في حرب الخوارج.

لم يستسلم بقايا أصحاب قطري بن الفجاءة، فحصرهم جيشنا حتى أكلوا خيولهم وبغالهم وحميرهم، فلما لم يبق ما يأكلونه وثبوا يقاتلوننا حتى هلكوا جميعاً وبعث قائدنا برؤوسهم إلينا.. وما أكثرها.

هكذا انقرض الخوارج الأزارقة في آخر معاركهم بمقتل قطري ابن الفجاءة وأصحابه، بعد أن اتصل أمرهم في الخروج على دولة الإسلام والمسلمين بضعة وعشرين عاماً.. من عهد معاوية إلى عهد عبد الملك.

ولكن هل انتهت متاعب أمير المؤمنين ومتاعبي؟!

٤

الخليفة وتاج العجم

اليوم الأول:

في هذا العام - ٧٧ للهجرة - مرت سبع عشرة سنة على وفاة الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ذهبت كلها في محاربة المسلمين بعضهم بعضاً.. شيعة بني هاشم يحاربون بني أمية، وبنو أمية يحاربون شيعة بني هاشم كما يحاربون دولة ابن الزبير، ثم يخرج الشيعة من الساحة وينفرد الأمويون بالزبيريين ويقتلون خليفتهم عبد الله بن الزبير وأخاه مصعباً الأمير الجميل، فإذا فرغ الأمويون من ذلك وجدوا الخوارج في انتظارهم يهتفون بندائهم: لا حكم إلاّ لله، وهو النداء الذي ظل يشق حناجرهم منذ أيام أبي تراب علي ابن أبي طالب إلى أيامنا.

ها نحن أولاء قد فرغنا أخيراً من طغمة الخوارج ووضعت جميع الحروب داخل الدولة أوزارها، ولكن بعد أن أوهنتها وأكلت زهرة رجالها، ونزحت خزائن أموالها، وغيّرت وبدّلت في أحوالها.

إلاّ أن دولة المسلمين توحدت تحت راية خليفة واحد،

واستظلت أروضها بالأمن الظليل، من أقصى حدودها في بلاد العجم عند نهر بلخ وسجستان، إلى الهند شرقاً وإلى آخر حدودها في أفريقيا وبحر الظلمات غرباً.

ومن أرمينيا شمالاً وأذربيجان، إلى اليمين جنوباً، وما وراء مصر من أرض السودان.

هذه الأراضي الشاسعة كلها أحرزها المسلمون حين جعلوا بأسهم على العدو ولم يجعلوه بينهم كما فعلوا أيام فتنة علي ومعاوية، وأيام فتنة الشيعة والزبيريين والخوارج، وهي الفتنة الجائحة التي امتدت سبعة عشر عاماً، ثم يسر الله لأمير المؤمنين عبد الملك، ويسر لي أن نطفىء نارها وولاني أمير المؤمنين على العراق والشرق كله، وأطلق يدي في تصريف الأمور بعد أن خبر ولائي، وعرف أني سيفه الذي لا يفل، ودرعه التي تتكسر عليها نصال العصاة المارقين!

ولكن متاعب أمير المؤمنين ومتاعبي لم تنته، وما زال توطيد الدولة يقتضي جهداً عظيماً لرأب الصدوع، وحشد الجموع. حتى يتيسر للدولة استئناف فتوحها العظيمة مشرقاً ومغرباً.

اليوم الثاني:

يعجبني أن أمير المؤمنين عبد الملك قد شعر أخيراً بالأمن والدعة، بعد أن لبث مؤتزراً لا يحل إزاره للنساء طيلة المدة التي كنا نقاتل فيها أعداء الدولة.

ولكن يدهشني أن أمير المؤمنين لم يكد يحل إزاره حتى أوفد رسله إلى «المدينة» يخطب سكينة بنت الحسين أرملة عدوه مصعب ابن الزبير الذي قتله وجلس ينظر إلى رأسه الدامي بين يديه!

إن أمير المؤمنين رجل رزين ركين. فكيف خانته رزانته فأرسل يخطب سكينة بنت الحسين وهي أرملة غريمه وقتيله؟

وسكينة تزوجت مرتين، وترملت مرتين، وما أظن أن زوجها الثالث سيموت إلاّ بحد السيف، وقد أراد الله الخير بأمير المؤمنين إذ رفضت سكينة خطبته، وقالت: ما كنت لأتزوج من قتل زوجي مصعباً رحمه الله!

ومن حسن الطالع أن عائشة بنت طلحة الزوجة الأخرى لمصعب قد تزوجت قبل أن يفكر أمير المؤمنين في خطبتها، وأظن عائشة لن تموت حتى تقضي على رجال كثيرين!

وأمير المؤمنين الذي يخطب هذه وتلك، قد استكثر على خادمه الحجاج بن يوسف الثقفي أن يتزوج امرأة من بني هاشم، فقد أمهرت إحدى بنات عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ألف ألف درهم قبضها ابن جعفر مني عداً ونقداً، فلما انتهى النبأ إلى الوليد ابن عبد الملك ـ ولي العهد ـ ثار في وجه ابن جعفر وقال له مؤنباً:

ألا يخجلك أن تزوج ابنتك من ذلك العبد الثقفي يتفخذها وهي شريفة من بنات هاشم بن عبد مناف؟

قال له ابن جعفر معتذراً:

إن عطائي يا وليد في عهد أبيك قد اعتوره النقصان فلم يعد يكفيني، وقد كان عطائي في عهد معاوية ألف ألف درهم وفي عهد يزيد بن معاوية ثلاثة آلاف ألف درهم فاسأل نفسك واسأل أباك عن ذلك ولا تسألني فإني غير ملوم وقد ساءت الحال فلم أجد مناصاً من قبول المهر الذي أعطانيه الحجاج، وهو مبلغ جسيم.

اشتد غضب الوليد واقتحم مجلس أبيه في قصر الخلافة وقال له على رؤوس الأشهاد من بني أمية وعلية القوم:

يا أمير المؤمنين.. كيف أذنت لذلك الحجاج الثقفي أن يتزوج بنات بني هاشم، وإنما هن وبنات بني أمية لجد واحد، هو جدنا عبد مناف ابن قصي؟

قال أمير المؤمنين وقد هاله الأمر:

ما أذنت لهذا الفاسق بشيء، وأراه قد تجاوز حده، واجترأ علينا، وظن نفسه نداً لنا، فوالله لأؤدبنه غير هذا الأدب!

ثم بعث أمير المؤمنين على خيل البريد الراكضة كتاباً أغلظ لي فيه، وذكر أني تجاوزت قدري بزواجي من إحدى حفيدات جد عبد مناف، وأقسم بالله لئن مسستها ليقطعن أحب أعضائي إلى نفسي، وأمرني بتسويغ المهر لأبيها، لا أسترد منه درهماً!

اليوم الثالث:

لم يغضبني منع أمير المؤمنين زواجي من بنت عبد الله بن جعفر الهاشمي، ولكني تعجبت من هذه الغيرة على بنات بني هاشم وهن اللاتي أرسلهن عبيد الله بن مرجانة منذ سنوات سبايا إلى يزيد بن معاوية في دمشق بعد وقعة كربلاء ومقتل الحسين!

إن الوليد بن عبد الملك الذي حرّض أباه ضدي، لم يزل صغير السن، ضعيف الرأي، وهو لم يأنف من زواجي بتلك الهاشمية لأنها من بنات عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لأنها من حفيدات «عبد مناف» جد بني أمية وبني هاشم في الجاهلية الأولى! وما أبعد الغضب لعبد مناف، عن الغضب لرسول الله

وإن ولائي لأمير المؤمنين عبد الملك لن تؤثر فيه هذه السفاسف، وما أنا بالمزواج المطلاق الذي يتزوج النساء ويطلقهن، فإن لي في ولايتي الكبيرة لشغلاً شاغلاً لا أجد معه وقتاً للنساء، وها قد عادت الحرب في داخل الدولة مرة أخرى، ولكنها حرب صغيرة

أرجو أن أخمد نارها وأقضي على رؤوس الفتنة فيها بغير عناء!

ولا أريد أن أعكر صفو أمير المؤمنين بالكتابة إليه عن هذه الفتنة الجديدة، فإني أراه الآن منصرفاً إلى سماع الشعراء والخطباء والمتحدثين، كأنه يستجم من الجهد الجهيد الذي أثقل كاهله منذ تولى الخلافة عقب وفاة أبيه، حتى قتل الله أعداء الدولة واستأصلهم أخيراً.

وأمير المؤمنين من العلماء البصراء بالشعر، وبعض الناس يعيبون عليه تقريبه للشاعر الأخطل ذلك الشامي العربي الذي لا يدين بالإسلام، ولكن أمير المؤمنين يراه أشعر الشعراء لأنه وقف مدائحه الأخيرة على أمير المؤمنين وبني أمية.

وقد طمع الشعراء في عطاء أمير المؤمنين فتكاثروا على بابه، وبينهم شعراء كانوا بالأمس القريب يمدحون الزبيريين ويهجون بني أمية، ومن هؤلاء عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر مصعب بن الزبير الذي امتدحه بقصائد رنانة!

اليوم الرابع:

اكتشفت شاعراً من نجد يقول شعراً لا يحسن أن يقوله أكبر الشعراء أمثال الأخطل والفرزدق وكثير عزة وعبيد الله بن قيس الرقيات.

الشاعر اسمه «جرير» ... مدحني بقصيدة فطلبت إليه أن ينظم مديحاً في أمير المؤمنين حتى أوفده إليه ليسمعه هذا المديح ويمتعه بجودة شعره.

وبلغني أن عبد الله بن جعفر، الذي منعني أمير المؤمنين من زواج ابنته، قد تشفع للشاعر ابن قيس الرقيات فعفا عنه أمير

المؤمنين وأذن له أن ينشده القصيدة التي مدحه بها، فكان مطلعه في الغزل:

عـاد لـه مـن كـثيـرة الـطـرب
فـعـينه بـالـدمـوع تـنـسـكـب

كـوفـيـة نـازح مـحـلـتـهـا
لا أمم دارهـــا ولا صـــقـــب

حتى قال فيها يمدح أمير المؤمنين:

إن الأغر الذي أبوه أبو العاصي «م»
عـــلـــيـــه الـــوقـــار والحجـــب

يـعـتـدل الـتـاج فـوق مـفـرقـه
عـلـى جـبـيـنٍ كـأنـه الـذهـب

فغضب أمير المؤمنين من هذا القول غضباً شديداً وقال للشاعر:

يا ابن قيس، تمدحني بالتاج كأني من ملوك العجم، وليس فوق رأسي تاج، وإنما هي العمامة كما ترى!

حاول الشاعر أن يتكلم فقطع عليه أمير المؤمنين:

صح .. إنك ما مدحتني بهذا، ولكنك مدحت مصعب بن الزبير أعظم المديح حين قلت فيه:

إنما مصعب شهاب من الله «م» تجلـت عـن وجـهـه الـظـلـمـاء
مـلـكـه مـلـك عـزة لـيـس فـيـه جـــبـــروت ولا كـــبـــريـــاء

عاد الشاعر يحاول الكلام فصده أمير المؤمنين قائلاً:

يا ابن قيس.. أما «الأمان» فقد أعطيناك إياه ولن نسترده منك وقد عفونا عنك بشفاعة ابن عمنا عبد الله بن جعفر، ولكنك يا ابن قيس لن تأخذ من بيت المسلمين عطاء أبداً.

قال الشاعر وكأنه يجادل أمير المؤمنين:

وهل ينفعني «الأمان» وحرماني من العطاء يتركني حياً كميت؟

طرد أمير المؤمنين الشاعر من مجلسه وعاد إلى ما كان فيه من الحديث مع جلسائه من بني أمية وكبار رجال الدولة.

اليوم الخامس:

أظن أنه قد آن لنا أن نفض مجالس الشعر والسمر ولو لبعض الوقت، لننظر في أمر هذا العاصي الثائر الجديد، عبد الرحمن بن الأشعث الذي خالف علينا، وأقبل في جنده من أقصى بلاد العجم ليحاربنا في العراق.

لم أرتح قط إلى عبد الرحمن بن الأشعث هذا، ولكنه كان قائداً بارعاً فوليته حرب العجم فانتصر عليهم وتوغل في بلادهم.

وأذكر أن هذا الرجل جلس عندي يوماً في ديوان الولاية، فرأيته متكلفاً في ثيابه وسلاحه، فقلت له:

يا ابن الأشعث إنك لمنظراني!

قال غاضباً:

أي والله .. ومخبراني ... أيضاً

ثم قام فخرج فقلت لمن كان عندي من رؤساء الديوان:

ما نظرت إلى هذا الرجل قط، إلاّ اشتهيت أن أضرب عنقه بسيفي!

فأخبره بعض من حضر بما قلته عنه فقال الرجل:

والله لأجهدن في قطع خيط رقبة الحجاج قبل أن يسل سيفه على رقبتي!

تغاضيت عن ذلك وتركت هذا الرجل يمضي إلى بلاد العجم النائية على رأس جيش كبير من خيرة جندنا.

وها هو ذا يستدير عائداً إلينا بهذا الجيش ليحاربنا!

٥

جيش الطواويس

اليوم الأول:

جيشنا الكبير الذي أرسلناه لمقاتلة العجم في أرض «كابل وسجستان» يستدير عائداً إلى العراق لمقاتلتي وخلعي من الولاية، وخلع أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من الخلافة.

ولا أدري كيف لعبت الأهواء والدسائس بقادة هذا الجيش وجنوده، حتى نزعوا الطاعة، وفارقوا الجماعة، وتركوا حرب العجم في كابل وسجستان ليشنوا الحرب على دولة الإسلام.

إن عبد الرحمن بن الأشعث الكندي قائد هذا الجيش، هو الرجل المختال المعجب بنفسه الذي أعلنت ذات يوم على رؤوس الأشهاد أني أشتهي ضرب عنقه بسيفي.. فهو ما زال منذ سمع ذلك يتربص بي الدوائر ليقتلني قبل أن أقتله!

لكني أعترف اليوم أني وقعت في الغفلة وارتكبت الخطأ الجسيم حين جهزت له هذا الجيش وحشدت فيه خمسين ألفاً من عسكر

العراق، أعطيتهم المال والطعام، وأمددتهم بأروع الخيول، وأمضى الأسلحة، وأمنع الدروع، وألبستهم أزهى الحلل، ثم عرضتهم في زينتهم وهم خارجون إلى الحرب كأنهم الطواويس الزاهية الألوان، فبهر منظرهم الناس وهتفوا: نصرك الله يا جيش الطواويس!

توغل ابن الأشعث بجيش الطواويس في أرض سجستان وكابل حتى حوى شطراً عظيماً منها، وكثرت لديه الغنائم والسبايا، فأرسلت إليه أشجعه وأحثه أن يمضي في فتح تلك البلاد ولا يتوقف حتى يبلغ أقصاها، ويسبي ذراريها، ويقتل المقاتلين من أهليها، ويسالم المسالمين، أما قبل أن يتم ذلك كله وينجزه، فليس له أن يتوقف أو يهادن العدو!

لم تكن لي ثقة بعبد الرحمن بن الأشعث، فلهذا أمرته أن يسلم قيادة الجيش إلى أخيه محمد بن الأشعث، إذا كان هو عاجزاً عن تنفيذ أمري ومواصلة حرب العجم.

فهل كان أمري هذا خطأً جسيماً آخر؟ وهل كان لا بد لي من استفزاز عبد الرحمن بن الأشعث بهذا الأمر؟! وهل كان يقيم على الولاء لي ولأمير المؤمنين لو أنني تركته يحارب في سجستان وكابل متى شاء، ويهادن متى شاء؟!

لا أدري أكنت على حق فيما أمرته به أم كنت على باطل، ولكن ما كان قد كان، وقد ارتد السهم الذي أطلقناه على ملوك العجم عائداً إلينا يريد أن يقرطس في صدورنا، فماذا نصنع، وماذا أقول لأمير المؤمنين؟

اليوم الثاني:

اجتمعت عندي الآن تفاصيل ما دار في معسكر ابن الأشعث

قبل أن يعلن خروجه على الدولة وينزع عن عنقه بيعة أمير المؤمنين، ويثير علينا الطواويس.

فلم يكد ابن الأشعث يتسلم رسالتي التي أمرته فيها بمواصلة الزحف حتى جمع رؤساء جنده فقال لهم:

إن الحجاج الثقفي يأمرنا بالوغول في أرض العدو، وهي البلاد التي هلك فيها إخوانكم من قبل ولم يفوزوا منها بطائل. وإنما أنا رجل منكم أمضي إذا مضيتم وآبى إذا أبيتم!

فثار إليه الطواويس وقالوا:

بل نأبى على عدو الله الحجاج الثقفي، ولا نسمع له ولا نطيع أبداً.

وقال بعض خطبائهم:

إن الحجاج لا يبالي أن يخاطر بنا فيقحمنا بلاد الأعداء، فإن ظفرنا وغنمنا أكل هو البلاد وحاز الأموال وكان ذلك زيادة في سلطانه وإن ظفرنا العدو وأهلكنا، لم يبال بنا الحجاج وقال لنفسه: هؤلاء هم البغضاء أبعدهم الله!

ووقف عبد المؤمن بن شبث وهو من رؤسائهم فقال:

عباد الله .. إنكم إن أطعتم الحجاج ومضيتم في هذه الأرض الغريبة، جعلها منفى لكم تقيمون فيه طول حياتكم! فلا تطيعوا عدو الله الحجاج واخلعوه، وبايعوا أميركم عبد الرحمن بن الأشعث على خلع عدو الله وطرده من أرض العراق.

هتف الطواويس لهذا الرجل، ووثبوا إلى ابن الأشعث فبايعوه على خلعي وطردي من العراق، ولم يذكروا شيئاً عن أمير المؤمنين عبد الملك، ولا تكلموا في خلعه من الخلافة، وكنت وحدي مثار غضبهم وحقدهم، ولم يكن لهم مقصد إلاّ خلعي وقتلي أو طردي من العراق.

اليوم الثالث:

تحرك الطواويس بقيادة ابن الأشعث عائدين إلى العراق. المسافة بعيدة بين سجستان وكابل وبين العراق ولكن الطواويس زاحفون لا يلوون على شيء وقد عقدوا النية على اقتحام البصرة والكوفة وأخذي قبضاً باليد ثم قطع خيط رقبتي!

إن أحلام الطواويس كثيرة كبيرة، ولكنهم لا يعرفون من هو الحجاج بن يوسف الثقفي، قاهر الجبارين، وإني ـ والله ـ لأرى رؤوسهم قد أينعت وحان قطافها كما أينعت رؤوس أقوام غيرهم من قبل وقطفناها!

يواصل ابن الأشعث زحفه بالطواويس، وقد بلغوا موضعاً قريباً من الأهواز، فاجتمع رؤساؤهم بعضهم إلى بعض وقالوا: إذا خلعنا الحجاج وهو عامل عبد الملك على العراق فقد خلعنا عبد الملك نفسه، فما الرأي؟

فقام أحدهم فقال:

> أيها الناس إني قد خلعت «أبا ذِبّان» عبد الملك بن مروان من الخلافة كخلعي قميصي هذا، فاخلعوا أبا ذبان، كما خلعته، يرحمكم الله.

تسابق الناس إلى خلع أمير المؤمنين عبد الملك الذي يلقبه العراقيون أبا ذبّان، ويزعمون أن الذباب يعف على وجهه فلا يذبه عنه!

وهكذا صار ابن الأشعث أمير المؤمنين على الطواويس، وبايعوه قائلين:

> نبايع على كتاب الله وسنّة نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلى جهاد أهل الضلالة وخلعهم، وجهاد المحلين والظالمين.

اليوم الرابع:

يوافيني رجال الأخبار بما يفعله جيش ابن الأشعث يوماً بعد يوم، ولم يعد مناص من مغادرة الكوفة إلى البصرة لأقابل ابن الأشعث هناك وأصده عن التوغل في العراق، ولم أجد بداً من الكتابة إلى أمير المؤمنين في دمشق أستمده وأسأله أن يعجل بعث الجنود من الشام إلى البصرة رأسا.

وجاءني اليوم كتاب أنفذه إلينا قائدنا المهلب بن أبي صفرة من خراسان يقول فيه:

«أمابعد.. فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك وهم مثل السيل ليس يردهم شيء حتى ينتهي سيلهم إلى قراره، وإن لأهل العراق شرة وغضباً عليك، وحنيناً إلى أبنائهم ونسائهم، فاتركهم حتى يسقطوا إلى أهاليهم، ويشموا أولادهم، ثم حاربهم عندها فإن الله ناصرك عليهم»!

في هذا الكتاب نصحني المهلب وغشني، أما النصيحة ففي تحذيري منهم، وأما الغش ففي تثبيطي من محاربتهم حتى يروا أولادهم وأهاليهم وترتاح نفوسهم، وما أظن المهلب إلاّ قد أراد مساعدة ابن الأشعث فإنه من أبناء عمومته!

جاءني رجال الأخبار بما دار في قصر أمير المؤمنين بدمشق حين بلغه كتابي أستصرخه وأستمده.. قالوا لي:

أصلحك الله أيها الأمير.. إن أمير المؤمنين قد هاله هذا الأمر الذي شرحته له في كتابك، وأغضبه استفزازك لابن الأشعث حتى أخرجته على الدولة، وقال لجلسائه: لأستبدلن بالحجاج والياً آخر على العراق يستميل إلينا قلوب الناس ولا ينفرهم منا، ولولا سوء رأيي في أهل العراق ما وليت عليهم الحجاج وهو مَن هو عسفاً وسفكاً للدماء!

هكذا إذن صرت أنا سبب خروج الناس على بني أمية، كأني قلت للناس: أبغضوا بني أمية، واجعلوا الخلافة في بني الزبير بن العوام، أو في بني هاشم، أو في أمير من أمراء الخوارج الذين حكموا بالكفر على المسلمين.

صحيح أنني أسرفت في الدماء، وحكمت الناس بالسيف والسوط والعصا، ولكني إنما فعلت ذلك لأن الناس أسرفوا في كراهة بني أمية، وأسرفوا في الإصرار على رفض خلافتهم وخلع خلفائهم، فليت شعري من ينصفني من بني أمية، وبني مروان خاصة، ويقول لهم: إن الحجاج هو جلدة ما بين عيونكم، بل هو جلدة وجوهكم كلها، فلا تسمعوا فيه الوشاة، ولا تغمدوا سيفه، فإنه سيفكم الذي يضرب أعداءكم؟

اليوم الخامس:

عاد أمير المؤمنين إلى أصالة رأيه فعرف أني أقاتل عن خلافته لا عن ولايتي، وأن سقوطي عن الولاية يستتبع سقوطه عن الخلافة، فأصدر إلى جند الشام أمره بالإسراع إلى البصرة لمؤازرتي.

وبدأت جموعهم تتواصل ليلاً ونهاراً على خيل البريد الراكضة، كأنه سيل لا ينقطع.

وأمرني أمير المؤمنين أن أكتب إليه أخبار الحرب ساعة بساعة، لا أكف عن كتابتها حتى تنتهي الحرب، وإنه ليبدو لي أن أمير المؤمنين يخشى هذه الحرب أكثر من كل حرب مضت على كثرة ما خاضته الدولة من حروب بالغة الخطورة!

نقلت مقر قيادتي من الكوفة إلى البصرة، وهاأنذا أستعد للخروج إلى مقابلة ابن الأشعث بعيداً عنها.

اليوم السادس:

انهزمت قواتنا في أرباض البصرة وقتل منا جمع كثير، وأرى أن أترك البصرة لأهل العراق فإنني لا أستطيع الدفاع عنها.

أقبل ابن الأشعث حتى دخل البصرة فبايعه جميع أهلها من العلية والسفلة، ومن الغوغاء والقرّاء والفقهاء، مصممين على قتالنا، وكان من أكبر أسباب التفافهم حول ابن الأشعث أنني أخذت الجزية من أهل الذمة الذين دخلوا في الإسلام، فخرجوا من البصرة يبكون وينادون: يا محمداه.. يا محمداه! وجعل صلحاء البصرة وقرّاؤها يبكون لما يرون من بكاء هؤلاء الناس، فلما دخل ابن الأشعث البصرة بايعوه من فورهم على حربي وخلع أمير المؤمنين!

ولكن الجولة التي كانت لابن الأشعث علينا ليست آخر الجولات والحرب مستمرة، وقد توالت هزائمنا ولكن العبرة بالخواتيم.

اشتدت الحرب، فجثوت على ركبتي وقلت: لله در مصعب بن الزبير الذي كنا نسميه «الأميرالجميل» سخرية به، فإنه عرف كيف يموت حين أحيط به وأرادوا له أن يستسلم فأبى!

وأنا اليوم في موقف كموقف مصعب في معركته الأخيرة، ولكنني لن أيأس من النصر فإن ورائي مدداً من أمير المؤمنين لا ينقطع، وليس وراء ابن الأشعث إلاّ أهل العراق، وما أهون شأنهم وإن استأسدوا في القتال.

وقد انحصرت مع جنودي في موقعي هذا قرب البصرة، بينما زحف ابن الأشعث بعد استيلائه على البصرة قاصداً الكوفة، فإذا

دخلها ازداد موقفي حرجاً وضنكاً، ولكن بقي لي الغياث من الله تعالى..

وبلغني أن ابن الأشعث دخل الكوفة وهزم عاملنا الذي استخلفته عليها حين قصدت البصرة، وجلس ابن الأشعث في ديوان الولاية يستقبل الناس، واجتمع أهل الكوفة فبايعوه جميعاً، لم يتخلف عن البيعة حتى أولئك الذين كنا نظن أنهم موالون لنا..

ولكن ها هي ذي الكتائب تصلني تباعاً من دمشق، وأمير المؤمنين مشتد في حشد الجنود وبعثهم كل يوم بلا انقطاع، فلا أظن أن الأسبوع القادم ينقضي حتى أكون في جيش جرار أسترد به البصرة ثم أزحف به على الكوفة، وعندئذٍ يرى أهل العراق وجيش الطواويس كيف أصنع بعدو الله ابن الأشعث ومن تبعه من أهل الشقاق والنفاق، وأهل النزوات والغدرات!

1

دير الجماجم

اليوم الأول:

اجتمع مع عدونا ابن الأشعث الثائر على الدولة مائة ألف جندي من أهل العراق، حفروا الخنادق، وأقاموا المسالح، وأخذوا يشنون الغارات على جيشنا الذي لم يكتمل بعد، ولو أنصفني أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان لبادر ببعث الجنود لنجدتي، ولكنه بدلاً من ذلك بعث رسولين إلى معسكر الثائرين على الدولة، هما ابنه عبد الله، ومحمد بن مروان شقيق أمير المؤمنين.

شعرت بالمهانة، وأوجعني قلبي، فها هوذا أمير المؤمنين يتصل بأعدائي، من وراء ظهري، بل على مرأى ومسمع مني، فلم يكد عبد الله به عبد الملك ومحمد بن مروان يشرفان على معسكر الأعداء، حتى ناداهم عبد الله قائلاً:

يا أهل العراق.. إن أمير المؤمنين يعرض عليكم أن يعزل عنكم الحجاج ويخرجه من بلادكم، ويولي عليكم عمي محمد بن مروان، وأن ينزل قائدكم ابن الأشعث أي بلد شاء من أرض العراق فيكون والياً عليه ما دام حياً.. فما تقولون يا أهل العراق؟!

لزم عسكر العراقيين الصمت، فعاد عبد الله بن عبد الملك يناديهم:

يا أهل العراق.. أنا ابن أمير المؤمنين، وهو يعطيكم ما تطلبون.. فما تقولون؟

لم يخرجوا عن صمتهم، فناداهم محمد بن مروان:

يا أهل العراق أنا محمد بن مروان أخو أمير المؤمنين ورسوله إليكم، وهو يعرض عليكم عزل الحجاج وإجابة مطالبكم.

عندئذٍ نطق واحد من عسكر ابن الأشعث فقال بلهجة ازدراء واستعلاء بوصفه واحداً من جيش الطواويس:

نبحث الأمر، ونرجع إليكم العشية!

ثم اجتمع ابن الأشعث مع قادة جنده فقال لهم:

أرى أن ننتهز هذه الفرصة ونقبل ما يعرضه عبد الملك، حتى يخرج عنا الحجاج مدحوراً ذليلاً، ونكون نحن الظافرين، ونعيش أعزاء كرماء، ويهابنا عبد الملك ورجال دولته، وتكون لنا عليهم دالة، وسيوفنا في أغمادها نسلها عليهم في أي وقت نشاء!

وثب رجاله من حوله رافضين صارخين في كبرياء الطواويس:

لا والله، ولا كرامة لأبي ذبان وابنه وأخيه! لقد حصرنا جنوده الذين يقودهم الحجاج حتى أصابهم الضنك والجوع والقلة والذلة، ونحن ذوو العدد الكثير، ننعم بالسعر الرخيص، والطعام الوفير، والمادة السهلة القريبة، فلا والله لا نقبل ما يعرضه علينا أبو ذبان وابنه وأخوه.

وطفقوا يسخرون من أمير المؤمنين ويلقبونه «أبا ذبّان» زاعمين أن الذباب لا يبرح جاثماً على وجهه طول الوقت فلا يذبه عنه، وسكروا بغرور القوة والكثرة والشبع والسعر الرخيص.

اليوم الثاني:

قال لي عبد الله بن عبد الملك ومحمد بن مروان: يا حنجاج.. إن القوم قد خلعوا الطاعة، وفارقوا الجماعة، فشأنك بعسكرك وجندك، فانهض بهم إلى هذه الخارجة المارقة المشؤومة فاستأصلها من جذورها.

أخذ الرجال منا ومنهم يتزاحفون كل يوم ويقتتلون، ونحن في عوز وقلة مؤونة، وأهل العراق يأتيهم الطعام من كل ناحية!

عبأت الجيش كتائب، وأفردت ثلاث كتائب كاملة لتواجه كتيبة واحدة في جيش ابن الأشعث تتألف من قرّاء القرآن وأهل العلم وكل من يدّعي الصلاح والتقوى منهم.

صمدت «كتيبة القرّاء» لكتائبناالثلاث، وتوقف القتال، فقام قائدهم فخطبهم قائلاً:

يا معشر القرّاء.. إن الفرار إن كان قبيحاً بأحد من المحاربين، فهو بكم أقبح، وإني سمعت علي بن أبي طالب يقول يوم لقينا أهل الشام في صفين قبل بضعة وثلاثين عاماً: من حارب لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الظالمين السفلى، فذلك الذي أصاب سبيل الهدى، وأضاء في قلبه اليقين!

ثم قال قائدهم وهو يصرخ بادئاً من جديد:

يا معشر القرّاء، قاتلوا هؤلاء المحلين المحدثين المبتدعين الذين جهلوا الحق فلا يعرفونه، وعملوا بالعدوان فلا ينكرونه! أيها الناس، قاتلوا على دينكم ودنياكم!

ووقف الشعبي ـ وهو من أئمة علمائهم ـ فقال:

أيها الناس.. قاتلوهم ولا يأخذكم حرج من قتالهم، فوالله ما على الأرض أشد ظلماً منهم!

ونهض سعيد بن جبير وهو مثل الشعبي عالم كبير من علمائهم فقال كلاماً مثل كلامه، ثم حملت كتيبة القراء علينا حملة صادقة حتى أزالوا بعض صفوفنا عن مكانها، إلاّ أن قائدهم جبلة من زحر قتل في المعركة، وجيء برأسه إلينا، فقمت فناديت مبشراً إياهم بقتل عدو الله قائد كتيبة القرّاء الخارجين على أمير المؤمنين!

اليوم الثالث:

أردت برغم كل ما حدث أن أحقن الدماء، فبعثت إلى أيوب ابن القِريّة، وهو من العلماء البلغاء، فقلت له:

يا ابن القرية.. انطلق إلى ابن الأشعث، فادفعه إلى الطاعة ولزوم الجماعة، وله الأمان على ما سلف من ذنبه واجترائه على خلع أمير المؤمنين وقتل جنده ونهب بلاده!

انطلق ابن القرية إلى الأشعث فأبلغه رسالتي، ووعظه وحذره العواقب، فقال له ابن الأشعث منددا به:

ويحك يا ابن القرية، أيحل لك طاعة أبي ذبان والحجاج، مع ارتكابهم العظائم واستحلالهم المحارم؟! اتق الله يا ابن القرية، ووال عباد الله.

واستطاع ابن الأشعث بدهان كلامه أن يختدع ابن القرية حتى صار من أتباعه، وأقام بعسكره، وجعل يخرج محارباً من وقت إلى آخر.

ثم إن ابن الأشعث قال له:

يا أخي أريد أن أكتب إلى الحجاج كتاباً مسجوعاً، أعرفه فيه سوء فعاله، وقبح سيرته وسريرته، فاكتب لي هذا الكتاب.

فقال له ابن القرية:

إن الحجاج يعرف ألفاظي!

قال ابن الأشعث:

وما عليك من ذلك، إني لأرجو أن نقتله عن قريب!

وهكذا امتشق ابن القرية قلمه وكتب على لسان ابن الأشعث هذه الرسالة التي قرأتها وأنا أتعجب من هذا الرجل الذي بعثته رسولاً للصلح فانقلب عدواً من ألد الأعداء:

«.. إلى الحجاج بن يوسف.. سلام على أهل طاعة الله، الذين يحكمون بما أنزل الله ولا يسفكون دماً حراماً، ولا يعطلون لله أحكاماً، فإني أحمد الله الذي بعثني لمنازلتك، وقواني على محاربتك، حين تهتكت ستورك، وتحيرت أمورك، فأصبحت حيران تائهاً، لهفان لا تعرف حقاً، ولا تلائم صدقاً، ولا ترتق فتقاً، ولا تفتق رتقاً، وطالما تطاولت فيما تناولت، فتدبر أمرك، وقس شبرك بفترك، فإنك من عصابة فساق جعلوك مثالهم، كحذوهم نعالهم، وستذوق وبال أمرك، ويرجع عليك غيك..».

قرأت هذه الرسالة المسجوعة فعرفت فيها ألفاظ ابن القرية، فكتبت إلى ابن الأشعث:

«سلام على أهل التورع لا التبدع، فإني أحمد الله الذي حيّرك بعد البصيرة، فمرقت عن الطاعة، وخرجت عن الجماعة، فعسكرت في الكفر، وذهلت عن الشكر، وقد أتاني كتابك بألفاظ فاجر فاسق غادر، وسيمكنني الله منه.. والسلام على من اتبع الهدى».

اليوم الرابع:

تواصلت النجدات علينا من أمير المؤمنين الذي يسهر الليالي في دمشق في تدبير حملتنا على ابن الأشعث الذي امتلأ منه أمير المؤمنين حنقاً، لأن أحداً لم يخرج عليه من قبل بمائة ألف مقاتل كما خرج عليه ابن الأشعث.

دارت المعركة الفاصلة بيننا وبين جيش الطواويس يقوده ابن

الأشعث في هذا المكان الذي يسمى دير الجماجم، وهزم الله أعداء أمير المؤمنين، وصارت جماجمهم أكواماً في ساحة القتال، وانتهت معركة كبرى استمرت بين المد والجزر مائة يوم وثلاثة أيام.

فوجئت بكثرة عدد الأسرى، وبينهم عدد من «القراء» وابن القرية الذي خانني فدعوت به قبل غيره، وجئت بالسيف والنطع، وقلت له وقد امتلأت إصراراً على سفك دمه بيدي:

يا عدو الله.. بعثتك رسولاً إلى ابن الأشعث، فتركت ما بعثتك إليه وصرت له وزيراً ومشيراً، تصدر له الكتب، وتسجع له الكلام؟!

قال ابن القرية وقد هزّه الخوف:

أصلح الله الأمير، كان ذلك الرجل شيطاناً في شكل إنسان، استمالني بسحره، وخلبني لفظه، فكان لساني ينطق بغير ما في قلبي.

أغضبني كذبه هذا فصحت فيه:

كذبت يا ابن اللخناء، بل كان قلبك منافقاً، ولسانك مداجياً، فكتمت أمراً أظهره الله، وأطعت فاسقاً خذله الله!

لزم ابن القرية الصمت، فتفكرت في شأنه قليلاً، ثم سألته ساخراً:

كنا نعرفك متسعاً في العلوم، فهل بقي فيك شيء منه بعد خيانتك؟

اغتنم الفرصة التي ظنها سانحة له وأجاب مسرعاً يتسبب إلى رضاي: أصلح الله الأمير.. إن ذهني حديد، وجوابي عتيد، فسل ما شئت أصلحك الله!

أخبرني عن الهند ..

بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر، وإن يسر الله للأمير فتحها كانت فتح الفتوح!

فاخبرني عن خراسان؟

ماؤها جامد، وعدوها جاهد، بأسهم شديد، وشرهم عتيد، وخيرهم بعيد.

فاليمن؟

أرض العرب، ومعدن الذهب..

فالبحرين؟

حسناء بين مصرين، وجنة بين بحرين.

فالبصرة؟

حرها لافح، وماؤها مالح.

فالشام؟

تلك عروس، بين نسوة جلوس، تجلب إليها الأموال، وفيها الضراغمة الأبطال.

عندئذٍ صرخت فيه وقد استفزتني سجعاته:

ثكلتك أمك.. أنت مصدر الكتب المسجوعة لابن الأشعث؟ ألم تعلم أني لا أصحاب أحداً على الشقاق ولا أجتمع بأحد على النفاق؟

انكمش ابن القريبة في ثيابه وزحف إلى قدميَّ باكياً يتضرع قائلاً:

استبقني أيها الأمير؟!

ولماذا أستبقيك أيها الخائن؟!

لنبوة بعد هفوة.

بل لغدرة بعد نكثة! يا غلام.. ناولني الحربة ذات النصل الطويل.

وأمرت أربعة من رجالي فأمسكوا بابن القرية، وقمت فأمسكت بالحربة فهززتها ثلاثاً ودنوت منه.

صاح ابن القرية مرتاعاً:

أيها الأمير، اسمع مني ثلاث كلمات لكن كل منها مثلاً يتداوله الناس.

هات ..

لكل جواد كبوة! ولكل حليم هفوة! ولكل شجاع نبوة!

أعجبني هذه الحكم الثلاث، ولكني كنت ممتلئاً غضباً فهجمت بسنان الرمح على بطنه حتى تمزق جوفه ثم خضخضت فيه السنان فانبثق منه دم أسود غزير، فقلت له وما زال به رمق:

هكذا تشخب أوداج الإبل!

لم يردد ابن القرية على كلمتي، وسقط على الأرض، وفحص برجليه كأنه كبش أخذته السكين، وشخص ببصره، وجعلت أنظر إليه حتى أسلم روحه وهمد، فأمرت بحمله في النطع ودفنه!

اليوم الخامس:

تذكرت ابن القرية.

لله درك يا ابن القرية.. أي أدب فقدنا فيك، وأي كلام رصين سمعنا منك، وأي حكيم أخذه الموت منا، وكنا لولا خيانته نضن به على الموت!

٧

الأشباح والسيوف

اليوم الأول:

يطرقني في منامي طيف الشيخ ابن القرية الذي قتلته بحربتي جزاء خيانته لي ولأمير المؤمنين وانضمامه إلى جيش الطواويس الخارجين على الدولة، بعد أن كان من رجالنا ومؤيدينا.

في الهزيع الأخير من كل ليلة يتمثل لي في النوم شبح ابن القرية في صورته التي كان عليها عندما أمسك به رجالي ومنعوه أن يتحرك، وقمت أنا بحربتي فطعنته في بطنه طعنات نجلاء مزقت أحشاءه، وسفحت دماءه، فسقط على الأرض وفحص برجليه كالكبش الذبيح، وشخص بصره، ثم همد وأسلم الروح!

إن طيف هذا الشيخ يعتادني كل ليلة فيفزعني، فهل ندمت على قتله واستفظعته فتمثل لي في تلك الصورة كأنه يتوعدني ويقول لي: الموعد الله!

إني أفتش داخل نفسي فلا أجد ندماً على قتله، ولا خوفاً من عاقبته، فمن أين جاءني هذا الخور الذي أجد نفسي مضطرباً

ضعيفاً حياله، كأنني ارتبكت جريمة نكراء بقتلي ذلك الشيخ الخائن بيدي؟

وما أعجب هذا الذي ينتابني بعد قتلي ذلك الشيخ الخائن، فإني سفكت من دماء الخارجين على الدولة بحراً طامياً فما غرقت فيه، فهل أغرق في دم رجل واحد؟

وكيف يكون ذاك وأنا الذي قتلت في المعركة التي يسميها الناس معركة «الزاوية» أحَدَ عشر ألفاً من الأسرى، استسلموا لي فخدعتهم بالأمان، ثم أمرت بهم فأخذتهم سيوف عساكري فلم تبق منهم أحداً، ولم يطرف لي جفن وأنا أرى مصارعهم؟!

مهما يكن من شيء، فقد انتهت أكبر معاركي في العراق، ولن تنشب بعدها معركة ذات بال، وقد رجع محمد بن مروان إلى إمارته في الموصل وكان مرشحاً لولاية الكوفة والبصرة بدلاً مني، وعاد عبد الله بن الملك إلى دمشق، ولعله روى لوالده أمير المؤمنين قصة كفاحي في نصرته، وقيامي في معركة «دير الجماجم» مائة يوم وثلاثة أيام حتى أنزل الله نصره علينا وأدال لنا من تلك الفتنة الخارجة الباغية التي أقامت لنفسها دولة تناطح دولة أمير المؤمنين!

فيا شبح ابن القرية، إن أردت أن تطرقني في نومي كل ليلة فإني لا أخشاك، وليس بيني وبين الخارجين البغاة إلاّ السيف!

اليوم الثاني:

أمرت فاجتمع في ساحة قصري الناس بعد معركة دير الجماجم، فوقفت فيهم خطيباً فقلت:

يا أهل العراق لقد اجتمعتم على الكفر، وظننتم أن الله يخذل خلافته، ولكنكم فشلتم وعضكم السلاح في دير الجماجم. يا أهل العراق هل شَغَبَ شاغب، أو نعب ناعب، إلاّ كنتم أتباعه وأنصاره؟ ألم تنفعكم

المواعظ؟ ألم تزجركم الوقائع؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته، ويذقكم حر سيفه، وأليم بأسه؟ يا أهل العراق تقدموا إلى موضعي هذا فبايعوني لأمير المؤمنين بعد أن نكثتم بيعته، ووالله لا أقبل بيعة أحد منكم حتى يشهد على نفسه بالكفر ثم يتوب فأقبل منه بيعته، فإن لم يشهد أنه كافر فليس له عندي إلاّ السيف!

وتقدم الناس للبيعة فكنت لا أبايع أحداً إلاّ قلت له: «اشهد على نفسك أنك كافر».. فإن قال: نعم، بايعته وأطلقت سراحه، وإلاّ قتلته من فوري!

فأتاني رجل منهم كان يعتزل الحرب ولا يناصر الخارجين ولا ينصرنا، فقلت له: إنك كنت تتربص بنا، فإن ظهر علينا أصحابك ظاهرتهم! أتشهد أنك كافر؟ قال الرجل غاضباً: يا حجاج أأعبد الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسي بالكفر؟ قلت له مهدداً: إذن والله أقتلك! قال متحدياً: لا أقولها والله أبداً فقتلته، ولكن غاظني أن أهل الشام الذين كانوا حولي قد رقوا له ورحموه، كأنهم يرونه بريئاً لا ذنب له!

ثم دعوت برجل آخر فقلت له:

أنت المقتص من أمير المؤمنين عثمان؟

قال الرجل محتقراً إياي:

يا معلم الصبيان لا تكشر علينا أنيابك كالذئب، فوالله ما بقي من عمري إلاّ مثل زفرة الزافر، فاقض ما أنت قاضٍ.

قلت له:

فإن الحجة عليك مذ ناصرت أبا تراب علي بن أبي طالب إلى أن خرجت على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، ثم أمرت به فقتله الحراس ووضعوا رأسه عند قدمي!

وجاءوني برجل آخر، فقلت له أعبث به:

ما أظنك تشهد على نفسك بالكفر، وأراك تؤثر القتل على ذلك، فإني

أتوسم فيك الشجاعة والحفاظ.

قال الرجل ساخراً:

يا حجاج.. أتخادعني عن نفسي لكي تقتلني؟ أنا والله أشد كفراً من فرعون ذي الأوتاد!

لم أتمالك نفسي من الضحك، وأطلقت سراح الرجل بعد أن بايعني لأمير المؤمنين.

اليوم الثالث:

هرب قائد جيش الطواويس عبد الرحمن بن الأشعث الذي كان يلقب نفسه بأمير المؤمنين، وقيل لي إنه ينطلق نحو بلاد التركمان ليلجأ إلى ملكها.

استأسرت لنا جماعة من خاصة أصحابه وقواد جيشه، عرفت من بينهم محمد بن سعد بن أبي وقاص وعمر بن موسى والهلقام ابن القعقاع وفيروز حصين، ومعهم الشاعر المشهور أعشى همدان.

وقد محمد بن سعد بن أبي وقاص بين يدي خاشعاً، فقلت له:

يا ظل الشيطان، ويا أعظم الناس تيهاً وكبراً وغروراً، أتأبى بيعة أمير المؤمنين عبد الملك وتتشبه بالحسين وابن عمر، وتظن أنك الآن شيخ قريش؟!

وقمت فجعلت أضرب رأسه بعصا غليظة في يدي حتى أدميته، ثم أمرت بقتله وأنا أقول في نفسي: الحمد لله الذي جعلني وأنا رجل من ثقيف أقتل رجلاً من قريش في سبيل الله!

ودعوت بعمر بن موسى فقلت له:

يا عبد المرأة .. أتقوم بالعمود حارساً على رأس ابن الحائك المسمى ابن الأشعث، وتستنكف أن تبايع أمير المؤمنين عبد الملك وهو شيخ قريش وسيدها؟

قال الرجل متوسلاً:

أصلح الله الأمير.. كانت فتنة شملت الأبرار والفجار فدخلنا فيها، وقد أمنك الله منا فإن عفوت فبحلمك وفضلك.

قلت غاضباً:

كذبت، فإن هذا الفتنة قد شملت الفجار، ولكن عوفي منها الأبرار.

ثم أمرت به فقتله الحراس، ودعوت بالهلقام بن نعيم، وهو ذو كبرياء، فقلت له مزدرياً إياه:

ما الذي كنت تأمل من خروجك مع ابن الأشعث أيها الهلقام؟

قال ساخراً:

أمّلت أن ينتصر عليك فيوليني العراق كما ولاّك عبد الملك إياه!

فأمرت بقتله، ثم دعوت بفيروز، وهو من ساداتهم، فقلت له:

يا أبا عثمان.. ما أخرجك مع هؤلاء. فوالله ما لحمك من لحومهم، ولا دمك من دمائهم. فكم معك من الأموال؟!

قال:

عندي ألف ألف درهم.

أين هذه الأموال؟

في مكان لا يعرفه سواي

أدِّهَا إلينا فإن لنا حقاً فيها؟

فتفكر الرجل لحظة وسألني:

أؤديها إليك وأنا آمن على دمي؟

غضبت من هذه المساومة وصحت فيه:

والله لتؤدينَّها ثم لأقتلنك!

أظهر الرجل التعجب وقال:

وكيف تجمع بين أخذ مالي وسفك دمي؟ والله لا أجمع لك ذلك أبداً.

فضضت المجلس، وقمت ساخطاً على هذا الرجل الذي يكتنز الأموال بغير حق، ويناصب الدولة العداء، وقلت له متوعداً: والله لترين مني ـ يا عدو الله ـ ما لا يخطر لك على بال!

اليوم الرابع:

عقدت مجلس الإمارة وجيء بفيروز، فأمرت بتعذيبه على مرأى ومسمع مني، فشد عليه الجلاوزة القصب الفارسي المشقوق، وأخذوا يجرونه عليه جراً، فيملأ جلده جروحاً غائرة وتسيل دماؤه فينضح العساكر الخل على جراحه فيزعق من فرط الألم.

فلما طال تعذيبه وأحس بالموت قال للموكل بعذابه:

يا صاحب العذاب.. إنكم إن قتلتموني ولي ودائع وأموال عند الناس، أنكرها الناس ولم يؤدوها إليكم، فأظهرني لهم ليعلموا أني حي فيؤدوا المال!

تفكرت في اقتراحه هذا فقلت للموكل بعذابه:

إرفع عنه آلات العذاب واظهره للناس في سوق البلد.

فأخرجه إلى الناس فصاح فيهم:

أيها الناس من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين. إن لي عند أقوام أموالاً كثيرة، فمن كان لي عنده شيء فهو له، وهو مني في حل، فلا يؤدين أحد منكم درهماً إلى عدو الله الحجاج، وليبلغ الشاهد منكم الغائب!

رده الجلاوزة إلى مجلسي وقد أثخنوه ضرباً، فأمرت بقتله وقد ساءني أنه استطاع أنه يخدعني!

وأمرت فجيء بالشاعر أعشى همدان، فقلت له:

إيه يا عدو الله، أنشدني ما قلت من الشعر في هجائي وهجاء أمير المؤمنين ومدح عدو الله ابن الأشعث وأصحابه أمراء جيش الطواويس.

قال الشاعر يتلمس رضاي:

بل أنشدك أيها الأمير ما قلت من مديح في أمير المؤمنين وفيك.

وانطلق الشاعر ينشد قصيدة طويلة جزلة عصماء أعجبتني وأعجبت أهل الشام من حولي فقالوا:

أصلح الله الأمير، قد أحسن هذا الشاعر فيما قال:

انتفضت غضباً وقلت:

بل أساء .. وليس عن هذا سألناه ولكن عما قاله تحريضاً علينا في قصيدته التي يقول فيها: «بخ.. بخ لوالده وللمولود».. والله لا يبخبخ بعدها أبداً.

وأمرت فضرب الجند عنقه.

وجيء بأسيرين آخرين فأمرت بقتلهما، فقال أحدهما:

أيها الأمير لا تقتلني فإن لي عندك يداً أسديتها إليك وأنت لا تعلم.

وما هي؟

ذكرك ابن الأشعث يوماً وأنا حاضر فنال أمك بسوء فنهيته؟

ومن يشهد لك بذلك؟

هذا الأسير الآخر معي.

فقلت للأسير الآخر:

أتشهد لصاحبك هذا بصدق قوله؟

نعم..

- فلم لم تنه ابن الأشعث عن شتم أمي كما نهاه صاحبك هذا؟

- أينفعني الصدق عندك؟

نعم..

فإني لم أنه ابن الأشعث عن شتم أمك لفرط بغضي لك ولقومك!

استفزتني صراحته ولكني كظمت غيظي وقلت للجند:

أطلقوا سراح الأسير الذي نهى ابن الأشعث عن الشتم، تقديراً لفعله.. واطلقوا صاحبه هذا الذي يبغضنا، لأنه صدق.

ولست أدري بعد هذا الحشد الحاشد ممن قتلناهم وعذبناهم من أسرى دير الجماجم، متى ننتهي من محاسبة شركائهم الآخرين، فإني أرى الأشباح والسيوف قد تكاثرت في أحلامي.

٨

ليلة السماع والوجد

اليوم الأول:

لست طياشاً حديد الطباع سريع البادرة كما يتوهمني الناس لكثرة ما سفكت من دمهم، ولكني أمرؤ تقلد أمراً عظيماً فهو ينهض به كما ينهض البعير بحمله الثقيل، لا يجد بُداً من حمله والنهوض به، أو الرقود في مكانه حتى يقرعه صاحبه بالعصا على أنفه.

وأي أمر أعظم من صيانة هذه الدولة، ودفع أعدائها، ورد كيدهم، والتأهب بعد كل حرب لحرب جديدة؟

وهل يعذرني أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إذا علم مني تقصيراً في ذلك أم يضرب أنفي بعصاه حتى يدميه ثم يعزلني؟

عندما كنت معلم صبيان في مكتب الطائف قبل عشر سنين، كان الناس يضربون المثل برقتي وعطفي على الصغار الذين أعلمهم، واليوم يضرب الناس المثل بقسوتي وعلاجي كل داء في هذه الأمة بالسيف، ويقولون: لا يُفلح والله من قتل بسيفه مائة

ألف مسلم، يشهدون كلهم أنه ومَنْ ولاه إمارة العراق يدخلان النار يوم القيامة.

أكذلك يكون جزاء المجاهدين في سبيل دولة الإسلام؟ وكيف يستقيم أن أدخل النار أنا وأمير المؤمنين عبد الملك، ويكون الخوارج البغاة هم الناجين من النار يوم الدين؟

إني والله ما أضع في ميزاني يوم الحساب، أثقل من دماء هؤلاء الخوارج البغاة، فيرجح ميزاني وتخف موازينهم، ويعلمون عندئذٍ أن الشيطان أغواهم إذ أخرجوا سيوفهم من أغمادها وأصلتوها على دولة الإسلام!

ساورتني الليلة هذه السوانح والخواطر الثقال، فدعوت بمن يسامرني ولكني لم أطق سماعه فأخرجته من مجلسي، ثم جلست مع الشعراء يمدحونني ويسرفون في مدحي فلم أرتح إليهم، ولا أعطيتهم شيئاً، حتى إذا شعرت كأنني موشك على الجنون، صرخت في صحن الدار أستدعي جارية لي، مغنية حاذقة بصيرة بالغناء والشعر، سمعتها من قبل مرة واحدة ثم باعدتها وقلت يومئذٍ في نفسي: لا ينبغي لمن كان في مرمى سهام الأعداء مثلي أن يجلس لسماع الغناء!

الليلة لا أجد ملاذاً غير هذه الجارية، كأنها تملك الدواء السحري الذي يشفيني من وساوسي ومخاوفي وأحلامي التي تطرقني في الظلام بما أحار في تأويله ولا أجد له عند أهل العلم تأويلاً.

اليوم الثاني:

جمعت أطراف ملابسي وجلست عند قدمي جاريتي المغنية الجميلة البارعة، وقلت لها متودداً:

يا جارية.. أطربيني بكل ما تقدرين عليه من فنون صناعتك، واعذريني فإني لا أستطيع أن أشرب على غنائك شيئاً من النبيذ كما يفعل أهل السماع إذا طربوا، فقد حرّمت الشراب على الرعية، وعاقبتهم فيه، فلا يصح أن أمنعهم الشراب وأعاقبهم عليه ثم أخلو في داري فأشرب!

قالت الجارية وقد احتضنت عودها وابتسمت في وجهي:

أصلح الله الأمير.. إن أهل الشام هم الذين ابتدعوا الشراب في مجلس الغناء، وأولهم في ذلك يزيد بن معاوية، أما أهل مكة والمدينة فيسمعون الغناء ويطربون ولا يشربون. وإني قد نشأت وتعلمت الغناء في القريتين العظيمتين، فليس من عادتي الشرب قبل الغناء ولا بعده!

قلت للجارية وقد سرّني كلامها:

أحسنت وأجملت، فأي صوت أعددته لمجلسنا هذا؟

داعبت الجارية أوتار عودها، وقالت:

صوت سمعته في مكة من شيخ المغنين ابن سريج، غناه في مقام الرمل، كما غناه ابن محرز وابن مسجح وفليح، وغيرهم من شيوخ الصناعة في القريتين.

ثم اندفعت الجارية فغنت:

حمامة بطن الواديين ترنمي
سقاك من الغر الغوادي مطيرها

أبيني لنا لا زال ريشك ناعماً
ولا زلت في خضراء دان بريرها

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت
فقد رابني منها الغداة سفورها

وإني إذا ما زرتها قلت: يا اسلمي
وما كان في قولي: اسلمي.. ما يضيرها.

فوالله لكأن حيطان الدار قد تحركت طرباً مما غنته الجارية في هذا الشعر، وداربي مجلسي حتى ظننت أن الأرض كلها تدور، وطارت بي النشوة طيرة بين الأرض والسماء وأضاء الليل في قلبي بنور السماع والوجد!

ثم ما لبثت أن أفقت وفي رأسي أثر من حميا الطرب كالأثر الذي تتركه الخمر في رأس شاربها إذا أفاق!

ووجدتني أخلع وقاري وأقول للجارية مناجياً إياها:

يا حبيبتي من قائل هذا الشعر وما قصته مع محبوبته هذه، وهل كان اسمها «ليلى» أم كان الشاعر يستعير هذا الاسم لها حفاظاً عليها؟

نزلت الجارية عن مقعدها، وزحفت حتى دنت مني ونفحني عطرها، وقالت:

يا سيدي .. أما سمعت بشاعر اسمه توبة من الحمير، خطب ليلى بنت عبد الله الشاعرة البارعة، فأبى عليه أبوها زواجها، فانطلق يقول فيها هذا الشعر الجزل البديع.؟

تذكرت توبة وليلى، فقلت:

بلى .. أعرفهما .. ولا أظن أحداً من العرب لا يعرف توبة وليلى الأخيلية!

دنت مني الجارية حتى التصقت بي، واحسست حرارة جسمها فتنبهت إلى ما صرت إليه من الغفلة عما يدور خارج داري، ولعل ثمة خارجة جديدة من أعداء الدولة خرجت علينا تعربد بعصيانها ونكثها بيعة أمير المؤمنين.

نحيت الجارية بشدة كأنني أضربها، ففزعت مني ووثبت تحتضن عودها كأنها تخشى أن أحطمه، ووقفت ناحية ترتجف وتنظر إلى سيفي الذي كنت وضعته بجانبي، فلما أمسكته بيدي

ونهضت ظنت الظنون وكأنها تسأل نفسها مرتاعة: أتراه يقتلني في بادرته هذه كما اعتاد أن يقتل الناس في بوادره؟

اليوم الثالث:

جلست للعامة وأمرت الحاجب أن يأذن لمن له حاجة بالدخول فتكاثر أصحاب الحاجات ولم أترك أحداً منهم إلاّ قضيت له حاجته، فنحن نقتل أهل الفتنة والعصيان، ولكنا نعطف على أهل السلامة والطاعة.

دخل الحاجب فقال لي:

أصلح الله الأمير. بالباب امرأة تهدر كما يهدر البعير، تقول الشعر.

أذنت للمرأة بالدخول فإذا هي ليلى الأخيلية الشاعرة صاحبة توبة الذي كنت ليلة أمس أسمع الغناء في شعره!

قلت لها:

أسمع بك منذ زمن ولا أراك يا ليلى، فما الذي أتى بك اليوم؟

قالت:

إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وشدة البرد، وزيادة الجهد، وأنت لنا بعد الله الرد.

قلت لها:

هل أجدبت أرضكم وانقطع الغيث عنكم حتى نالكم الجهد العظيم، فماذا صنعت بكم هذه الضائقة الجائحة؟

قالت وقد تهدّج صوتها حزناً:

أهلكت الرجال، ومزقت العيال، وأكلت الأموال.

ثم أنشدتني ليلى الأخيلية في مدحي شعراً رصيناً يعجز عن مثله فحول الشعراء، فلما أتمت الإنشاد، قلت لحاجبي:

إن لها لساناً ذرباً فاذهب إلى بيت المال فاقطع لسانها!

فمضى بها الحاجب ودعا بالحجام ليقطع لسانها بالسكين فصاحت فيه:

ويلك أيها الحاجب الأحمق الجاهل، إنما قال لك الأمير اقطع لسانها بالصلة والعطاء.

عاد الحاجب يستأمرني في قطع لسانها، فاستشطت غضباً لجهله، وصرخت فيه:

يا أعجمي اللسان.. أتجهل كلام العرب؟ فوالله لأقطعن لسانك!

ثم دعوت بليلى الأخيلية فهدأت من روعها وغمرتها بالعطاء، وأمرت لها بمائتي ناقة، ولكنها طمعت وقالت لي: زدها! فقلت: اجعلوها: ثلاثمائة، ثم قلت لها أداعبها:

يا ليلى.. إنها ثلاثمائة من الغنم لا من الإبل!

جزعت واكفهر وجهها وقالت ضارعة:

الأمير أكرم وأعظم قدراً من أن يأمر لي بالغنم.

فاستحييت وأمرت لها بثلاثمائة ناقة.

اليوم الرابع:

تسليت بلقاء الشاعرة ليلى الأخيلية بعد أن تسليت بليلة الغناء في شعر صاحبها «توبة» حتى ظننت أني نفضت يدي من أسرى معركة دير الجماجم ومحاسبتهم ومعاقبتهم، ولكن الدنيا لا تدعنا نلتقط أنفاسنا ونريح جنوبنا في مضاجعنا، وها نحن أولاً نعود إلى مطالعة تلك الوجوه الكالحة من أسرى دير الجماجم.

دعوت بذلك الفقيه الكبير المسمى بالشعبي وكان ممن يحرضون على قتالنا في دير الجماجم، فقال لي كاتبي يدافع عنه:

أصلح الله الأمير .. أمنن على الشعبي بالعفو فإن بين دفتيه من العلم والفقه ما ليس له مثيل!

قلت لكاتبي محتداً:

إن شهد على نفسه بالكفر عفوت عنه!

قال الكاتب ضارعاً:

أيها الأمير.. هذا فقيه عظيم فلا تجشمه هذا الأمر واستعن بعلمه تنتفع به، فما في الدنيا أفقه منه.

فلما دخل الشعبي قال:

أيها الأمير .. إني والله لا أقول في هذا المقام غير الحق، فقد والله تمردنا عليك وحرضنا وجهدنا، فما كنا بالأقوياء الفجرة، ولا بالأتقياء البررة، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا، فإن سطوت فبذنوبنا، وإن عفوت فبحلمك، والحجة لك علينا!

تأملت قوله فأعجبني فقلت له:

أنت والله أحب إلينا قولاً ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول: ما فعلت ولا شهدت، وقد عفوت عنك يا شعبي، فكيف وجدت الناس بعدنا؟

قال وقد ردّ إليه العفو حلاوة لسانه:

أصلح الله الأمير، اكتحلت بعدك السهر، واستوعرت الجناب، ولازمت الخوف، وفقدت صالح الإخوان، ولم أجد من الأمير خلفاً..

اليوم الخامس:

دعوت أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له:

غرّك قول الناس: هذا خادم رسول الله، فانطلقت في الأرض، يوماً

مع المختار الكذاب، ويوماً مع ابن الأشعث، فأنت جوّال في الفتن هنا وهناك!

قال أنس بن مالك متجاهلاً:

من يعني الأمير، أصلحه الله؟

إياك أعني .. أصم الله سمعك!

ثم صرفته حتى أستأمر في شأنه أمير المؤمنين، فجلس أنس في بيته وكتب من ساعته إلى أمير المؤمنين رسالة يقول فيها:

«أما بعد فإن الحجاج قال لي نكراً، وأسمعني هجراً، ولم أكن لذلك أهلاً، فخذ على يديه، والسلام».

قرأ عبد الملك رسالة أنس فغضب له ونصره عليَّ، وبادر فأرسل لي كتاباً يقول فيه:

«هيه يا ابن يوسف .. أردت أن تعلم رأي أمير المؤمنين في أنس، فإن سوغك مضيت قدماً، وإن لم يسوغك رجعت القهقرى.. أبلغ من جرأتك على أمير المؤمنين أن تعنت بأنس بن مالك خادم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ست سنين، يطلعه على سره، ويفشي إليه الأخبار التي كانت تأتيه من ربه! فإذ أتاك كتابي هذا فامش إليه على قدميك حتى تأخذ كتابه إلينا بالرضا عنك، والسلام»!

قرأت كتاب أمير المؤمنين، فقمت من فوري مع جماعة من أصحابنا فمشينا إلى دار أنس ابن مالك، وأقرأته كتاب أمير المؤمنين، فقال:

«جزى الله أمير المؤمنين خيراً، كذلك كان رجائي فيه».

قلت له:

«فإن لك الاعتذار مني، وأنا صائر إلى مسرتك في كل حال، فاكتب إلى أمير المؤمنين برضاك عني»!

كتب أنس بن مالك كتاباً إلى أمير المؤمنين بالرضا عني، فتلقفته منه شاكراً ودفعت به إلى صاحب البريد فأنفذه من ساعته إلى أمير المؤمنين في الشام.

اليوم السادس:

لم يبق من عصاة دير الجماجم إلاّ رئيسهم ابن الأشعث، وقد كتبت إلى ملك الترك الذي لجأ إليه ابن الأشعث أطلب إليه أن يبعث به إلينا، وإلاّ غزونا أرضه، وقيل لي إن هذا الملك لا يسلم ضيوفه إلى أعدائهم، ولكن له طريقة أخرى.

وقد عرفت طريقته هذه حين جاء إلينا اليوم رسول هذا الملك وفي أيديهم صندوق وضعوه بين يدي، فأمرت بفتحه، فما راعني إلاّ رأس ابن الأشعث يطل من الصندوق!

لقد احتز الملك التركي رأس ابن الأشعث وأرسله إلينا، وأبى أن يرسل إلينا ابن الأشعث برأسه حياً!

٩

معركة قاطع الطريق

اليوم الأول:

الناس يزعمون أني غلوت في معاقبة أسرى معركة دير الجماجم، ويرى الناس أني أكلف هؤلاء الأسرى ما لا يطيقون إذ أطلب إليهم أن يشهدوا على أنفسهم بالكفر لنكثهم بيعة أمير المؤمنين وشقهم عصا الجماعة، ولكني ـ والله ـ ما فعلت ذلك من تلقاء نفسي، وإنما فعلته استجابة لأمير المؤمنين، فهو الذي أمرني أن أعرضهم على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر خليت سبيله وقبلت منه ـ بعد توبته ـ تجديد بيعته لأمير المؤمنين، ومن أبى الإقرار بالكفر ضربت عنقه.

وقد خضت في دماء هؤلاء الأسرى خوضاً. ولكن بقيت منهم باقية لا بد من سفك دمائها.

اليوم قبض العسس على رجلين منهم، فسألت أولهما:

على دين من أنت يا هذا؟

قال متشامخاً:

على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين.

أبديت إزدرائي لتشامخه وقلت له:

كذبت يا فاجر، بل أنت على الكفر!

وسألت الرجل الآخر:

يا هذا على دين من أنت؟

قال مستخفاً بي، هازلاً، كأنه لا يبالي الموت:

أمتع الله بك وبأيامك يا حجاج! أما أنا فعلى دين أبيك الشيخ يوسف الثقفي!

أغضبتني استهانة الرجل بي وبأبي، فقلت وقد حضرتني ذكرى أبي رحمه الله:

أما والله لقد كان أبي صواماً قواماً.

وتفكرت لحظة ثم أمرت بإطلاق هذا الرجل، إذ لا يصح أن يكون على دين أبي ـ رحمه الله ـ ثم أقتله على ما في قوله من سخرية واستهانة.

ولكنه لم يكد يخطو منصرفاً حتى التفت فقال لي:

يا حجاج .. رأيتك قد سألت صاحبي: على دين من هو؟ فقال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فأمرت بقطع رقبته.. ثم سألتني عن ديني، فأجبتك هازئاً بك وبأبيك، إني على دين أبيك الشيخ يوسف، فأمرت بإطلاق سراحي! فوالله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلاّ أنه غرسك في بطن أمك، لكفاه ذلك ذنباً يدخل به النار!

استفزني كلام هذا الجلف الذي مننت عليه بالعفو فشتمني وشتم أمي وأبي!

اخترطت غضباً سيفي فقتلته، ولعل هذا الأحمق كان يظن أني لا أستحل قتله بعد أن عفوت عنه!

فكيف يلومني الناس على قتل هذا وأمثاله؟

وما لي لا أقتل هذا وأمثاله وقد استمرؤوا الخروج على أمير المؤمنين ومن ولاهم على أمصاره من الأمراء؟

لو استقبلت من أمري ما استدبرت لتقربت إلى الله بدماء الكثيرين، وبخاصة ثلاثة نفر بلغوا أقصى الكفر واستحقوا أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

أما أحدهم فرجل وليته على إحدى الجهات، فقام في المسجد هناك فخطب فأوجز فأعجب الناس إيجازه، فنادوه من أركان المسجد بالدعاء له قائلين:

أكثر الله من أمثالك أيها الأمير.

وكان هذا الرجل مغتراً بنفسه، غبياً جهولاً، فغضب من دعائهم وصاح فيهم:

يا هؤلاء .. لقد سألتم الله شططاً، فإنه لا مثيل لي.

فهذا الكافر يستكثر على الله أن يخلق مثله.

وأما الثاني من هؤلاء المغرورين المأفوفين للكفر، فقد ولّيته عملاً ، فمرت به امرأة عجوز تسأله عن الطريق فبدأته ـ كما جرت العادة ـ قائلة: «يا عبد الله».. ثم سألته أين الطريق إلى مكان كذا؟

فغضب الأحمق من قولها له: «يا عبد الله».. وقال لها زاجراً معنفاً وقد أعماه الغرور:

يا هذه ،، أمثلي يقال له: عبد الله؟

وثالث ولّيناه وأكرمناه لكثرة صلواته. فخرجت نياقه يوماً إلى

المرعى فابتعدت وضلت، وبحث عبثاً فلم يجدها، فقال يخاطب الله تعالى:

والله لئن لم ترد نياقي لا صليت فرضاً ولا نافلة أبداً!

فلما وجد نياقه قال مفتخراً:

قد علم الله أن يميني كانت برة، فلو ضاعت نياقي لقطعت صلاتي وصومي!

فهؤلاء هم بعض الأجلاف الذين يلومنني أهل الحجاز واليمن ومصر وغيرهم على امتحانهم بالعذاب، وقسرهم على الإقرار بالكفر، جزاء خروجهم على الله ورسوله وخليفة رسوله!

اليوم الثاني:

أقعدني المرض فجأة ففرح أهل العراق وقالوا: مات الحجاج.. مات الحجاج.

فلما أفقت من المرض، صعدت المنبر فقلت:

يا أهل الشقاق والنفاق، مرضت فقلتم: مات الحجاج! أما والله إن الموت لأحب إلى قلبي من الحياة معكم.. وهل أرجو الخير كله إلاّ بعد الموت؟ وما رأيت الله رضي بالخلود في الدنيا إلاّ لشر خلقه أجمعين وأهونهم عليه: إبليس!

جاءني أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسن وجاوز الثمانين فعاتبته على شكواه إياي عند أمير المؤمنين، وقلت له:

يا أبا حمزة ـ يغفر الله لك! قد عجلت باللائمة وأغضبت علينا أمير المؤمنين!

ثم أخذت بيده فأجلسته معي على سرير الإمارة فقال لي:

يا حجاج ... إنني رجل من أهل مدينة رسول الله، وإنك تزعم أننا

«الأشرار» وقد سمانا الله «الأنصار» وزعمت أننا بخلاء. ونحن الذين قال الله فيهم: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة».. فشهد الله لنا بأقصى غاية الجود، وشهدت لنا بعكس ذلك! وزعمت أن الأنصار أهل نفاق. وقد قال الله فينا: «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا».. فكان المفزع والملجأ من هذا الذي تقوله إلى أمير المؤمنين، فعرف من حقنا ما جهلت، وحفظ ما ضيعت.. وسيحكم الله في ذلك في يوم لا يشوب الحق عنده باطل، ولا الهدى ضلال!

لزمت الصمت، وخفضت جناح الذل للشيخ، مخافة أن يعاود الشكاية إلى أمير المؤمنين وقلت له متلطفاً:

يا أبا حمزة .. حباً وكرامة لك، فمرني بما شئت!؟

قال:

يا حجاج .. إني خدمت رسول الله ست سنين، ووالله لو أن اليهود رأوا رجلاً خدم موسى بن عمران يوماً واحداً لجعلوا له عندهم من الكرامة ما لم تجعل لي أنت عندك!

اعتذرت إليه بكل ما حضرني من الأعذار حتى رضي وقام إلى داره وأنا هائب له، خائف منه! وما رأيتني من قبل هبت ولا خفت أحداً كائناً من كان.. إلاّ أمير المؤمنين.

اليوم الثالث:

تمتلىء سجوني بأهل المعصية والشقاق، وقد سألت عامل السجون عن عددهم فقال:

إنهم يزدادون ولا ينقصون، وفي سجن الكوفة وحده، بضعة عشر ألفاً منهم.

قلت:

أريد أن أستعرض من في هذا السجن. فإن كان بينهم مظلوم أطلقناه.

مضيت إلى السجن، وجاء الحراس ببعض من فيه، فسألتهم واحداً واحداً: فيم كان حبسهم، حتى وقف بين يدي شيخ ضغيف فقال لي أحد رجالي همساً:

أصلح الله الأمير، هذا شيخ مظلوم. بدأت قصته عندما كنت تقرأ يوماً قول الله تعالى: ﴿قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح﴾.

فتوقفت أيها الأمير ـ أصلحك الله ـ ولم تدر كيف تقرأ كلمة «عمل»، وسألتنا: أهي بالضم أم بالفتح؟ فلم نحر جواباً. فبعثتني أبحث عن قارىء متمكن، فأتيت لك بهذا الشيخ فوجدتك قد تركت مجلسك، فأمرته أن يبقى في صحن دارك حتى تعود. وانصرفت أنا إلى بيتي، فلما بصر به الحراس قاعداً في دارك ولم يعرفوا سبب حصوله فيها أمسكوا به ووضعوه في السجن حتى يستأمروك فيه. ثم أنسيته أنا، ولم يحدثك عنه أحد بشيء، فبقي سجيناً ستة أشهر حتى ساقك الله اليوم إليه ورأيته أنا فتذكرت قصته.

أذهلني ما سمعت، ولكني تمالكت نفسي وسألت هذا القارىء السجين:

أيها الشيخ .. فيم كان حبسك؟!

قال ساخطاً ساخراً:

كان حبسي في ابن نوح وعمله.. أهو بالضم والتنوين، أم بالفتح؟! فأخبرني الشيخ أن القراءتين صحيحتان!

اليوم الرابع:

فتح لي الشيخ الذي حبسناه في قصة «ابن نوح» باب التفكير

في أمر المصحف كما رسمه الإمام الشهيد عثمان بن عفان، فإن مصاحفه الستة قد أوضحت الكلمات، وقطعت الاختلاف في السور والآيات، ولكن الحروف تتشابه في رسمها، فالقاف مثل الفاء، والعين مثل الغين، والهاء كالتاء، والثاء والياء.. والصاد كالضاد، ولا بد من تمييز الكلمات بعضها من بعض لكيلا يقع العوام في الخطأ والخلاف. فمن الذي يقدر أداء هذا المهم الجسيم من أمر الدين؟!

لو استطاع علماؤنا أن يضعوا نقاطاً وعلامات على الحروف لتمييزها لكان لهم في ذلك ثواب عظيم، وإني لأرجو أن يكون لي نصيب من ذلك الثواب، وإن حبي للقرآن ليجعلني أحرص الناس على صحة قراءته، ولعل الله يغفر لي يوم القيامة لما أحمله من محبة لكتابه:

اللهم إني أحب كتابك فاغفر لي ببركته ما تقدم من ذنبي وما تأخر!

اللهم اغفر لي وارحمني، فإن الناس يزعمون أنك لا تغفر لي ولا ترحمني!

اليوم الخامس:

جيء إلينا اليوم بأعرابي اسمه «جحدر»، يتصعلك في صحراء اليمامة ويقطع الطريق على المسافرين، ويسلب أموالهم.

قمت إليه فعلوته بعصا غليظة في يدي فشججته وقلت له حانقاً:

أيها اللص ما حملك على قطع طريق المسلمين وقد علمت أنك لا تفلت من عقابي؟!

قال بلسان فصيح:

ما أنا بلص، ولكنها جراءة الجنان، وكلب الزمان.. ولو اختبرني الأمير لوجدني من صالح الأعوان.

قلت من فوري:

لم تبعد أيها اللص عما نفكر فيه، فسنختبرك أشد اختبار، سنقذف بك إلى أسد يتضور جوعاً فإن قتلك وأكلك كفانا شرك، وإن قتلته نظرنا في أمرك!

ثم أمرت أن يوضع قيد حديدي ثقيل في يده اليمنى مغلولة إلى عنقه.

وجيء في قفص بأسد ضخم جائع منذ ثلاثة أيام، وأعطى الجنود الرجل سيفاً في يده اليسرى الطليقة، ثم أطلقوا الأسد من القفص وخلوا بينه وبين الرجل!

والأسد.

أقبل اللص نحو الأسد يرتجز قائلاً:

ليث وليث في مجال ضنك
كلاهما ذو أنف ومحك
وشدة في نفسه وفتك
إن يكشف الله قناع الشك
فهو أحق منزل بترك

زأر الأسد زأرة شديدة كأنه يرد على ارتجاز اللص، ثم تمطى واندفع نحوه حتى صار منه على قدر ذراع فوثب عليه وثبة هائلة فتلقاه «جحدر» بالسيف مصلتاً بيده اليسرى، ويده اليمنى في الأغلال، فخالطت ضربة السيف قلب الأسد وأحشاءه. فخرَّ صريعاً على الأرض كأنه صخرة هوت من قمة جبل!

ووقع جحدر على ظهره من شدة وثوب الأسد عليه، ولكن سيفه بقي في يسراه كأنه يتأهب لمعركة ثانية!

راعني ما رأيت، فكبّرت ثلاثاً، وكبّر أصحابي، ونهض جحدر ينفض ثوبه وينشد شعراً.

قلت له:

أما شجاعتك وبأسك ورباطة جأشك فقد شهدناها ولكن لا سبيل إلى العفو عنك حتى تتوب عن قطع الطريق.

قال معتذراً:

فإني أتوب على يديك أيها الأمير أصلحك الله!

قلت له:

قد قبلنا توبتك، فهل تختار أن تقيم عندنا، أو تنطلق إلى بلادك؟

بل أختار المقام في كنف الأمير أعزّه الله.

أكرمت الرجل، وأجزلت عطاءه وألحقته بحرسي، وجعلته من ندمائي، يطرفني بقصص مغامراته أيام صعلكته!

وما زالت المعركة بين قاطع الطريق والأسد تتمثل لي كأنها رؤيا في المنام، لم أر قط أعجب منها!

الصمت تحت العذاب

اليوم الأول:

أصحاب الخبر والبريد يحملون إلى ديواننا كل يوم أخباراً عن تدهور صحة أمير المؤمنين، فهو يخرج من وعكة فيدخل في وعكة وتساقطت أسنانه فربط له الأطباء بعضها بأسلاك رفيعة من الذهب كالتي يستعملها ملوك الروم، تعاورته الأمراض وأنهكه النضال عشرين عاماً انتزع فيها الخلافة من أنياب قريش والعرب، وحارب أمما من خوارج العرب والعجم، وقاتل الروم والترك والهنود والأرمن والصقلب، حتى استقر ملكه، وأذعن له الناس طوعاً وكرهاً، ولكنه ما زال يوجس خيفة من خروج هذا عليه أو ذاك، ولم ينس - بعد - حرب ابن الزبير وحرب الخوارج وحرب ابن الأشعث، مع أن هذه الحروب انطوت، وتخوض الدولة الآن حروباً كبرى في شرق الأرض وغربها، وفتوح أمير المؤمنين امتدت من الهند والصين إلى بحر الظلمات، ومن أذربيجان إلى السودان، وصارت أيامه كأيام عمر بن الخطاب، جهاداً في سبيل الله، لا ينقطع يوماً واحداً، ولا يلاقي المسلمون فيه إلاّ النصر المبين.

ولكن أمير المؤمنين كبرت سنه، فهو الآن في التاسعة والخمسين من عمره، وما بلغ أحد من أهل بيته هذه السن إلاّ كثر تفيكره في الموت، وكثر بكاؤه على نفسه وعلى دنياه التي يوشك أن يفارقها!

وإني لأدعو لأمير المؤمنين بالعمر المديد، فإني لا أدري ما يصنعه بي من يتولى الخلافة بعده، وقد كثر أعدائي في دمشق، وأولهم سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، وكلاهما يزعم أني ظالم غشوم سفاك للدماء.

وإني لأرجو أن تئول الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فإنه مثل أبيه، يعرف قدري، ويعلم أنه لولا سيفي لما استقر بنو مروان فوق سرير الخلافة في دمشق.

وأين أمير المؤمنين الآن، في ضعف صحته وكثرة مخاوفه، منه حين جاءه الخبر منذ تسعة عشر عاماً بتوليه الخلافة، فأطبق مصحفاً كان بين يديه وقال: «هذا فراق بيني وبينك» ثم تسعة عشر عاماً بتوليه الخلافة، فأطبق مصحفاً كان بين يديه وقال: «هذا فراق بيني وبينك» ثم شمر لقتال ابن الزبير وسائر الخارجين على الدولة حتى قهرهم وأفناهم؟!

وأين هو الآن منه عندما وقف على منبر المسجد النبوي في المدينة بعد مقتل ابن الزبير فقال للناس بصوته الجهوري ولسانه الفصيح:

> إني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلاّ بالسيف، وإني أحتمل كل شيء، إلاّ أن ينهض أحدكم فيعقد على رأسه راية يحاربنا تحتها، أو يثب على منبر فيخطب داعياً الغوغاء إلى بيعته، وإنه لا يقول أحدكم برأسه: هكذا، إلاّ قلنا بالسيف: هكذا!

أين هذا الرجل الممتلىء عزماً وحسماً وفتوة، منه الآن وقد وعظه شيخ فقال:

يا أمير المؤمنين، إن اليوم الذي أنت فيه لو بقي لغيرك لما وصل إليك، «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا».. وإني أحذرك يوم ينادي المنادي: «احشروا الذين ظلموا وأزواجهم»، ألا لعنة الله على الظالمين.

ففزع أمير المؤمنين من هذه الموعظة، وبكى حتى بلّت دموعه أطراف ثوبه، ولم تزل الكآبة مرتسمة على وجهه بعد ذلك أياماً!

اليوم الثاني:

شددت الخناق على العصاة والخوارج ـ علي قتلهم الآن ـ تحسباً لما قد يقع منهم لو نزل مكروه بأمير المؤمنين، حفظه الله وأدام ملكه.

وجاءنا اليوم نبأ وفاة روح بن زنباع، عظيم الدولة في دمشق، والمشير الأول في ديوان أمير المؤمنين.

وأنا أحمل لهذا الرجل جميلاً لا أنساه، فهو الذي ألحقني بحاشيته وأنا شاب صغير، ثم قدمني إلى أمير المؤمنين عبد الملك، فجعلني على شرطته، ثم تقدمت عند أمير المؤمنين وترقيت حتى صار من أمري ما صار.

إن كبار الرجال الذين اصطفاهم أمير المؤمنين يموتون واحداً بعد الآخر، فيزداد وسواس أمير المؤمنين ويشتد خوفه من مفارقة الدنيا، وقد لعمري صدق أمير المؤمنين في وسواسه وخوفه، وإني لأشعر بمثل ما يشعر به، ولكني أتشبث بالدنيا، وهيهات، مع أنها لو سألتني: هل تحبني؟ لأجبت صارخاً: نعم.. ثم نعم! ولو سألتني: هل شبعت مني؟! لرفعت عقيرتي صائحاً: كلا! ثم كلا!!

الأميرا ولا يقول له أحد: أعزّ الله نصرك يا أمير المؤمنين!

ولكن لا بد مما ليس منه بد، ولن ننقطع عن العمل للدنيا حتى تنقطع عنا الدنيا! ولن يغلبنا العصاة والمتمردون ما دام قائم السيف في أيدينا، ولن يقف أحدهم فيقول لي: اتق الله، إلاّ ضربت عنقه! فهلاّ اتقى هو الله فلم يتعالم علينا بالموعظة وكأنه قد ضمن النجاة من عذاب النار؟!

أمرت اليوم بأن يطاف برأس قائد جيش الطواويس الخائن ابن الأشعث الذي أرسله إلينا ملك الترك محنطاً في صندوق.

وقلت للجند: إذا فرغتم من الطواف بهذا الرأس في الكوفة، فاذهبوا به إلى البصرة، ثم إلى واسط، مدينتي التي أنشأتها لجنودي في وسط العراق.

قبض الجند على حطيط الزيات الكوفي، الذي يدعي الزهد والتقوى، ويخرج مع العصاة، فهو يوماً مع ابن الأشعث، ويوماً مع شيعة أبي تراب علي بن أبي طالب، فلما وقف بين يدي قلت له:

يا هذا .. ما تقول في أبي بكر؟

خيراً ..

فعمر؟

خيراً .. فعثمان؟!

ما ولدتني أمي في زمن عثمان فأعرفه!

استشطت غضباً وصرخت فيه:

يا ابن اللخناء .. أكانت أمك ولدتك في زمان أبي بكر وعمر ولم تلدك في عهد عثمان؟!

لم يهتز الرجل في وقفته خوفاً وقال:

يا ابن أم الحجاج .. إني وجدت الناس قد اجتمعوا في أبي بكر وعمر

فقلت بقولهم، ووجدتهم اختلفوا في عثمان وسكت عنه بعضهم فلم يسعني إلاّ السكوت مثلهم!

اقترب مني «مَعَدّ» صاحب العذاب في سجوني، فهمس في أذني:

أصلحك الله.. ادفع هذا الرجل إليّ، فوالله لأسمعنك صياحه من شدة ما أوقعه به من التعذيب.

سلمت أبا حطيط إلى معد وقلت:

أسمعنا صياح هذا المارق تحت العذاب!

اليوم الثالث:

جاءني «معد» صاحب العذاب، فقلت له مستنكراً:

إني أسترق السمع كل ليلية لمن تعذبهم في السجن، فلا أسمع صياح أبي حطيط الزيات، فما خبره؟

قال صاحب العذاب وكأنه منكسر مغلوب على أمره:

أصلح الله الأمير.. إني عذبته بكل صنوف العذاب، وهو ساكت كأنه لا يحس، فلما طال سكوته ضربته بحجر فكسرت ساقه، فلم ينبس بشيء وكأنه جلمود صخر لا يشعر بالعذاب، ووالله لو كسرت ساق ثور أو ساق فيل لملأ الدنيا صراخاً من شدة الألم!

ثم قال لي صاحب العذاب:

أيها الأمير.. إني أستقيلك من هذا الأمر، فخذ هذا الرجل، فقد أفسد علينا أهل السجن، فصاروا يقلدونه في الصبر على العذاب!

تعجبت من هذه القصة وأمرت صاحب العذاب فجاء بالرجل إلى مجلسي في دار الإمارة، وصب عليه في حضرتي أنواع العذاب، وأتى بمسلة من حديد تشبه نصل الرمح فأخذ يغرزها في جسده وهو صابر متجلد لا يصرخ ألماً.

وتوالت عليه صنوف العذاب حتى أخذته الغيبوبة، ثم دخل في الاحتضار، فأمرت بلفه في بساط ودفنه!

يقول الناس حين يسمعون بهذه القصة وأمثالها:

ألا يشعر الحجاج بالخوف من الله تعالى؟

بلى .. ثم بلى .. إني لأشعر بالخوف من الله، وإن أكبر خوفي منه أن يحاسبني يوم القيامة على تهاوني مع حطيط الزيات وأمثاله من المارقين المحاربين لله ورسوله وخليفته يوم القيامة على تهاوني مع حطيط الزيات وأمثاله من المارقين المحاربين لله ورسوله وخليفة رسوله، أما أهل الذنوب الطفيفة فإني أرفق بهم فلا أعذبهم ولا أقتلهم.. ومن هؤلاء ثلاثة من أبناء قائدنا السابق المهلب بن أبي صفرة، وهم: يزيد وحبيب وعبد الملك، وقع منهم تقصير في عملهم، وقد كان والدهم المهلب ـ رحمه الله ـ أعظم قوادنا، وكان بنوه هؤلاء ممن رضينا عنهم وكافأناهم قديماً، وقلنا لهم إنكم أهل بيت بورك لكم في الطاعة ولزوم الجماعة، ثم قصروا وأهملوا فحبست يزيد في سجن واسط، وعزلت حبيباً عن ولاية كرمان، وأخرجت عبد الملك من قيادة الشرطة، ولم يقع عليهم من العذاب شيء!

اليوم الرابع:

لا يغيظني إلاّ الشبان الأغرار من بني مروان، كسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزير، ومعهم من الأمويين خالد بن يزيد بن معاوية، فهؤلاء وأمثالهم لا يشكرون لي جميل صنيعي لدولتهم التي ما تفيأوا ظلالها الوارفة إلاّ بسيفي، ولا يحمدون مسعاي في توطيد عرش عميدهم عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين، بل يشنون على سيرتي في حكم العراق وفارس والشرق، حرب تشنيع شعواء،

ويكيلون لي التهم، ويرمونني بالكبائر، ويرونني شر خلق الله مع أنهم لولا سيفي لأكلتهم العرب ومزقت قديمهم وجديدهم!

جاءني رجال البريد والخبر يقولون:

أصلح الله الأمير، إن الدسائس عليك قد اشتدت عند أمير المؤمنين في دمشق، وقد رأينا سليمان بن عبد الملك وهو محنق عليك، يقسم أنه سوف يقتلك يوماً، أما عمر بن عبد العزيز، فلا يفتأ ينحى عليك باللائمة، وهو مغيظ منك، يتقول عليك الأقاويل، وإلى جانب سليمان وعمر يقوم خالد بن يزيد بن معاوية فيقول فيك ما لا يقال!

هونت الأمر على رجالي وقلت لهم:

لا عليكم من هؤلاء الثلاثة الأغرار وأمثالهم من بني مروان وبني سفيان وسائر بني أمية في دمشق، فإنهم لا يعلمون أن الخبزة الطرية التي يأكلونها، هي من صنع يدي، ولولا سيفي لانتزعتها منهم العرب! ولئن فات هؤلاء الشبان الصغار أن يعلموا جهادي في سبيل دولتهم، فقد علم أمير المؤمنين جهادي ورفعني به إلى المنزلة التي أتبوأها الآن، أميراً للعراق والمشرق كله إلى حدود الهند، وجيوشي تفتح بلاد الترك حتى سمرقند، وهذا قتيبة بن مسلم يقود جيوشي ويرفع راية الإسلام في أرض لم تطأها قدم عربي من قبل.

- أيها الأمير، إن أعداءك في دمشق يتهمونك بالعسف ويقولون إن في سجونك مائة ألف مظلوم، من بينهم ثلاثون ألف امرأة!

قلت:

يا هؤلاء.. إني لا أخبط في سياستي كالعشواء، بل أستدل فيها بالدليل الواضح، وأحتج بالحجة الدامغة، وأستبصر بالبصيرة النافذة، ولو عقل أولئك من بني أمية في دمشق لعلموا أن امتلاء سجوني بالعصاة إنما هو حُسْنُ نظر مني لمصالح دولتهم، ولو أطلقت العصاة ورحمتهم لأزيلت الأمور عن سَنَنِها الصحيح!

صمت رجالي واجمين، فقلت لكبيرهم:

وأنت يا صاحب البريد فخبرني ماذا أصنع ليرضى عني سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وخالد بن يزيد وأضرابهم من الشبان المترفين؟!

لم يحر جواباً، فعدت أسأله:

وماذا يقولون أيضاً؟

يقولون إن الفقراء في ولايتك قد استضاقوا واختلت أحوالهم وصاروا لا يجدون ما يسد رمقهم.

كدت أنشق غيظاً فصرخت:

كذبوا! فأنا أشد الولاة براً بالفقراء، وحنواً عليهم، لا أنهر سائلاً، ولا أقول لفقير يصنع الله لك، بل أمد يدي فأعطي السائل، وأسد خَلَّة الفقير، ولو جاء بنو مروان إلى الكوفة لشهدوا موائدي ممدودة ليل نهار، والناس يأكلون منها أطيب الطعام، من لحم وأرز وحلوى والخدم قيام يخدمون الناس!

ـ وماذا يقولون عني أيضاً في قصور بني مروان وبني أبي سفيان وغيرهم؟

ـ يقول عمر بن عبد العزيز قولاً عظيماً لا نستطيع التفوه به أيها الأمير، أصلحك الله.

ـ بل أدوه حرفاً حرفاً كما سمعتموه.

ـ يقول: لو جاءت كل أمة بخبيثها، وجاءت العرب بالحجاج، لغلبت العرب الأمم جميعها، وما كان الحجاج ليصلح لدنيا ولا لآخرة، فقد تولى العراق وهو أوفر ما يكون عمارة، فانحط به إلى أقل عمارة، وكان خراجه مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف، فهرب الفلاحون من وجه الحجاج، فنزل الخراج إلى أربعين ألفَ ألف!

صرفت رجال البريد وجلست أفكر:

ماذا أصنع لو فجعني الموت في أمير المؤمنين عبد الملك حفظه الله؟ إن

ولي عهده «الوليد» لن يعزلني عن ولايتي لأنه يعرف مقداري، ولكن ماذا عن أخيه سليمان، وابن عمه عمر بن عبد العزيز وأمثالهما من الشبان الطائشين الذين نشأوا في النعيم ولا علم لهم بجهادي الطويل في سبيل دولتهم؟ إن هؤلاء يحترمون خادم مطبخهم أكثر مما يحترمونني، وأنا خادم دولتهم وطابخ سياستها عشرين سنة، ولولاي لما وجدوا طعاماً، ولظهروا على حقيقتهم، من عجز وضعف وفسولة وهوان على العرب والمسلمين!

فوَيْلي، ثم ويلي على هؤلاء الذين يأكلون طعامهم، ويشربون شرابهم من يدي ثم يعضونها ويقولون: ما أكلنا ولا شربنا!

١١

رحيل عبد الملك

اليوم الأول:

يزداد خوف أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من الموت، وقد اجتمعت عليه أدواء كثيرة، وكبرت سنه فضعف بدنه عن مقاومة هذه الأدواء، وانقلب أمير المؤمنين من قوة الشكيمة والتجلد والصبر، إلى الفزع من إدبار الدنيا بعد إقبالها، ثم التعرض بعد الموت للحساب والعقاب، من الله تعالى، كأنما عاد عبد الملك بن مروان إلى قديم عهده بمدينة رسول الله مع أبيه وأسرته، إذ كان لا يفارق المسجد النبوي، ولا يكف عن الصلاة، حتى سماه الناس «حمامة المسجد»، وضرب به عبد الله بن عمر بن الخطاب المثل في الصلاح والتقوى وطلب العلم في تلك الأيام.

وأمير المؤمنين في مَرْضَتِه هذه التي طالت عليه، يفيق أحياناً وينتعش فيظن أطباؤه أنه قد عوفِيَ ويعلنون البشرى للناس، ثم ينتكس فيستسلم للحزن ويناجي دنياه راثياً باكياً!

أصدرت أمري إلى رجال الخبر والبريد ألاّ يفوتهم شيء مما

يجري في قصر الخلافة بدمشق، حتى لا يفجؤنا موت أمير المؤمنين بما ليس في حسباننا، فتكون مصيبتنا فيه مصائب متعددة، ويخرج هو من الدنيا، ونخرج نحن من كل شيء لنا في الدنيا ونحن أحياء ندب فوق ظهرها!

وآخر ما حدّثوني به أن أمير المؤمنين ثقل عليه الداء فقال لأطبائه: ارفعوني إلى الشرفة أشم الهواء، فلما رفعوه إليها أطل منها مَلِيّاً واستقبل الهواء متنسماً فيه رائحة الحياة وروح الدنيا، فاهتاجه الحزن فبكى وقال:

يا دنيا ما أطيبك!

قالها ثلاثاً أو أربعاً، ثم استدرك نافضاً منها يديه:

إن طويلك لقصير، وإن كثيرك لحقير، وإن كنا منك لفي غرور!

ثم أنشد:

إن تناقش يكن نقاشك يا رب ... عذاباً، لا طوق لي بالعذاب «م»

أو تجاوز فأنت رب صفوح ... عن مسيء ذنوبه كالتراب

وأمر بفتح أبواب قصره، فلم يدخل إليه أحد، ولكنه سمع نداء بائع في الطريق، فقال باكياً: يا ليتني كنت بائعاً أرتزق من الطريق، ولم أتول من مقاليد هذه الأمة شيئاً!.. ثم تلا قوله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة...﴾..

واستند على الوسائد فوق سريره، وأجال عينيه فيمن حوله، وبكى بكاءً شديداً، ثم قال:

يا رب إن ذنوبي عظيمة، وإن قليل عفوك أعظم منها، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي!

وسمع أحد النساك هناك هذه الكلمات فبكى وقال:

لو كان كلام يصاغ من الذهب لكان هذا الكلام!

ولكن أمير المؤمنين حين ينتعش ويفيق يعود إلى إقباله على الدنيا، والتدبير لمستقبل أولاده، وكان له أخيراً تدبير خطير أوشك أن يقتل فيه أخاه عبد العزيز بن مروان، أو يعزله من ولاية مصر ويزج به في السجن!

وعبد العزيز هو ولي عهد عبد الملك كما رسم ذلك أبوهما مروان بن الحكم في وصيته قبيل وفاته منذ أكثر من عشرين سنة، فلما استقرت المملكة لعبد الملك، وطال عهده، وعظم سلطانه، ثقل عليه مكان أخيه في ولاية العهد، وأرادها لابنه الوليد، وهو أكبر أولاد أمير المؤمنين، وله في قلبه محبة شديدة، وشفقة عظيمة، حتى إن أمير المؤمنين ـ لفرط شفقته عليه ـ أعفاه في أيام طفولته وصباه من طلب اللغة والأدب عند العرب الأقحاح الفصحاء في نجد والحجاز كما يفعل أولاد الأمراء والكبراء في الشام فيعودون من هناك بألسنة فصاح، وفطرة مطبوعة على الشعر والخطابة، فلما رأى عبد الملك كثرة أغلاط الوليد في الكلام، ندم على تقصيره في تعليمه، وحاول استدراك ما فات، ولكن الوليد بقي ضعيف اللغة كثير اللحن، قصير الباع فوق المنابر.

اليوم الثاني:

يحاول أمير المؤمنين كلما أفاق من وجعه، أن يدبر لعزل أخيه عبد العزيز عن ولاية العهد، وقد أغراه بأموال طائلة، ولكن أخاه رفض المال وأبى أن يعزل نفسه!

وبعض الكبراء والأمراء يحثون أمير المؤمنين على خلع أخيه، ويقولون له:

يا أمير المؤمنين، لو خلعته ما انتطحت فيه عنزان، فإنك وحدك

صاحب الأمر والنهي، وليس في الدين ما يمنعك من عزله.

ولكن قبيصة بن ذؤيب وزير أمير المؤمنين نصحه بالأناة وقال له:

يا أمير المؤمنين، لا تعجل على أخيك، فعسى أن يدبر الله لنا هذا الأمر من وجه لا نعرفه.

فما انقضت ساعة حتى جاء البريد من مصر بموت عبد العزيز ابن مروان، فأقبل أمير المؤمنين يقول لوزيره:

قد كفانا الله عاقبة ما كنا ندبره لعبد العزيز، فاكتب بولاية مصر لولدي عبد الله، وبولاية العهد لأخويه الوليد وسليمان!

أبهجني هذا النبأ وأحزنني!

فإن الوليد صديقي، وهو كأبيه معجب بي، مقدر لجهادي في سبيل الدولة، ومتى أتته الخلافة بعد أبيه، أقرني على إمارة العراق والمشرق، أما سليمان فعدوي، وهو يدعي الغيرة على الحق، ولو تولى الخلافة بعد أخيه لقتلني! فالله أمتني في عهد الوليد بن عبد الملك، واجعل يومي قبل يومه، ولا تبقني إلى عهد سليمان، فإن الموت يومئذٍ أحب إلى نفسي من الحياة!

إن عبد الملك يترك وراءه تسعة عشر ولداً وبنتاً، ليس فيهم من يذكرني بالشر إلاّ سليمان الذي توثقت صحبته لابن عمه عمر بن عبد العزيز، فأفسد عمر عليه رأيه في أعمالي، وزعم له في شأني المزاعم الشنعاء، وزيّن له أن يكرهني ويحتقرني ويضمر لي السوء.

اليوم الثالث:

بايع الناس في كل أرض للوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان بولاية العهد، وقد امتدت دولة الإسلام في عهد عبد الملك بن مروان من أقصى فارس وخراسان، وكابل وسجستان، شرقاً إلى

برقة وأفريقيا والمغرب الأقصى على بحر الظلمات، غرباً، مع أن عبد الملك كان يحارب الخوارج في داخل الدولة، ولبث في حربهم سبع سنين لم يتوقف فيها عن متابعة الفتوح.

فهذه الدولة التي استطاع عبد الملك أن يقيمها ويوحدها، تحتاج إلى ولي عهد يمسك زمام الخلافة بيد قوية إذا انقضت أيام عبد الملك، وليس في بني مروان وسائر بني أمية خير من الوليد بن عبد الملك للقيام بهذا المهم الجسيم، وسيجدني الوليد طوع إشارته، كما وجدني أبوه دائماً، ولكني أرجو طول البقاء لأمير المؤمنين عبد الملك ولا أعدل به أحداً من بنيه وأهل بيته أجمعين.

إن أيام عبد الملك هي أيام المجد والرخاء لهذه الدولة العربية العظيمة التي ترفرف عليها راية الإسلام، وسوف تذكر الأجيال القادمة كل من جاهد في سبيل إقامة هذه الدولة وقمع الخارجين على أمير المؤمنين عبد الملك، وقد يرى الناس أنني سفكت الدماء، وملأت السجون، وضربت العرب وأذللتهم، ولكنهم سيتبينون أن هذا كله كان في سبيل إقامة الدولة ودرء الأخطار التي كانت تهددها بالزوال!

وسيذكر الناس لعبد الملك ولأمثالي من رجال دولته، إصدار الدنانير والدراهم العربية، وكانت الدولة من أيام أبي بكر وعمر تستعمل النقود الرومية والفارسية، فجاء عبد الملك فأمر بسك النقود العربية من الذهب والفضة، فصار دينار العرب سيد الدنانير، ودرهمهم سيد الدراهم في العالم كله، واستقلت أموالنا وتجارتنا عن أموال الروم وتجارتهم، وكنت أنا أول من أنشأ داراً لسك النقود في الكوفة، وانتهى التعامل بالنقود الرومية والفارسية.

وكان ديوان الخراج في دمشق يستعمل لغات الروم والفرس

وغيرهم، ولبث سرجون بن منصور الرومي رئيساً لديوان الخراج في دمشق طوال عهد معاوية وابنه يزيد ثم في عهد مروان بن الحكم وبداية عهد عبد الملك، فلما تمَّ تعريب الدواوين ديوان أولهما الخراج صار أهل الوظائف فيها من العرب لا من الروم والفرس وغيرهم، واستطعت أنا تحويل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية في أقصر وقت، واستعربت الدواوين في مصر والمغرب وسائر أمصار الدولة مشرقاً ومغرباً، وأخذأهل الأمصار يتعلمون العربية ويدخلون في الإسلام.

فهذا الذي صنعه عبد الملك لم يصنعه أحد قبله، وبه بلغت الدولة تمامها، واكتمل قوامها، وصارت حقاً دولة العرب والمسلمين.

فما أجدر الوليد بن عبد الملك بأن يبايعه الناس طائعين مسرورين، فإن العرب لم يروا لأنفسهم قط دولة كهذه الدولة التي بناها لهم عبد الملك، واكتمل بها عز الإسلام.

اليوم الرابع:

كل الأخبار الواردة علينا من دمشق تنذر بأن أمير المؤمنين شارف النهاية، وأوشكت شعلة حياته العظيمة أن تنطفىء بعد أن اتقدت وتوهجت كالشمس عشرين سنة في الخلافة.

ونحن الآن في شهر رمضان سنة ٨٦ للهجرة، ولا يفتأ أمير المؤمنين يردد على عُوَّادِهِ من بني مروان وبني أبي سفيان ورجال الدولة:

> أخاف شهر رمضان، فيه ولدت، وفيه فطمت، وفيه أتممت حفظ القرآن، وفيه بويعت بالخلافة، فلم يبقَ إلاَّ أن أموت فيه!

جمع أمير المؤمنين أولاده وأوصاهم:

يا بني عبد الملك، أوصيكم بتقوى الله فإنها أزين حلية، ليعطف الكبير منكم على الصغير، وليعرف الصغير منكم حق الكبير.

ثم ذكرني أمير المؤمنين ـ أثابه الله أجزل الثواب ـ فقال لأولاده:

وأكرموا الحجاج، فإنه الذي وطّأ لكم المنابر، ودوّخ البلاد، وأذلّ الأعداء!

طفرت الدموع من عيني حين تلا رجال الخبر والبريد هذه الوصية على مسامعي، فها هو ذا أمير المؤمنين لم ينسني وهو في كربة الموت، فيا رب فرّجْ عن أمير المؤمنين كربات يوم القيامة.

اليوم الخامس:

ها نحن أولاً في شهر شوال، وقد انقضى شهر رمضان الذي كان يتخوف منه أمير المؤمنين، فلعله وقد اجتازه أن يكون عفو الله وعافيته عاقبة ما يكابده الآن من الشدة.

وقد انقضى وقت قصير ولكني حسبته دهراً طويلاً، إذ انقطعت عني رسائل أصحاب الخبر والبريد، فما الذي قطعهم عني وقطع رسائلهم؟

لقد وقع ما كنت أحذره!

مات أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، أعظم الخلفاء قاطبة بعد عهد الراشدين الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان.

مات عبد الملك في هدوء، دخلت عليه ابنته فاطمة تبكي قبل أن يسلم الروح فنهاها عن البكاء، ثم دخل عليه ولي عهده الوليد يبكي فقال له ينهره وصوته يتلجلج ضعفاً:

ما هذا؟ أتحن حنين الجارية؟! يا وليد.. اسمع مني: إذا أنا مت فشمر

واتتزر والبس جلد نمر، ولا تعصر عينيك دمعاً كالمرأة الحمقاء، وادع الناس إلى بيعتك، فمن أبى وقال برأسه هكذا، فقل بالسيف هكذا!

ثم التفت إلى ابنته فاطمة وقال للوليد:

عليك بالإحسان إلى أخواتك، وأحبهن إلى قلبي فاطمة!

ودخل عليه بنو أمية وفيهم خالد وعبد الله ابنا يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان، فقال لهما يختبرهما:

يا بني يزيد .. لقد كان أبوكما خليفة، وجدكما خليفة، فهل تحبان أن أعفيكما من بيعتكما لابني الوليد؟!

أحس خالد وأخوه بالفخ الذي ينصبه لهما أمير المؤمنين وهو في سكرات الموت، ففزعا وقالا:

معاذ الله يا أمير المؤمنين، بل نثبت على البيعة له!

قال عبدالملك وهو في آخر ساعة له في الدنيا:

لو قلتما غير ذلك لأمرت بقتلكما وأنا على حالتي هذه!

ثم ثقل أمير المؤمنين فجعل يحاول أن يضرب رأسه بيده فلا يستطيع أن يرفع يده، وتمتم قائلاً:

وددت أني كنت أكتسب ما يقوتني يوماً بيوم وأشتغل بعبادة الله، ولا أتولى من أمر الخلافة شيئاً! ووددت أني كنت عبداً لرجل من مكة أرعى له الغنم، وأني لم أل من الحكم شيئاً، وتمثل قائلاً:

ليتني كنت قبل ما قد بدا لي   في قلال الجبال أرعى الوعولا

وانطوت تلك الصفحة الغراء من تاريخ العرب والإسلام!

١٢

حرب الأحاديث والرسائل

اليوم الأول:

الحمد لله الذي جعل الوليد بن عبد الملك خليفة على المسلمين بعد وفاة أبيه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ـ رحمه الله ـ فإن الوليد يعرف قدري، ويقول كما كان أبوه يقول: لولا الحجاج لأكلت العرب بني مروان وبني أمية أجمعين.

وإني لأدعو الله أن أموت في عهد الوليد، فلا أشهد عهد أخيه سليمان بن عبد الملك الذي يرجو أن يلي الخلافة ذات يوم، وقد قال له المنجمون إن عهد أخيه قصير، فلا يلبث هو أن يجلس على السرير، ويطوف به الناس أفواجاً صائحين: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ولكني أرجو أن يقتل الله هذا الغلام المغرور قبل أن يجلس على سرير الخلافة، وأن يقبضني الله إليه قبل أن أراه جالساً على السرير.

انتهت دولة عبد الملك، وبدأت دولة الوليد، وجلس للعزاء والهناء، فقام الشاعر يرتجز بين يديه معزياً مهنئاً:

الله أعطاك التي لا فَوْقَها
وقد أراد الملحدون عَوْقَها
عنك، ويأبى الله إلاّ سَوْقَها
إليك، حتى قلّدوك طَوْقَها

وبعد أن بايعه الناس صعد إلى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن موت أمير المؤمنين عبد الملك كان من قضاء الله وسابق علمه، وقد صار إلى منازل الأبرار، فعليكم أيها الناس بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد، ومن أبدى لنا ذات نفسه، وخرج علينا.. ضربنا عنقه، ومن سكت عنا مات بدائه ولم نسأله عما يعتلج بصدره!

هكذا انعقدت الإمامة للوليد بن عبد الملك فلا يحق لأحد أن يفك عقدتها، ومن حاول ذلك حَلَّ دمهُ لأمير المؤمنين ولي أنا كبير ولاته.

وقد مضى الزمن الذي كان الناس يستمرئون فيه الخروج على خلفاء بني أمية كما خرج الحسين على يزيد بن معاوية، وكما خرج عبد الله بن الزبير على عبد الملك بن مروان، وآخر الخارجين كان ذلك المنافق ابن الأشعث الذي قلّدته إمرة أكبر جيوشي فانقلب بهذه الجيوش يحاول خلع أمير المؤمنين عبد الملك، وخلعي، وأيّده في خروجه علينا بعض المخدوعين من الصلحاء والقراء والتابعين وقلائل الصحابة الباقين على قيد الحياة.

الآن استقرت دولة بني مروان فلا سبيل إلى زعزعتها بخروج هنا أو هناك، ويتحدث الناس بعضهم إلى بعض في كل أرجاء الدولة قائلين: إنه لم يبق شيء فبايعوا واسكتوا.

ولكن الناس مع ذلك يحاربوننا سراً بوسائل خبيثة، وأشدها خبثاً تلفيقهم الأحاديث النبوية على خلفاء بني أمية السابقين،

وأولهم معاوية بن أبي سفيان رحمه الله.

جاءني رجال الخبر منذ قليل يقولون:

ـ أصلح الله الأمير إن الناس يتناقلون حديثاً موضوعاً عن معاوية.

ـ وماذا يقولون فيما وضعوا من هذا الحديث؟

ـ يقولون إن عبد الله بن عمر بن الخطاب قد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يطلع عليكم من هذا الفج رجل من أمتي يُبعث يوم القيامة على غير ملتي، فطلع معاوية، فقال النبي: هو هذا».

وماذا أيضاً؟

ينسبون إلى عبد الله بن مسعود أنه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا رأيتم معاوية على منبري هذا فاقتلوه».

لم تدهشني هذه الأحاديث التي يضعها الناس للنيل من بني أمية، فقلت لرجل الخبر:

أما أنا فأروي عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاوية: «يا معاوية.. أنت مني وأنا منك كهاتين وأشار بإصبعه الوسطى والتي تليها».

قال رجال الخبر فرحين بما سمعوا:

هذا حديث حسن أيها الأمير أصلحك الله.

قلت ساخراً من جهلهم:

ويلكم، بل هذا أيضاً حديث موضوع، ومثله أحاديث أخرى يروجها الوضاعون عن مناقب معاوية ومثالب علي، وإنما هي حرب الكلام يشنها الأمويون والهاشميون بعضهم على بعض، بعد أن وضعت حرب الدماء أوزارها.

اليوم الثاني:

فرغ الفعلة والصنّاع من بناء قصري الذي أمرت ببنائه في

مدينتي «واسط» وسميته «قصر الخضراء». وتحركت بموكبي من البصرة إلى واسط وحولي جموع من الناس، فلما أنخنا الركاب، قمت في الناس خطيباً فقلت:

أيها الناس، طوفوا بقصر الخضراء وأكثروا من الدعاء لي بالبركة والتوفيق، ثم تعالوا فاقبضوا أعطياتكم، وانظروا إلى ما في داخل قصري من زخرف الدنيا وزينتها، ولا يغرنكم بالله الغرور.

ضج الناس داعين لي بالبركة وقد بهرهم قصر الخضراء بشموخه وبهائه وسعته وأثاثه وزخارفه.

لمحت الشيخ الحسن البصري ـ وله مكانة عند العامة ـ يتسلل منسحباً من بين الناس فغمزت رجال الخبر فتتبعوه وسمعوه يقول محدثاً نفسه بشتمي:

قد نظرنا يا أخبث الأخبثين، وأفسق الفاسقين، فأما أهل السماء فمقتوك، وأما أهل الأرض فغرّوك.

وددت والله أني أقتل هذا الشيخ ولا يؤاخذني الخليفة على قتله، كما وددت أن أقتل شيخاً آخر هو عامر الشعبي الذي عفوت عنه في فتنة ابن الأشعث فلم يصاحبني إلاّ خشية عقابي، ولم يسلس قياده لأمير المؤمنين عبد الملك ـ رحمه الله، إلاّ تظاهراً بالولاء، ولكن ثمة شيخاً ثالثاً، لو أمسكته فلن أفلته أبداً إن شاء الله، وهو سعيد بن جبير الذي كان على رأس القراء والفقهاء في فتنة ابن الأشعث.

اليوم الثالث:

أزعجني كثيراً هذا النبأ الذي حمله إلينا رجال الخبر، فإن أمير المؤمنين الوليد قد ولّى عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة، فَقَدِمها بأثقاله محمولة على ثلاثين بعيراً، ونزل في دار جده مروان، وكان

قد بناها في المدينة حين كان كاتباً ومشيراً لأمير المؤمنين عثمان بن عفان، رحمه الله، قبل خمسين عاماً.

وجاء الناس إلى عمر بن عبد العزيز فسلموا عليه جماعة، فلم يكد يفرغ من صلاة الظهر حتى دعا عشرة من كبار فقهاء المدينة، على رأسهم عروة بن الزبير، فقال لهم:

إنما دعوتكم لتكونوا أعواناً لي على ال حق، فلا أقطع أمراً إلاّ برأيكم، فإن رأيتم أحداً يظلم الناس فلا تكتموا ذلك عني!

وقد دعا هؤلاء الفقهاء ـ ومن ورائهم أهل المدينة ـ بالخير لعمر ابن عبد العزيز، وطفقوا يوازنون بين عملي وعمله، ويسألون الله أن يرزق أهل العراق والياً مثل عمر بن عبد العزيز!

لو كان أمير المؤمنين عبد الملك حياً لما وصل عمر بن عبد العزيز إلى منصب الإمارة قط، لأن في تأميره توهيناً للدولة، إذ يسترخي الحبل للعامة فيجترىء سفهاؤهم ولا ينعق ناعق بالخروج ونبذ الطاعة والجماعة إلاّ تبعوه من أول صيحة يسمعونها.

ولأكتبن إلى أمير المؤمنين الوليد في هذا الأمر حتى يسد بحكمته هذه الثغرة التي توشك أن تهب منها العواصف على الدولة.

اليوم الرابع:

عدلت عن الكتابة إلى أمير المؤمنين في شأن ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ورأيت أن أجمع وجهاء البصرة والكوفة وأسافر بهم وفداً إلى أمير المؤمنين في دمشق، فهذا أفضل وأعود بالفائدة إن شاء الله! هناك ألتقي بأمير المؤمنين وأحدثه حديثاً لا يسمعه أحد سواه، وعسى أن يكون في ذلك الخير كل الخير للدولة ونظامها الذي استقرت أصوله في عهد أمير المؤمنين عبد الملك، رحمه الله.

وإن سليمان بن عبد الملك ـ ولي عهد الخليفة ـ لأثقل على نفسي من ابن عمه عمر بن عبد العزيز، وأشد ضرراً وفساداً على الدولة، فعمر يشتمني وهو جالس على سريره في دمشق أو في مدينة رسول الله، أما سليمان فكثير الجرأة، لا يخشى أن يرسل إلى ديواني كتباً مفتوحة يسبّني فيها أقذع السباب، وآخرها كتاب تلقيته منه يقول فيه:

«إلى الحجاج بن يوسف.. إنك امرؤ مهتوك عنك حجاب الحق، مستخف بحق الله وحق أوليائه، لا ترجو الله وقاراً، فأرجو أن تئول إلى مذلة ذليلة، وخزية طويلة، ويجعل الله مصيرك في الآخرة شر مصير»!

ولا أظن أن سليمان قد عرض كتابه هذا على أخيه أمير المؤمنين الوليد قبل أن يبعثه إلى ديواني، على أنني لم أبال شيئاً وكتبت إلى سليمان رداً قلت فيه:

«إنك امرؤ لم ترزق من أمرك حزماً، جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك، فكان الجفاء من خليقتك، والحمق من طبيعتك، وإني أعرف أنك كتبت إليّ والشيطان بين كتفيك، فشر مُمل على شر كاتب، وقد تحلب فوك للخلافة. فأنت شامخ البصر، تظن أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مدتها».

ويلي على هؤلاء الصبيان من بني مروان! لقد عبثوا بكرامتي أنا الشيخ الذي أنفق عمره في محاربة أعدائهم، وبناء دولتهم!

ولا بد لي من مراجعة أمير المؤمنين في مقر ملكه، فعسى أن يكف عني بصرامته وحزامته هؤلاء الصبيان العابثين!

اليوم الخامس:

هاأنذا في دمشق، عاصمة الدولة المروانية الأموية التي بسطت

جناحيها بين بحر الظلمات في أقصى المغرب، وبين تخوم الصين، أو «الصينستان» كما اعتاد شاعرنا جرير أن يسميها في شعره الذي يمدحني به منوهاً بفتوحات الجيوش التي سيرتها إلى البلدان النائية.

آخر مرة رأيت فيها دمشق كان قبل خمس سنوات، حين استدعاني أمير المؤمنين عبد الملك ـ رحمه الله ـ لنستعرض معاً شؤون الدولة بعد اتساعها مشرقاً ومغرباً.

والآن أرى دمشق وقد صارت كبرى مدائن الأرض، يجيء إليها الناس من كل فج، وتدخلها الأموال والغنائم والسبايا والأسرى من كل الأمم، وقد صار الذهب فيها قناطير مقنطرة، فتمول الناس وأترفوا ولم يبق فيهم محتاج، أما بنو مروان وسائر بني أمية فإن ثراءهم صار أشبه بنهر يجري بالزيادة كل يوم، ولا يجرى أبداً بالنقصان.

دخلت على أمير المؤمنين الوليد وفوق صدري درع مزخرفة، وعلى رأسي عمامة سوداء، وعلى كتفي قوس عربية وجعبة للسهام، ورحّب بي أمير المؤمنين وهش لي وابتسم وأقبل يحدثني كأنني أخوه، وأبدى من البر بي ما كان يبديه أبوه أمير المؤمنين رحمه الله، بل أكثر من ذلك البر الكثير.

وأراد أن يزيدني قرباً إليه فقدم لي كأساً من النبيذ، وأمسك بكأس يشربها، وقال لي:

يا حجاج، إن أبي ـ رحمه الله ـ كان يقول لي: إن الحجاج هو جلدة ما بين عينيك، وأنا أقول لك يا حجاج إنك جلدة وجهي كله!

هزني ثناء أمير المؤمنين فلم أجد كلمات أشكره بها، فتمتمت وجلجت، فضحك وقال متلطفاً:

يا حجاج ـ ألا تشرب كأسك؟

مددت يدي متوسلاً إليه وقلت:

يا أمير المؤمنين ـ إن الحلال هو ما رأيته حلالاً، والحرام ما رأيته حراماً ولكني كنت قد أمرت أهل العراق ألا يشربوا النبيذ لكيلا يعربدوا ويخرجوا، فإن شربت أنا خشيت أن يشربوا مثلي!

ضحك أمير المؤمنين وأعفاني من كأس النبيذ، وجاءت جارية فقالت لأمير المؤمنين:

إن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان تسأل: من هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك يا أمير المؤمنين وأنت في غلالة رقيقة بغير سلاح؟!

فلما علمت أم البنين أنني الحجاج استدعتني وشتمتني وقالت لي: لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك بحرق الكعبة وقتل ابن أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين.

ثم صرخت في وجهي باحتقار:

أخرج مذموماً مدحوراً!

هكذا فعلت بي بنت عبد العزيز أشد مما يفعله أخوها عمر بن عبد العزيز، فأين أذهب فراراً من أبناء عبد العزيز بن مروان وبناته؟

هدأَ أمير المؤمنين من روعي، ومازحني طويلاً، وأذنَ لي فخرجت من حضرته وقد عاودني سروري.

إلاّ أنني سمعت خالد بن يزيد بن معاوية، يشير نحوي ويقول ساخراً: بخ.. بخ.. هذا عمرو بن العاص! فاستدرت إليه غاضباً وقلت لهذا الرجل الذي شهدت الأمة على فساد أبيه:

إنني والله ماأنا بعمرو بن العاص، ولكني قتلت بسيفي هخذا مائة ألف، كلهم يشهدأ أباك كان سكّيراً خِميراً، وأن مأواه النار وبئس القرار!

١٣

مصرع الشيخ الصالح

اليوم الأول:

أرسل إلينا قائد جيوشنا الغازية في بلاد التركمان، عشرات الألوف من الأسرى والسبايا، فأمرنا ببيعهم في أسواق الرقيق إلاّ عدداً قليلاً من الصبيان والجواري اخترناهم للخدمة، وأرسلت اثنتين من أجمل الجواري إلى أمير المؤمنين في دمشق، هدية مني، وكنت منذ مدة قد بعثت إليه جارية رومية وأخرى فارسية فأولدهما ابنيه يزيد وإبراهيم.

وليست الجاريتان الجميلتان بشيء ذي قيمة، فأين هما من بنات ملوك القوط اللاتي حملهن موسى بن نصير من الأندلس. وقد قيل إنه سبى ثلاثين ألف عذراء من بنات أولئك الملوك الذي هزمتهم جيوش أمير المؤمنين في فتوح الأندلس، إلاّ أن فيما يذكرونه مبالغة كبيرة ولعل عددهن لم يزد على ألفين أو ثلاثة آلاف! لقد غصت قصور أمير المؤمنين بالجواري الروميات والفارسيات والتركيات والأرمنيات والفرنجيات، وهو يتلخص منهن بإهدائهن إلى إخوته

وأبناء عمومته ورجال دولته، إلاّ أن قصور هؤلاء أيضاً لم تعد تتسع لمزيد من الجواري، وقد صار أكثر أبنائهم وبناتهم هجناء لأنهم من أولاد الإماء، وقد ذهبت تلك الأيام حين كان سادتنا الأمويون يحرصون على إنجاب أولادهم من زوجات عربيات، ولن تمضي سنوات حتى يصبح بنو الجواري هم غالبية أبناء بني أمية وبناتهم، وربما تولى الخلافة غداً أو بعد غد خليفة من أولاد الجواري!

لقد أوشك الأرقاء وأولاد الأرقاء أن يصبحوا طبقة ظاهرة في جماعة المسلمين، وفي عناصر الدولة الأموية، ومع ذلك فالعرب هم السادة والقادة، وأهل الشرف والدين، والفرق شاسع بين مكانتهم العالية في الدولة، وبين من هم دونهم من فئات الناس وطبقاتهم كالموالي وأهل الذمة والأرقاء وأصحاب الصناعات والحرف والفعلة والفلاحين.

ولولا أن الله تعالى يلحظ بعين رعايته هذه الدولة لانحلّت عراها وتفككت، فقد ترامت أطرافها من الصين وما وراء النهر إلى المغرب والأندلس وبلاد الفرنسيس، وبلغ مسلمة ابن عبد الملك - أخو أمير المؤمنين - مشارف القسطنطينية، ولو تيسر له فتحها، لفتح بعدها رومية وغيرها من البلاد العظيمة.

واتسعت دواوين الدولة في دمشق وفي الأمصار، وهأنذا مشغول كل يوم بالنظر في دواوين البصرة والكوفة، من ديوان الجند إلى ديوان الخراج، إلى ديوان البريد، إلى ديوان الرسائل، إلى دواوين كثيرة أخرى.. وقد كنا منذ بضعة عشر عاماً ندير الدولة بالأوامر الشفهية، ولا نعمد إلى كتابة ورقة إلاّ عند الحاجة الماسة.

واضطرتني الفتوح المتواصلة في المشرق إلى تجنيد جميع الناس، إلاّ من أقعدته الشيخوخة أو العلة الثقيلة، فلا يبلغ الصبي الرابعة

عشرة من عمره إلاّ ضممته إلى البعوث الذاهبة للجهاد في سبيل الله، ومن تخلّف عن البعوث سفكت دمه، وهدمت منزله، وانتهبت ماله! وقد علم الناس مني الجد والصرمة في هذا الأمر فشمروا للخروج في البعوث ولم يتخلف منهم أحد!

اليوم الثاني:

يشن عمر بن عبد العزيز ـ والي مدينة رسول الله ـ حملة شعواء ضدي، ويكتب إلى أمير المؤمنين في دمشق يقترح عليه عزلي، ويشجع أهل النفاق والشقاق في العراق على الهروب مني واللجوء إليه. حتى اجتمع في المدينة عنده مئات من هؤلاء المارقين، وهم يكاتبون أنصارهم في العراق يحرضونهم على الخروج عن طاعتي واللحاق بهم في المدينة ومكة وغيرهما من مدن الحجاز ليكونوا جميعاً في حماية عمر بن عبد العزيز ورعايته!

إن أمر الدولة لا يستقيم هكذا، ولا بد من ضربة يصحو بها هؤلاء الجهلاء الحالمون من جهلهم وأحلامهم، وإلاّ دبَّ الوهن إلى الدولة، وتكاثرت عليها الفتوق، وعدنا من جديد نحارب الخارجين بعد أن كسرناهم وأخمدنا نارهم.

كتبت إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك:

«إن من عندي من المراق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولحقوا بمكة والمدينة، وإن ذلك وهن».

وقلت للرسول الذي حمل كتابي:

«إذا مثلت في حضرة أمير المؤمنين، فلا تخف من زوجته أم البنين بنت عبد العزيز أخت عمر بن عبد العزيز، وقل لأمير المؤمنين بصراحة إن عمر يحرض الناس على الخروج عن الطاعة والجماعة!

اليوم الثالث:

عاد الرسول الذي بعثته إلى أمير المؤمنين فرحاً مسروراً وقال لي:

- أصلحك الله أيها الأمير ونصرك على أعدائك وحاسديك!

- ما وراءك؟

- أمير المؤمنين أقرّ رأيك في عمر بن العزيز، وعزم أن يعزله عن ولاية المدينة ومكة والحجاز، وهو يستشيرك فيمن يوليه بدلاً منه.

كتبت من فوري إلى أمير المؤمنين مشيراً عليه بتولية أحد رجالنا المخلصين أميراً على مكة والمدينة والحجاز، فلم تكد رسالتي تصل إلى أمير المؤمنين حتى ولاّه وعزل عمر، فخرج منها كاسف البال، يقول لمن ودّعه من أصحابه:

إني أخاف أن أكون ممن نفته المدينة!

يعني بقوله هذا ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال إن المدينة «تنفي خبثها».

ولا أظن أن عمر بن عبد العزيز كان من الخبث الذي تنفيه المدينة، بالرغم من سوء رأيه في أعمالي وسوء رأيي في أعماله وأقواله، فقد كنت أنا أيضاً والياً على المدينة وخرجت منها معزولاً، ثم توليت العراق، فهل كان خروجي منها نفياً لخبثي؟ لقد كان خروجي منها كخروج عمر، فلعله لا يظن بعد اليوم أنه خير مني!

اليوم الرابع:

لم يكد الوالي الجديد يدخل مدينة الرسول عليه السلام حتى أخرج من بها من شذاذ أهل العراق كرهاً، وأمر فنودي في المدينة أن من أنزل عراقياً في داره أو أجّر له داراً، فقد استحق العقاب، واشتد الوالي الجديد في ذلك حتى خلت المدينة ومكة معاً من

اللاجئين إليهما من أهل الشقاق والنفاق، وكانتا في أيام عمر بن عبد العزيز ملجأ لهم، فكل من خاف مني شدَّ رحاله إلى هناك وتلقاه عمر بن عبد العزيز على الرحب والسعة والكرامة!

وقد سرّني كثيراً أن الوالي الجديد قبض في مكة على الفقيه الشيخ سعيد بن جبير الذي حاربنا مع الخارجين علينا في جيش ابن الأشعث الذي هزمناه وقتلناه منذ سنوات.

كان سعيد بن جبير مختفياً في مكة منذ وضعت حرب «ابن الأشعث» أوزارها. فلما جاء الوالي الجديد قيل لسعيد: أهرب من مكة فإن هذا الوالي رجل سوء، وقد أمره الوليد بن عبد الملك أن يحمل الفارين من العراق إلى الحجاج، وأنت أولهم، بل إن الحجاج لا يطلب رأس أحد سواك، من بقية أنصار ابن الأشعث!

لم يستطع سعيد بن جبير أن يهرب فقبض عليه الوالي وأمر بإرساله إلينا مع نفر آخرين من أصحابه مات بعضهم في الطريق، وسيق الآخرون إلى السجن!

همس لي أحد الثقات من رجال الخبر:

أيها الأمير.. إن سعيد بن جبير أوشك أن يهرب أولاً لولا أني كنت أرقبه بنفسي في رحلته من مكة إلى الكوفة مع حراسه!

وماذا كان يصنع حراسه إذن؟

إن الحارس الموكل به في إحدى الليالي رأى في منامه رؤيا مفزعة، فاستيقظ يهتف بسعيد بن جبير: أيها الشيخ الصالح، إني أبرأ إلى الله من دمك، فقد رأيت في منامي من يقول لي: لا تلطخ يديك بدم سعيد بن جبير، فاذهب أيها الشيخ حيث تشاء فلن أمنعك!

ساءتني هذه الحكاية ولكني استمتعت بها وسرّني أن الشيخ لم يفلت من أيدينا، فسألت الحارس:

ولماذا لم يذهب الشيخ حيث شاء؟

قال الحارس بلهجة من ينتظر المكافأة:

لأننا قبضنا عليه وجئنا به أيها الأمير، أصلحك الله.

اليوم الخامس:

جاءوا اليوم إلى مجلسي في ديوان الكوفة بالشيخ سعيد بن جبير، وأنا أعرفه منذ كنت أزاحمه على دروس عبد الله بن عباس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة، وقد أكبرت علمه منذ ذلك العهد، فلما توليت في العراق أسندت إليه مناصب لم أسند مثلها إلى غيره، مع أنه رجل من الموالي، لا أصل له في العرب، ولكن هذا الشيخ لم يحفظ لي هذه اليد البيضاء فانضم إلى عدوي الخارج على الدولة ابن الأشعث لعنه الله!

قلت لسعيد بن جبير باحتقار:

ما اسمك يا هذا؟

سعيد بن جبير.

بل أنت شقي بن كسير.

أمي كانت أعلم باسمي.

أشقاك الله وأشقاها

ثم سألته أختبر ديانته، إذ هو عندي كافر لخروجه على أمير المؤمنين:

ما تقول في محمد بن عبد الله؟

نبي الرحمة وإمام الهدى.

وعلي بن أبي طالب، أفي الجنة هو أم في النار؟!

من دخلها عرف من فيها!

غاظني جوابه هذا فشتمته وسخرت منه ثم سألته:

ألم أكرمك وأنت من الموالي، وأرفع قدرك فوق كثير من العرب؟

بلى!

ألم أقدم مكة فقتلت عبد الله بن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان؟!

بلى!

فما حملك على الخروج مع ابن الأشعث؟

إنما أنا رجل من المسلمين يخطىء مرة ويصيب مرة، وكانت في عنقي بيعة لابن الأشعث!

فتنكث بيعتين في عنقك لأمير المؤمنين، وتوفي بواحدة للحائك ابن الحائك ابن الأشعث؟ فوالله لأقتلنك شر قتلة!

ثم ناديت الحراس:

أئتوني بسيف صقيل عريض.

فلما جاء بالسيف، قلت لهم:

خذوا هذا المنافق المارق فاضربوا عنقه وائتوني برأسه!

أخذه الحراس مكبّلاً بقيوده ليقتلوه. فلم يكد يتحرك خارجاً حتى رأيته يضحك فأمرت بإعادته إلى مجلسي وسألته متعجباً:

ويلك! إني ما رأيتك تضحك قط منذ عرفتك قبل عشرين سنة، فما الذي أضحكك في هذه اللحظة وأنت مسوق للقتل؟

قال الرجل هازئاً:

تفكرت في اغترارك بإمهال الله لك قبل أن يكبك على وجهك في النار، فلم أتمالك نفسي أن ضحكت!

ثم قال يتضرع إلى الله:

اللهم لا تسلط الحجاج على مسلم بعدي، واجعلني آخر قتلاه!

فصرخت في الحراس:

اقتلوه في مجلسي هذا!

هجم عليه حارس فضرب عنقه فسقط رأسه بعمامته البيضاء، وقد تخضب الرأس والوجه والعمامة بالدماء!

كان الرجل مقيد اليدين والرجلين، فهالني منظره وهو يفحص برجليه في النزع الأخير والقيود تتخبط معه، فهتفت بالحراس على غير وعي مني:

قيودنا ... قيودنا!

ظن الحراس أني أريد أن ينزعوا عنه القيود، فقطعوا ساقيه وساعديه وأخذوا القيود.

صرخت فيهم:

ما هذا أردت أيها الأغبياء!

ظللت أصرخ فيهم حتى ظنوا أنني فقدت عقلي!

وليتني فقدت عقلي ولم أقتل هذا الشيخ، فإن نفسي تحدثني بأنني لن ألبث إلاّ قليلاً حتى ألحق به!

ما لي ولسعيد بن جبير؟ ما لي ولسعيد بن جبير؟!